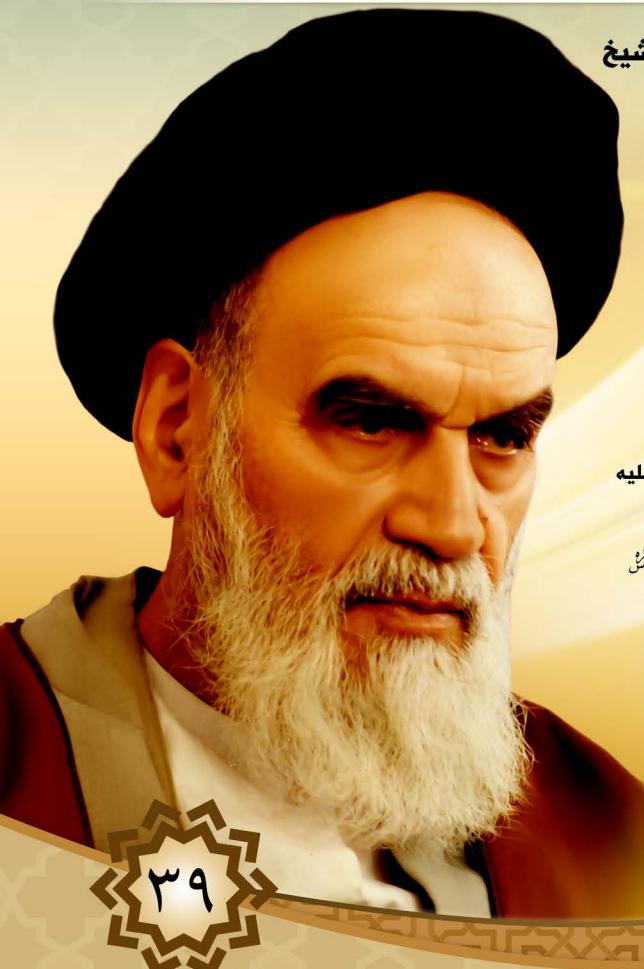


رسالة القرآن

إسلامية ثقافية شاملة



العدد التاسع والثلاثون - السنة العاشرة - رجب ١٤٣٥ هـ - مايو ٢٠١٤ م



٣٩

محور العدد:
ومضات من فكر الإمام الخميني

◆ طوفان من النور... حوار مع سماحة الشيخ
محمد عبدالمنعم الخاقاني حَفَظَهُ اللَّهُ

◆ قراءة في استعمال الإمام الخميني
للظهور في الآيات الشريفات

◆ الإمام الخميني القائد الفقيه

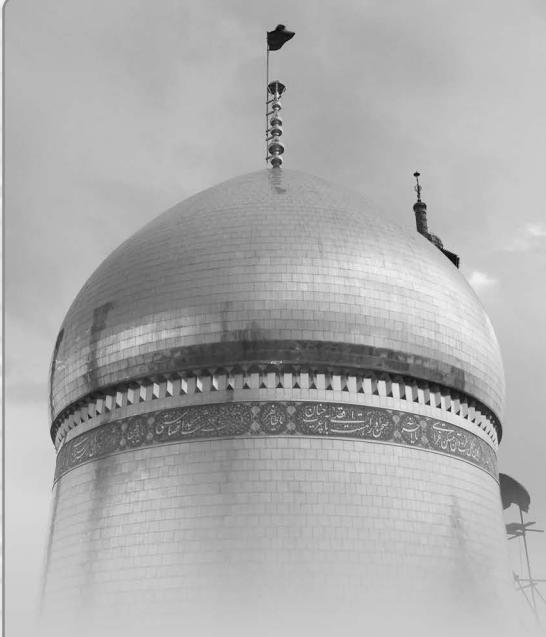
◆ التوحيد وأثره على الموقف السياسي
في فكر الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه

◆ اتباع الهوى في فكر الإمام الخميني تَكَلُّفُهُ



رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة



فصلية تصدر عن
طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة

برعاية
مكتب البيان للمراجعات الدينية

• الهيئة الاستشارية:

الشيخ عبد الله علي الدقاد
الشيخ علي فاضل الصدقي
الشيخ غازي عبد الحسن السماك

• المشرف العام :

الشيخ عبد الرؤوف حسن الريبي

• رئيس التحرير:

الشيخ محمد علي خاتم

• مدير التحرير:

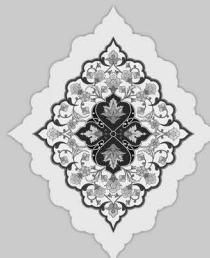
الشيخ حسين فؤاد المرزوق

• رئيس هيئة التحرير:

الشيخ عزيز حسن الخضران

هيئة التحرير:

الشيخ حسين علي أبو رويس
الشيخ محمد باقر خليل الشيخ





مكتبة الإمام الخميني

مكتبة الإمام
الخميني

مكتبة الإمام
الخميني

مكتبة الإمام الخميني
المطبوعات

مكتبة الإمام
الخميني

الزعيم العالمي

٣

رئيس التحرير

٥

حوار مع ساحة الشيخ محمد عبد المنعم الحاقي

٣٨

قراءة في استعمال الإمام الخميني للظهور في الآيات الشريفات

الشيخ عادل علي الشعالة

٧٨

الشيخ عزيز حسن الحضران

الإمام الخميني القائد الفقير

٩٥

السيد مرتضى السيد مجید السندي

التوحيد وأثره على الموقف السياسي

في فكر الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه

١١١

الشيخ محمد علي خاتم

اتباع الهوى في فكر الإمام الخميني

١٢٥

الشيخ رائد عبدالكريم الخنزيري

عوامل خلود كربلاء (القسم الثاني)

١٤٦

الشيخ محمد صالح مهدي

فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) موجودة في أرض قم (القسم الثاني)

١٧٦

الشيخ علي إبراهيم عبدالعال

نظريّة الكسب عند الأشاعرة

١٩١

الشيخ علي فاضل الصدقي

قاعدة الحرام لا يفسد الحلال ولا يحرمه

الزعيم العالمي

لا يتستّى لغالبية الناس أن يتعرّفوا على الإسلام بصورته الناصعة العظيمة الراقية بمجرد الاطلاع على شيء من الآيات والروايات ما لم تبرز أمام ناظرهم شخصيات تمثّل الإسلام بجذافيره وتنطلق من عمق روحه، وتحمل هم رسالته، مؤمنة به وبقيمه العالية. قد انفتحت عليه في كل جوانب حياتها، فمُلئت إيماناً وتفوى وحباً وإخلاصاً، فعاشت في هذه البسيطة مشاعل هداية لن اهتدى بها...

ولا شاء في أن الذهن لن يعود في تصوّره أعظم مخلوق في الوجود وهو الرسول الأعظم ﷺ ومن جاء من بعده من أئمة الهدى ابتداءً من أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ وانتهاءً بالإمام الغائب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لكنّا نقول بأنّ الله تبارك وتعالى لم يقصر تجسيد الإسلام على هذه الشخصيات العظيمة المعصومة عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل اخذ من عباده الصالحين أولياء لا يرجون الجنة لخلافتها ونعيمها، ولا يخافون النار لحرارتها... ولكنّهم لا يرجون إلا الله ولا يخافون إلا الله قد نذروا أنفسهم وذواتهم لله ووضعوا الله نصب أعينهم. «قد نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها»^(١)، فقال عنهم رب العزة والمجلالة ﴿أَلَا إِنَّ



أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَحْوِفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٢).

وفي التاريخ نماذج كثيرة من أولياء الله. ونحن في هذا العدد نسلط الضوء على شيء من فكر نموذج من النماذج النادرة حيث تميّز بزعامة عالمية مطبيقاً الإسلام بجذافيه. مراعياً حدوده وداعياً إليه حتى في أشدّ المعطفات وأخطرها، فكان حقّ يمثل زعامة عالمية خصوصاً بعد أن دفع الأمة نحو دينها لتعود الحاكمة للإسلام في كل الأرض ولو بعد حين.

هذا النموذج هو السيد روح الله الموسوي الخميني أعلى الله في الخلد مقامه.

فلقد جاء ليذكّر بالله وليعطي نموذجاً متقدّماً من نماذج أهل البيت^{عليهم السلام} بعد أن عُجزن في مدرسة العزة والكرامة مدرسة العفة والطهارة.

وبقي مناراً يشعّ بنور الإيمان وروح الإحسان. فكان مباركاً أين ما حلّ بسبب ذوبانه في الإسلام.

وذهب من هذه الحياة بعد أن سطّر تاريخاً جديداً للإسلام الأصيل ليعود المسلمين -كل المسلمين- إلى إسلامهم. فجزاه الله خير الجزاء وتقبله الله عبداً مخلصاً.

رئيس التحرير

(١) بحار الأنوار ج ٦٦ ص ٣١٩.

(٢) سورة يومنس: ٦٢.

طوفان من النور

حوار مع سماحة الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني^(١) (احفظه الله)

حاوره: الشيخ علي عقيل

الشيخ محمد عاشور

عندما عمّ الظلام وساد الجهل أقطار المعمورة، شاءت الأقدار أن يولد نجم ثاقب، وعلم زاهر، يبرغ من جديد بعد الأنوار العظمى من آل الرسول وصفوته الطاهرة، نجم يلوح في الأفق؛ ينشر نور العلم، ويقظة الضمير، لتشقّ الروح طريقها الذي خُلقت من أجله؛ لترسم لها لوحة خلابة تنظر من خلالها معنى العشق والمحبة.. معنى الذوبان والانصهار في المحبوب الحقيقى، إِنَّه رجل خرج من بطن مدرسة أهل البيت ع، وتلمَّذ تحت فيافيهم، فشدَّ حزام الزهد على ظهره، وطلق دنياه ثلاثةً كأجداده الطاهرين (عليهم أفضل صلوات المصليين)، ربط البأس على جوارحه، والعزمية في جوانحه، وذَلَّ نفسه لله فذَلَّ الله له عصيب الأمور وخطيرها.

إِنَّه الخميني العظيم، الراحل القريب مَنَّا، الذي لا يفتأ ولا يفتر العالم والعالم من ذكره، لما قامت وقدمت نفسه العظيمة للعلم كل العالم، يذكره الطغاة كل حين هزَّه أركان عروشهم، ويذكره الموالون والمحبون هزَّه عمق ضمائرهم، وإنعاشها بنضـلـ الحـيـاـةـ وـالـكـرـامـةـ وـالـعـزـّـةـ.

إِنَّه رجل (الإسلام)، رجل المبدأ، الذي أروى شجرة الإسلام الخالد من

جديد، وزادها رونقاً وجمالاً؛ في القلوب لتحيا ويشتد عودها.
ومن هنا نعتقد أنه من اللازم علينا أن نعرض هذه الشخصية المباركة: مثلاً
يُحذى بها، وموعظة حية يُلتمس منها، فمن أجل ذلك؛ اختارت مجلتنا أن
تلقي بعلم بارز وعالم عارف يناغمها بالحديث عن هذا الطود الشامخ، والعالم
النحرير، والعابد المتنسك.
ولذا اختارت المجلة محوراً يمس شيئاً من نور طالما يطالعنا كلما ارقت أبصارنا
نحو شيبته البيضاء الناصعة، وعمامته السوداء الزاهرة، وهو (البعد العرفاني في
شخصية الإمام الخميني الراحل قدس).
فكان الحوار الشيق مع فضيلة العلامة الشيخ محمد عبد المنعم الخاقاني (حفظه
الله وسدّد خطاه).

❖ ما هي أهمّ الشخصيات التي ميّزت شخصية الإمام الخميني؟
❖ بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين
محمد وآلـهـ الطـيـبـيـنـ الطـاهـرـيـنـ. فيـ الجـوابـ عـنـ هـذـاـ السـؤـالـ نـقـولـ: إـنـ هـذـهـ الشـخـصـيـةـ
الـعـظـيمـةـ لـلـإـمـامـ الخـمـيـنـيـ قدـسـ مـتـعـدـدـةـ الأـبعـادـ، مـتـشـعـبـةـ، وـأـيـضاـ هيـ مـتـسـعـةـ بـعـيـدةـ
الـعـقـمـ، بـحـيـثـ يـصـعـبـ عـلـىـ الـبـاحـثـ الإـحـاطـةـ بـهـاـ وـاسـتـقـصـاءـ كـلـ هـذـهـ الـجـوـانـبـ، ثـمـ
إـعـطـاءـ كـلـ بـعـدـ مـاـ يـسـتـحـقـ مـنـ الـاـهـتـمـامـ وـالـبـيـانـ - فـتـارـةـ الـبـاحـثـ يـبـحـثـ عـنـ
شـخـصـيـةـ بـشـكـلـ إـجـالـيـ فـيـمـرـ عـلـىـ كـلـ بـعـدـ وـيـعـطـيهـ شـيـئـاـ مـنـ التـوـضـيـحـ وـيـنـتـهـيـ
مـنـهـ، وـتـارـةـ يـرـيدـ أـنـ يـسـتـقـصـيـ بـعـدـاـ مـنـ هـذـهـ الأـبعـادـ، فـهـذـهـ تـخـتـلـفـ عـنـ النـظـرـةـ
الـإـجـمـالـيـةـ - وـالـمـتـبـعـ الـمـنـصـفـ يـخـتـصـرـ القـوـلـ حـوـلـ شـخـصـيـةـ الـإـمـامـ الخـمـيـنـيـ قدـسـ فـيـوـكـدـ
عـلـىـ أـنـهـ (ـشـخـصـيـةـ اـسـتـشـنـائـيـةـ نـابـغـةـ مـتـازـةـ، وـقـائـدـ مـُحـنـكـ وـمـخلـصـ)، باـخـصـارـ فـإـنـ
هـذـهـ الـجـملـةـ تـلـقـيـ الضـوءـ عـلـىـ كـلـ هـذـهـ الشـخـصـيـةـ الـعـظـيمـةـ.
وـبـالـنـسـبـةـ لـيـ شـخـصـيـاـ عـشـتـ فـيـ جـوـ هـذـهـ الـمـرـحـلـةـ الـأـخـيـرـةـ مـنـ عـمـرـهـ

الشريف قده وهذه المرحلة امتدت عشرين عاماً قبل وفاته، وأنا أرافق وأتابع نشاطه العلمي والفكري وسيرته العملية السلوكية الاجتماعية السياسية، ومن فضل الله عليّ أن وفر لي فرصة الارتباط المباشر بعالمين جليلين من تلامذة الإمام ظاهري وهما آية الله عبدالله جوادي آملاني دامتلله، وآية الله محمد تقى مصباح يزدي دامتلله، وعن طريق هذين العلمين فتحت أمامي نوافذ عديدة أطللت من خلالها على شيء شخصية الإمام الخميني عليهما السلام العلمية والفكرية والأخلاقية والسلوكية والسياسية والاجتماعية.

هناك الكثير من النوازع في العالم الإسلامي ولكل منهم بعد أو أكثر يتميز به ويشتهر بين العلماء، أو حتى عند الناس العاديين، بينما الإمام الخميني قده تجلّت في وجوده كثير من السمات والخصائص المهمة وبصورة منسجمة، وهذه ميزة قل نظيرها ولاسيما في عالمنا المعاصر.

البعد العلمي:

هناك أبعاد متعددة لشخصية الإمام الخميني عليهما السلام منها البعد الأخلاقي، ومنها البعد العرفاني، ومنها البعد السياسي، ومنها البعد الاجتماعي، ومنها البعد القيادي والإداري، ومنها البعد العلمي؛ يعتبر البعد العلمي من أبعاده البارزة والممتازة، فهو من الناحية العلمية والمعنوية قد ارتفع إلى أفق رفيع لم يصل إليه الكثير من العلماء، وقد فاق الكثير من أقرانه في أربعة علوم:

أولاً: علم الفقه.

ثانياً: علم أصول الفقه.

ثالثاً: الفلسفة الإسلامية.

رابعاً: العرفان الإسلامي.

وامتيازه عن أقرانه يتلخص في أن هذه العلوم منسجمة ومتنا格مة في

شخصيته، فالبعض مثلاً حقّق في العرفان درجة عالية، ولكنه كان في الفلسفة قليل البضاعة أو العمق، والبعض حقق في الفقه عمّاً ممتازاً ولكنه لا عمق له في البحوث العقلية، أما الإمام الخميني رض فقد كان جامعاً لهذه العلوم في مستوىً ممتاز، وهو من القلة النادرة في الجمع بين العلوم الإسلامية الأساسية، فهو قد نال عمّاً ممتازاً في العلوم العقلية والعلوم النقلية وفي مجال السير والسلوك المعنوي، وقد كان رض في القمة في مجال الفقه، والفلسفة، والعرفان، والأداب العربية، والفكر الإسلامي، وهذا التعدد المنسجم في الأبعاد قليل النظير في عالمنا المعاصر، وقد أنعم الله عليه بنعمه عظيمة وهي أنه قد وفر له فرصة نقل أفكاره ونظرياته إلى المجال الاجتماعي ليداوي بالإسلام الأمراض الاجتماعية وليلبي الحاجات الاجتماعية، ففي أحديشه وخطباته يُكثّر الكلام عن الفقه الجواهري والفقه المتحرّك غير الرائد لمواكبة الحاجات الاجتماعية بحيث يتتناسب مع مقتضيات الزمان والمكان والظروف الاجتماعية المتغيّرة، والجمع بين هذين الأمرين صعب جدّاً، أي أنه من ناحية يحافظ على أصالة الفقه بأساليب كبار الفقهاء من القدماء والمعاصرين، ومن ناحية أخرى يستنبط ما يُلبي الحاجات المتغيّرة للمجتمع، والعلماء الذين ساروا في هذا الطريق الصعب الشاق يعرفون كيف جمع الإمام رض بين هاتين الميزتين بشكل رائع ومنسجم.

إن العلماء السابقين لهم خدمات علمية جليلة في مجال التعليم والتعلم والكتابة، أي إنهم يتعلّمون العلوم من الجيل السابق ويُعلّموها للجيل اللاحق والجديد، وعن طريق تربية التلاميذ يحفظون علوم السابقين وينقلونها لللاحقين، وبعدهم كتب الكتب والرسائل لتكون حلقة الاتصال بالمجتمع على طول التاريخ وبهذا الجهد العظيم بنوا الأسس العلمية للجيل الحاضر، وربطوها بالجيل السابق، فهم حفظوا التجارب العلمية للسابقين رمّوها وأكملوها لتحقيق نمو المجتمع

العلمي والثقافي، ول يؤدوا دورهم مع جيلهم، وبعض النوافع حفظ الميراث العلمي والثقافي للسابقين وأضاف أشياء جديدة وعميقة بحيث أغنى المجتمع علمياً وثقافياً، والإمام الخميني رض واحد من هؤلاء النوافع في مرحلته التاريخية، فهو قد استوعب وهضم بشكل ممتاز العلوم الإسلامية ودرسها وألف فيها ونقلها إلى طلابه وتلامذته، وابتكر أفكاراً حديثة في تلك العلوم الأربعة.

✿ مع تعدد العلوم والتخصصات التي خاضها الإمام الخميني قدس، هل جاء بنظريات جديدة فيها؟

❖ ابتكار الإمام في علم العرفان النظري:

لم يجد الإمام رض الفرصة الكافية في تحقيق ودراسة ونقد آراء العرفاء الكبار، وإنما حقق ونقد البعض، مثل التعليقات التي دوّنها في شرح فصوص الحكم ومصباح الأنُس، وهو كتاب يناهز (٣٠٠) صفحة، وفيه نقد بعض الفلاسفة والعرفاء أمثال ابن عربي وملا صدرا طاطباً.

ابتكاره في علم أصول الفقه:

فقد بيّن في درسه للطلاب مبني كبار العلماء في هذا الفن، أمثال الشيخ مرتضى الأنصارى قدس، والشيخ الآخوند الخراساني قدس، والشيخ عبدالكريم الحائرى اليزدي قدس، بينها بشكل محكم وهذّبها أحياناً وأكملها، وبالتالي طرح مبنيًّا جديداً في هذا المجال، ومن باب المثال: هذب (بحث الانسداد)، وكانت له إضافات جديدة في (قاعدة لا ضرر).

ابتكاره في علم الفقه:

مع أنه أكد على الأسلوب المتعارف عند كبار الفقهاء فإنه كانت له ابتكارات لاسيمما في مجال المسائل الاجتماعية للإسلام حيث لم يتم البحث فيها سابقاً، فقد بدأ الإمام في تحقیقات و دروس في هذا المجال وقدّم بحوثاً في المسائل الاجتماعية

الفقهية، وتقديم المحدود اليوم للعلماء والمسؤولين في القوانين الاجتماعية والشئون السياسية في الجمهورية الإسلامية، ومن جملة ابتكاراته: تحرير الحيل الشرعية في الربا، وكذا في مجال التقى بحيث أخرج الأمور المهمة من مجال التقى وقال: " بأنه لا تقى فيها".

مذهب الفلسفى:

هناك مذاهب فلسفية معروفة بين الفلسفه المسلمين وهي تنقسم إلى ثلاثة مذاهب:

أولاً: مذهب المشائين: وهو مذهب كبار الفلسفه أمثال الفارابي، وابن سينا.
ثانياً: مذهب الإشراقيين: وقد شاع منذ زمان شيخ الإشراق الشيخ شهاب الدين السهروردي بين الفلسفه المسلمين.
ثالثاً: مذهب صدر المتألهين: وهو جامع بين آراء المشائين والإشراقيين، وقد اختار صدر المتألهين ما رأه أقرب إلى الحق من هذه الآراء، وأسبغ على كل ذلك صبغةً فلسفية تجمع بين الاتجاه المشائى والإشراقي، وقد عُرف هذا المذهب بـ"المذهب الصدرائي" أو "الحكمة المتعالية"، وقد فضل الإمام الخميني تبنّى الحكمة المتعالية، وعلى أساس ذلك كان يُدرس كتاب الأسفار للملا صدرًا وقد استفاد من هذا الدرس كثير من العلماء ومن جملتهم المرحوم الشهيد مطهري ظاهراً، وصحّ أن الإمام اختار مذهب الحكمة المتعالية ولكنّه كانت له انتقادات لصدر المتألهين تبنّى.

❖ من أهم السمات التي تميّز بها الإمام الخميني تبنّى السمة العرفانية

الأخلاقية، فما هي معالمها؟

❖ الملّيون لشخصية الإمام الخميني تبنّى انطلقوا في بيان عظمته وأبدوا احترامهم الكبير لثباته ووضوح مسیرته ولكن هؤلاء لم يعايشوه، وإنما رأوه من

بُعد وسمعوا عنه ولم يُدركوا بُعد الإلهي، كما قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٢)، فهو عالم رباني، كما يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع ينعنون مع كلّ ناعق»^(٣)، فالعالم الرباني ينطبق على الإمام الخميني قَدِّسَ شَرَفُهُ، إنه جليل كرس كلّ أبعاد وجوده لهذا الهدف، أي تحقيق المجتمع ذي الصبغة الإلهية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٤)، أو (عالم رباني)، أي إنه ذائب في ربط الناس بالله جَلَّ وَعَلَى لِوَلَهِ، أولًا هو الارتباط بالرب، ثم يربط الآخرين بالرب، ليكون عالماً ربانياً، وهو مصدق لهذه الآية الكريمة ﴿رِجَالٌ لَا ثُلَمَّهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٥) وهو تلميذ نجيب في مدرسة أنبياء الله تعالى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولاسيما في مدرسة جده محمد بن عبد الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وباختصار فإن شخصية الإمام قدّسَ شَرَفُهُ منذ نعومة أظفاره أقيمت على أساس العبودية لله جَلَّ وَعَلَهُ فهو قد آمن بكلّ وجوده أنّ العالم المخلوق كله هو تحمل لعظمته الوجود الإلهي المقدس، وهو قد تحقق وبقي بأمره تعالى كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٦) وهو معتقد من أعماق قلبه بأنّ كلّ شيء خاضع وخاشع للإرادة الإلهية كما يقول القرآن الكريم: ﴿كُلُّ لَهُ قَاتِلُونَ﴾^(٧) وإرادة الله تعالى تعلقت بأن يتحرك الإنسان بحركة حرّة وواعية في طريق التقرّب إلى الله جَلَّ وَعَلَهُ، وعليه واجبات من قبيل مساعدة الآخرين للسير في هذا الطريق، وعليه مسؤولية تجاه الناس الآخرين في هذا المجال وما أكثر العلماء والمفكرين الذين أدركوا هذه القضية وهي: (أن الكمال الحقيقي للإنسان هو في تقرّبه إلى الله سبحانه)، ولكنهم تصوروها محصورة في حركة فردية وعلاقة شخصية بين الفرد وربّه، كما نلاحظ ذلك عند كثير من العرفاء المشهورين) أما الإمام الخميني قدّسَ شَرَفُهُ فإنه لم يضيق إطار هذه العلاقة بل يرى أنّ معرفة الرب تعني أن يكون كلّ وجود الإنسان مظهراً لعبوديته جَلَّ وَعَلَهُ، فلا

يقتصر الإنسان على أن يكون قلبه مرتبطاً بالله جل وعلا، وإنما لابد من أن يصبح في قوله، وخططه، وسلوكه، وعمله الفردي، والعائلي، والاجتماعي، وحتى في العلاقات الدولية أن يكون تجسيداً لعبوديته لله تعالى، فالإمام الخميني قدّسَ كأن يحاول أن يسند موقفه هذا بالأدلة العقلية والنقلية وأيضاً بالسلوك العرفاني وأن يقوّي إيمانه في هذا المجال، وقد أتفق فترة شبابه في تقوية هذا الإيمان في الأبعاد الفلسفية والعرفانية معتمداً على الكتاب والسنة الشريفة، فالإمام الخميني قدّسَ كأن قليل النظير في أنه كثير الطموح لتسليق القمم في الحالات الأساسية للعلوم الإسلامية وهي العلوم: (العقلية، والنقلية، والسير والسلوك المعنوي)، فهو بهذه الرؤية كان معتقداً من أعمق روحه بأن حياته لابد من أن تكون وقفاً للعبودية لله جل وعلا، وإذا لاحظنا أنه كان يؤكّد كثيراً في خطاباته على أننا تابعون للتوكيل الإلهي ونحاول القيام بالواجب، والنتيجة هي بيد الله تعالى، فهذا القول لم يكن سطحياً وإنما هو يحكي واقعاً احتلّ أعمق قلبه وكان مؤمناً به بكلّ وجوده فالعبد لابد من أن ينهض بالعبودية لله جل وعلا العبود الحقيقى، ولنيل القرب الإلهي لا يوجد إلاّ سبيل واحد وهو سبيل (ال العبودية)، والعبودية لابد من أن تشمل كلّ وجود الإنسان أي في ذهنه، وعواطفه، في سلوكه الفردي، وموافقه الاجتماعية، في حياة الإنسان لا ينبغي أن يوجد مجال لا تظهر فيه العبودية لله تعالى فهي تظهر في حال تكلّمه، وسكته، في حال قيامه وقعوده، في حال تعليمه أو تعلّمه، في حال عبادته أو معاشرته، إذا كان الإنسان في حال تعليمه لأولاده وتربيتهم، وإذا كان في حالة الجهاد، أو كان في حالة السجن والنفي من البلاد فإنه لابد من أن تتجلّى العبودية لله حتى آخر لحظات حياته، في كلّ شيء وفي كلّ مجال، وحسب تعبير القرآن الكريم في ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَهْيَايِي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٨)، ويقول الإمام الخميني الراحل قدّسَ: "إن العالم محضر الله، فلا

تعصوا الله في محضره".

كلّ من يتعمّق في شخصية الإمام قدّس فسيجد أن العبوديّة هي جوهر شخصيته، وكلّ شيء آخر يتجلّى في ظلّ عبودية الله، أيّ إنها تجلّيات للعبوديّة وشروط لظهور هذا النور، وعندما ظفر الإمام قدّس بهذه الحقائق بما تيسّر له وهو إنسان غير معصوم فإنه بذل جهده لتربية الآخرين وبهذا يتجلّى مظهر آخر لعبوديّة الله، وقد بيّن هذه المعاني في تفسيره لسورة الحمد وسورة العلق، فقوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ...﴾ كانت باسم الرب سُبحانه، وقد ربّ طلاباً كثيرين طيلة فترة تدریسه حيث استطاعوا أن ينشروا في المجتمع الرسالة التي آمن بها وهي رسالة جميع الأنبياء عليهما السلام وهي روح الإسلام العظيم الذي اختاره الله تعالى ديناً للبشرية جمّعاً، والظروف الاجتماعية المحيطة به كانت تقضي حركة ضد الكفر والإلحاد والاستكبار وفي البداية اهتم الإمام قدّس بالتصدي للكفر الذي احتلّ مجتمعه الإيراني فنهض بدافع إشاعة عبوديّة الله في هذا المجتمع ولم يقتصر على الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فنشر الإيمان بالله والبراءة من الإلحاد والكفر بالطاغوت.

خطاباته من أول النهضة تشعّ فيها كلمة الإسلام والقرآن والله تبارك وتعالى، لم يتتصّع في ذلك بل كانت نابعة من أعماق روحه، لم يكن له هدف سوى مرضاة الله جلّ وعلا، كان يحاول صيانة المجتمع الإلهي الإسلامي المعنوي وقد طبّق ذلك ببرامج أهله الله إليها، فعندما كان الناس يائسين من الإصلاح والتغيير نصره الله، بينما لم تسمح له دولة في العالم للإقامة فيها، بل وحتى من الدخول إليها.

✿ ما هي نظرية الإمام الراحل قدّس لعلم العرفان؟

❖ الجواب عن هذا السؤال يستدعي تقديم مقدمة، بحيث نقف على مرتبة علم العرفان بالنسبة لسائر العلوم الإسلامية التي عُرف بها الإمام قدّس، فلمعرفة

العرفان لابد من معرفة تلك العلوم المجاورة له، وعلى رأسها الفلسفة، لنميز بين الفلسفة والعرفان، لنعرف حدود كل واحد من هذين العلمين، ثم نحاول أن نبين نظرة الإمام الخميني قائد الثورة للعرفان.

العرفان والفلسفة (العقل):

المعرفة العرفانية في مقابل المعرفة العقلية، فالمعرفة العقلية تعتمد على الاستدلال والمفاهيم والتصورات والألفاظ، بينما العرفان هو من سُنخ الكشف والشهود والعلم الحضوري، فالفلسفة التي تعتمد على الأسلوب العقلي هي في مقابل العرفان، والهدف والغاية من الفلسفة هو معرفة الحقائق، ووسيلتها في إثبات مسائلها هو «العقل» و«المفاهيم الذهنية»؛ وهذا لا يتوقع من الفلسفة إلا إثبات وجود الله تعالى، ولا ينبغي أن يتوقع منها أن توصلنا إلى الله، ولا أن تتحقق لنا الرؤية.

وفي مجال علاقة العقل بالعرفان هناك اختلاف بين مؤيدي العرفان ومخالفيه في عدة مسائل، منها أن النتائج الحاصلة من العرفان (عن طريق الكشف والشهود) هل يستطيع العقل أن يقيّمها فيبطل بعضها؟، والجواب مهم؛ لأن بعض الأمور التي يدعّيها بعض العرفاء ليست قابلة للتوضيح العقلي، ويُزعمون أنهم أدركوها بالعلم الحضوري، والعقل لا يدركها؛ لذا لا يتحقق لها أن ينكرها.

ومن جملة هذه المسائل «وحدة الوجود»:

- ١- فقال البعض: إن وحدة الوجود تعني أن أي شيء آخر غير الله فهو غير موجود، والأشياء الأخرى أوهام وخيالات، والله وحده الموجود.
- ٢- وبعض آخر قال: إن أي شيء آخر لا وجود له خارج ظرف العلم الإلهي، وبناءً على هذا يتحقق لون من «الكثرة» في أعماق الوحدة.
- ٣- وبعض قال: إن السالك يصل إلى مقام لا يرى فيه إلا الله، وكل شيء

يفني في الله.

٤- ويقول صدر المتألهين: إنّ وجود المخلوقات بالنسبة إلى الله - تعالى - هو عين الربط والتعلق، وليس لها استقلال، والذي يدركه العارف هو نفي الاستقلال عن سائر الموجودات.

والعلم الحضوري الحالص هو في الحقيقة إدراك الواقع، ومن هنا فإنّه يستحيل أن يكون خطأ، ولكنّ العلم الحضوري يرافقه عادة تفسير ذهني هو من قبيل العلم الحصولي، فالشيء القابل للخطأ هو التفسير الذهني وهو علم حصولي، ويمكن أن يُرد عليه بالبرهان العقلي، والذي يراه العارف بالعلم الحضوري هو انحصر الوجود المستقل بالله تعالى، وهو منفي عن غيره.

وإذا أتينا للعرفان، بعد أن ميّزنا بين الفلسفة والعرفان، وأن الفلسفة تعتمد على الأسلوب البرهاني، والعرفان يعتمد على أسلوب الكشف والشهود والعلم الحضوري، فماذا نقصد به؟

أ- معنى العرفان:

العرفان لغة: بمعنى المعرفة والعلم، ويمكن أن يحصل عن طريق الحسّ أو العقل أو النقل أو القلب.

والعرفان في الاصطلاح: يُطلق على المعرفة المحصلة من طريق خاص، أي: عن طريق الشهود الباطني والحضوري، وليس عن طريق الحسّ والتجربة، ولا عن طريق العقل أو النقل، فالشهود القلبي الباطني هو حضور من دون واسطة الصورة الذهنية، وإنّما هو إدراك مباشر لذات المعلوم، ويسمى في الفلسفة بـ«العلم الحضوري»، وهو مختلف عن العلم الحصولي الذي يحصل عن طريق التجربة والفكر والاستدلال والمفاهيم الذهنية.

والعلوم الحضورية كثيرة، والشهود الباطني متنوّع، ولا يُطلق عليها جمیعاً

اسم «العرفان»، وإنما العرفان هو: معرفة الله - تعالى - وصفاته وأفعاله، وهي معرفة ليست حاصلة عن طريق الفكر والاستدلال، وإنما عن طريق الإدراك القلبي الباطني.

والعرفة الحاصلة بواسطة المفاهيم الذهنية هي في الواقع من وراء حجاب وحائل، والمحاجب رقيق وغليظ.

إن كلّ البراهين الفلسفية والكلامية هي معرفة للغائب، والعرفان هو الذي يزود الإنسان بمعرفة حضورية وشهودية، وهو رؤية.

ب-العرفان نظريّ وعمليّ:

أصل العرفان هو الإدراك الحضوري الشهودي للله - سبحانه - وصفاته وأفعاله، وهو ليس من قبيل المفاهيم الذهنية ولا الألفاظ، وإنما هو رؤية، لكن من تحصل له هذه الرؤية فهو يصفها للآخرين، ويصيّبها في قالب الألفاظ والمفاهيم ليفهمها الآخرين.

إذاً هناك اصطلاح بالنسبة إلى هذا الوصف الحاكي عن العلم الحضوري يُقال إنّ هذا «عرفان نظريّ»، وبما أنّ هذا الشهود والحضور يتوقف على القيام بأعمال وتمارين يختصرها عنوان السير والسلوك فهذه تسمى بـ«العرفان العمليّ».

فالعرفان العملي هو عبارة عن: توصيات خاصة تسوق الإنسان إلى معرفة الله الحضورية والشهودية.

والعرفان النظري هو: من سنخ الألفاظ والمفاهيم، وهو يُحاول إقناع العقل، وهو من قبيل الفلسفة، ولا يُشبع القلب ولا يُدخل الاطمئنان إلى القلب، فالعرفان النظري هو صياغة العلم الحضوري الشهودي في قالب الألفاظ والمفاهيم الذهنية، وهو لون من الفلسفة.

فالمدعى للعرفان النظري يقول: إنّ هذه حقائق أدركتها بالعلم الحضوري،

وهنا أبينها لكم بقالب الألفاظ والمفاهيم، وأخبركم عنها، فإن كان هذا الادعاء من المعصوم عليه السلام فإنه لا شك في كونه يبيّن علمه الحضوري وأنه رأى هذا الشيء وشاهده، ولا شك أيضاً أن ما شاهده حقيقة وليس خيالاً ولا وهماً ولا هو من إلقاءات الشيطان.

وأما الآخرون من غير المعصومين فادعاؤهم مشكوك فيه حتى نطمئن بأن ذلك حصل لهم أولاً، وثانياً أنه من قبيل الرعاية الربانية والمنحة الإلهية، وليس من إلقاءات الشيطان، نعم هي حجة على الشخص المدعى نفسه؛ لأن الله يعرف ذاته.

جــ من هو العارف؟

العارف هو الشخص الذي عرف الله بقلبه وروحه، ودرجة عرفان الشخص تتوقف على شدة أو ضعف علمه الشهودي والقطبي بالنسبة إلى الله، ونستطيع أن نحدس مقام العارف بواسطة بعض العلامات.

فالعارف الحقيقي لا يكون من أهل التظاهر، ولا يبحث عن الاسم والعنوان والشهرة، وهو في خلوة روحه غارق في لذة الأنس مع محبوبه، وكما نلاحظ في الإمام الخميني قدس سره فإنه يمثل درجة ومصداقاً من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُلْعَنُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(٩). فالذى يبلغ هذه الدرجة بحيث أنه يخاف فقط من الله جل جلاله، ولا يخاف أي شخص آخر كما صرّح الإمام الخميني قدس سره في بعض خطاباته فهو يقسم: " بأنه لم يشعر بالخوف طيلة حياته من الظالمين والمتجرّبين"، فهذه درجة من تحقق العرفان عند الإنسان.

✿ سماحة الشيخ..عرف الإمام الخميني قدس سره بأنه من «العبد» الذين بلغوا المراتب العليا من مراتب القرب الإلهي، صفووا لنا هذا الجانب عنده قدس سره، وبيّنوا أثره على الجانب الاجتماعي والسياسي؟

❖ لو أردنا أن نعطي مفتاحاً لهذه الشخصية المباركة فإننا نجد المفتاح الرئيسي لهذه الشخصية هي مسألة (التعبد)، إن هذا الإنسان هو متعبد، والمتعبد يعني أنه ينظر إلى نفسه بما أنه عبد الله ﷺ وأن الله هو المعبد، هو الولي، هو السيد، هو الآمر، وهذا العبد هو الطيع، هو المستسلم لله، وشخصية الإمام الخميني قده هي امتداد كما ذكر في السابق لمدرسة صدر المتألهين قده، هذه المدرسة التي تجمع بين القرآن والعرفان والبرهان، كأنه مثلث ذو زوايا ثلاثة، ذو أضلاع ثلاثة، وهذه الأضلاع الثلاثة والتي يشكل القرآن الكريم مبدأ لها، والسند لهذا المبدأ هما العرفان والبرهان، ونحن نحاول أن نحلل هذه العناصر حتى نصل إلى مبتغانا بشكل علمي.

ماذا يعني التعبد؟

كما ذكرنا الآن فهو يعني (الاستسلام) أمام الولي ﷺ، وهذا لا ينشأ في الفراغ، فالتعبد ينشأ ومنشأه (الإيان)، منشأه (الзнания)، فالإيان من دون معرفة لا يمكن أن يحصل، فالإنسان يعبد من؟! يعبد الله ﷺ، فهل يمكن أن يعبد الله وهو لا يعرفه؟! لا يمكن أن يعبد الله وهو لا يعرفه.

إذاً الأساس الذي ينطلق منه التعبد هو (العلم)، والآن نأتي إلى هذا المنشأ لتحليله؛ لأن العلم على أقسام، فأيّ علم من هذه الأقسام؟! ثمّ العلم مباشرةً ماذا ينشأ منه قبل التعبد، لأن بعض أقسام العلم لا تؤدي إلى التعبد، ولا تؤدي إلى حال التقيد والالتزام كما نسميه نحن، فكثير من العلماء وال فلاسفة يعلم بالشيء ويعلم بوجود الله، يعلم بأن هناك علةً لهذا الكون وأنّ هذا الكون لم يأتِ صدفة، نتيجةً لدراساته لعلمه لفلسفته وصل إلى أن الله خالق هذا الكون، ثمّ ماذا؟ لا يوجد أيّ التزام!! وكأن الله خلق الكون وتخلّى عنه، كما يعتقد بعض الفلاسفة بأنّ خلق الكون كصنع الساعة، فصانع الساعة صنع الساعة وهي تأخذ مسيرتها،

حتى لو توفي صانع الساعة، فهل الساعة تتوقف؟!

فالبعض ينظر إلى الإيمان بالله من هذا القبيل، أي إن الله خلق الكون وانتهى دوره، والكون يواصل مسيرته. هذا ليس هو الإيمان الذي يؤدي إلى التعبّد، فإذاً المعرفة سوف ننظر إلى أقسامها، وأي لون من المعرفة يؤدي إلى هذا، ثم يوجد حلقة وصل بين العلم والتعبّد، وهو ما سوف نعبر عنه بـ(الحبّة) لله تعالى، يعني الإنسان قبل أن يتبعّد يعرف الله تعالى معرفة خاصة، معرفة معينة، وبعد هذه المعرفة سوف ينشأ في قلبه، في روحه انداد إلى الله تعالى، وسوف يختلط هذا الإيمان وهذا العلم بقلبه وروحه بحيث يحبّ الله تعالى، وليس محبّة عادية، كما سوف نلاحظ تعبير القرآن الكريم في هذا المجال، وإنما هي أعلى درجة من المحبّة، بحيث إنّ هذا التعلق وهذا الارتباط وهذه الحبّة تؤدي بالإنسان إلى الالتزام بعبادته، يعني العبادة تكون نتيجة للمحبّة، وليس للمعرفة مباشرة، يوجد واسطة، حيث يوجد حلقة وقد تكون مفقودة في بعض الأحيان، فأصبح الترتيب بهذا الشكل:

العلم بالله تعالى.

الإيمان بالله تعالى.

ثم الحبّة لله تعالى.

ثم التعبّد.

إن مسيرة الإنسان في حياته الواقعية، يعني التعبّد هو المرحلة الأخيرة، ونحن نأتي إلى مسيرة الإنسان الواقعية فيه بالنسبة إلى الارتباط بالله تعالى والتعبّد لله تعالى، يجب أن نذهب للحلقة الأولى، إلى (العلم بالله)، فلا يتبعّد الإنسان إلاّ أن يعرف الله تعالى، إلا أن يعلم بوجود الله تعالى، وإذا أتينا إلى هذه المرحلة، هل العلم شكل واحد؟! هل العلم بصيغة واحدة؟! بطريقة واحدة؟! لا، بل يوجد

ألوان من العلم، أولاًً فلابد أن نأتي لتعريف العلم.

ما هو تعريف العلم؟

يقول الفلاسفة والعلماء بأن العلم تعريفه هو الإحاطة، والإلمام وهذا معروف للإنسان بالفطرة (يعرف ما هو العلم)، ففي كل ثقافة وفي كل لغة، الإنسان ينشأ فيها وينشأ في أجواهها؛ يعرف كيف يميز بين العلم والجهل، فالعلم يقابل الجهل، فإذاً هذا الشيء فطري لا يحتاج إلى تعریف، والتعریف فقط لإضافات الذهن وتنبيهه كما يقولون.

والآن نحن نريد أن نقسم العلم، لكي نعرف العلم بالله تعالى كم هو عدد أنواعه وألوانه؟

ونحن في التقسيم مطلقاً نقول: إن كل تقسيم إما أن يكون تقسيماً حاصراً، وإما أن يكون غير حاصل، وأنا أذكر لكم مثلاً أن نقسم الإنسان إلى عربي وفارسي وإنجليزي وصيني... إلخ، هذا تقسيم غير حاصل، لأنه قد يكون هناك قسم آخر لم يلتفت إليه الإنسان وإذا قسمت إلى هذه الأقسام فإنه قد يوجد قسم آخر أنت غافل عنه، أو ربما يوجد في المستقبل، إذاً متى يكون التقسيم حاصل؟
توجد طريقة للتقطیم الحاصل؛ هذه الطريقة بين السلب والإيجاب، تقول الإنسان إما عربي أو لا عربي، الإنسان إما فارسي أو غير فارسي، فكل الأقسام الأخرى تدخل فيها من الإنجلزي والصيني... إلخ، فأنت دائماً بيديك قاعدة تستطيع تقسيم الشيء تقسيماً حاصراً، وهو أن تقسمه بين السلب والإيجاب، لأن تقول الإنسان إما عالم أو ليس بعالم، ولا يوجد تقسيم ثالث لهما، فهذا تقسيم حاصل؛ لأنه بين النقيضين، والنقيضان لا يرتفعان ولا يجتمعان، فالعلم إذا أردنا أن نقسمه، أمامنا طريقة واحدة وهي تقسيم العلم بين السلب والإيجاب، فنقول العلم: إما أن يحصل بواسطة الصورة الذهنية أو لا، (ليس بصورة ذهنية) أي

بصورة مباشرة، وهذا تقسيم بين السلب والإيجاب، العلم الذي يحصل بواسطة الصورة الذهنية نسمّيه بالعلم الحصولي، والعلم الذي يحصل بدون واسطة هو العلم الحضوري، فأصبح عندنا تقسيم حاصل، فالعلم إذاً ينحصر بهذا التقسيم فهو إما حصولي أو حضوري.

لاحظوا: كل هذه العلوم المتداولة بين الناس، العلم الحسي التجريبي الذي يحصل بواسطة الموس الحمس، العلوم النقلية من قبيل الفقه والتاريخ ... وإن كلّها علوم حصولية، لأنها تحصل عن طريق الألفاظ والصور الذهنية والألفاظ طريق للصور الذهنية، لاحظوا عندما أنظر إلى هذه الورقة فقد حصل لي علم بوجود هذه الورقة أمامي، فما الذي حصل؟

حصل أنه في وجود الضوء، سواء كان الضوء المصنوع أو الطبيعي كالشمس، فوجود الضوء والعين السالمة وجود شيء في الخارج (اسمه هذه الورقة)، انتقلت بذلك صورة بحسب قانون العدسات، تماماً كالصورة التي تلتقطها الكاميرا، انتقلت صورة من هذا الشيء العلوم المُدْرَك الذي سَيِّنَاه بالورقة، انتقلت هذه الصورة إلى الشبكية في العين، وبالاحتزازات الكهربائية الموجودة في الأعصاب، جاءت هذه الصورة من المعلومات إلى الشبكية ثم انتقلت هناك بصورة معكوسة، فالإنسان لو كان أمامها فهذه الصورة تنتقل إلى الشبكية بصورة معكوسة، رأسه إلى تحت ورجله إلى فوق، ثم تنتقل وتنعكس إلى هناك عندما تنتقل إلى الذهن، فترجع إلى حالتها الطبيعية، بحسب الترتيب العصبي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، فتنقل الصورة وليس هي المُدْرَك وحقيقة المُدْرَك، فالورقة الخارجية بقيت في الخارج ولم تنتقل إلى كيانه، وإنما انتقلت صورة منها، جاءت إلى العين وانتقلت إلى المخ، ففسّرها المخ: أمامك ورقة بهذا البعد المعين متر أو مترين أو ثلاثة...إن، فحصل علم، وهذا العلم يسمى علمًا حصوليًّا، وهذا العلم علم جامد غير متحرّك

وهو بهذا المقدار (صورة ذهنية)، وأغلب فلاسفة العالم من هذا القبيل، كل نتائجه دراساته ومعرفته لقانون العلية وهذه الأشياء الموجودة في العالم غاية ما في الأمر أنه جاءت صور ذهنية إلى ذهنه وكفى، وهذه الصورة الذهنية لا توجد علاقة قلبية بين العالم والمعلوم، فهذه العلاقة الروحية القلبية، وهذا الارتباط، وهذا التعلق، وهذه الحبة لا تنتجه، ولذا كل الذين يدرسون الفلسفة ويصلون عن طريق برهان الإمكان والوجوب، وإلى آخره من البراهين التي تثبت وجود الله عزوجل، يكتفون بهذا المقدار، هذا شيء ممتاز، ولكنه ليس نهاية الطريق، فهذا طريق مفتوح، وهو طريق طويل أيضاً، لأنه يبدأ به الإنسان، لكنه يتعامل طريق الاستدلال والبرهان، ففي كل شيء الإنسان يطلب البرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٠)، فهذا طريق نحن نعترف بصحته ولكن نعترف بهذا المقدار، وهو أنه يشكل مقدمة، فلا بد من أن يطلب ما وراءها، فهناك شيء بعد هذا البرهان، وبعد هذا البرهان يوجد طريق آخر، هل تريد أن تحب الله؟! يجب عليك أن تكمل هذا الذي بدأته، ولا ينبغي أن تتوقف عند هذه المقدمة، فهذه معرفة من قبيل المقدمات، وعلم من قبيل المقدمات، فالعلم الآخر لله عزوجل هو (العلم الحضوري)، فهنا سرّ بأن الإنسان ينتقل من الغيب إلى الحضور، من معرفة أن الله موجود إلى أنه يشاهد الله عزوجل، يرى الله عزوجل، ولكن يراه لا بعيشه المادية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١١)، فالله لا يُرى بالعين المادية، لأنه ليس مادياً، فالعين ترى الأشياء المادية، فهو يراه بقلبه، فالآية القرآنية تقول: ﴿فِإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١٢)، كما أن هناك عمي للعين وبصرًا للعين، يوجد أيضاً نفس الشيء للقلب، فالقلب يرى، الروح ترى، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا...﴾^(١٣)، هذا العلم الحضوري الذي يعتمد عليه العرفاء، فإذا تلتفتون

بأننا الآن من خلال ما تقدم نربط بين العرفان والقرآن والبرهان، فهذا الثلاثي كيف يتحقق عندنا، ففي أثناء الكلام تجد بأننا ننتقل من زاوية إلى زاوية، من ضلع إلى ضلع آخر، بارتباط وثيق، هذه مدرسة صدر المتألهين، يعني ننظر إلى القرآن من هذه الزاوية، ونحلل القرآن الكريم ونفسّره على أساس هذه الأضلاع الثلاثة، باعتبار القرآن والبرهان والعرفان، ولكن الأساس هو (القرآن). وهذا العلم الحضوري يكون الأساس فيه أن يعرف الإنسان كيف يميّز بين العلم المحسولي والعلم الحضوري؟

يقولون بأنّ الإنسان من خلال نفسه، يعرف نفسه، يعرف ذاته، كما ورد في الروايات الشريفة: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»^(١٤).
كيف ذلك؟

لاحظوا ابن سينا يقول: برهان الإنسان المعلق في الفضاء، لمعرفة ذاته، أنه من هو!!، هل هو جسد مكون من اليد والرجل والرأس والرقبة وسائر الأعضاء، فهذه نفسها إذا توفاه الله تعالى كلّها موجودة، ولكن لا يرى ولا يسمع، فما هو هذا العنصر الذي يجعل الإنسان إنساناً؟! هذا هو الذي نسميه بالروح ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيِّ وَمَا أُوتِينُتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١٥)، هذه الروح هي التي تجعلك إنساناً، فكيف تتعرّف على نفسك؟! ابن سينا يجيب عن ذلك، فيقول: برهان الإنسان المعلق في الفضاء.

وإجمالاً لهذا البرهان حتى أصل إلى مقصودي، يقول ابن سينا: هذا الإنسان عادة لا يلتفت إلى أجزاء بدنـه إلا في الحالـات الاستثنـائية أما إذا لم تـوجد حالـات استثنـائية، فالإنسـان لا يلتفـت بـأن عـينـه تـعمل وـترـى وتـلتـقط صـورـاً وكـذا، فإذا حدـث شيء كـحدـوث وجـع بـالعينـ أو يـدخل فـيهـ شـيء بـعينـه فإـنه يـلـتفـت إـلى عـينـه أـنـهـ كـانـت تـعمل بـشـكل طـبـيعـي، وكـذـلك لا يـلـتفـت إـلى جـلدـه إـلا أـنـ يـحدـث

له حرارة شديدة أو برودة شديدة وأما في الحالات الطبيعية فلا يلتفت إليه، فعندما يتمدّد على مكان لا خشن ولا ناعم إلى حد بعيد، فإنه لا يلتفت إلى جسمه، نعم إذا تعرّض جسمه إلى ظروف غريبة فإنه يلتفت إليه.

فيقول ابن سينا: ضع جسمك في ظروف طبيعية جدًا، لا صوت عالٍ، ولا شيء خشن، ولا رائحة قوية، وكل هذه التواحي التي تحيط بك يجعلها بشكل طبيعي، ثم أغمض عينيك، الآن حاسة الشم معطلة عندك، لأنّه لا يوجد شيء تشمّه، لا رائحة طيبة ولا رائحة خبيثة -أجلكم الله-، والعين كذلك مغلقة، والأذن كذلك، لأنّه لا يوجد صوت حتى ينبه الأذن، والذوق واللمس كذلك كلّها معطلة. أنت في تلك الحالة ومغمض العينين ترى نفسك أنك موجود أو لا؟ ترى نفسك يقيناً أنك موجود. فالعين والأذن والأنف واللمس جميعها معطلة ولكنك تدركها، فمن هو الذي يدركها؟ روحك ترى نفسك. هذا العلم الحضوري للإنسان بنفسه، بغضّ النظر عن جسمه وجلده، فتلك وسائل للروح يسمونها بـ (خادم الروح)، فالعين والأذن هي خدم للروح، فالذي يشمّ هي الروح وليس هو الأنف، فالأنف مجرد وسيلة والذي يتذوق هي الروح وليس اللسان، وإنّ هذا اللسان موجود عند الإنسان المُتوفى وهو لا يذوق شيئاً. أنت ترى نفسك في تلك الحالة مغمض العينين، سمعك معطل، والشم والذوق واللمس كلّها معطلة، ومع ذلك أنت ترى نفسك أنك موجود وتعرف نفسك أنك موجود، وهذا هو العلم الحضوري، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْفُلُوْبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١٦)، فلماذا تعمى؟ هو بحث آخر. نحن الآن نريد أن نتعرّف على اللّونين من العلم، وهذا اللون مهم، ولكن الإنسان غالباً ما هو غافل عن هذا العلم، فهو مهتم فقط بتربية علومه الحضورية وزيادة علومه الحضورية، حتى لو علم كل علوم العالم وهذا ما هو شائع في العالم اليوم تجد أنهم أناس متهالكون على العلم لأغراض

دنبوية ليست لها علاقة بالله تعالى، حتى العلوم التي تسمى دينية في بعض الأحيان، كعلم الفقه والأصول والفلسفة و... إلخ، فالبعض يحصلها ليتفاخر بها ولأجل أن يكون له مجموعة وشخصية وأن يكون قائداً عظيماً ولكي يُحترم من قبل الآخرين ويحصل على الأموال وكلها ليست أهدافاً إلهية، أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «يا كميل إن الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع»^(١٧)، لاحظوا الآيات الكريمة ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُوَنَا وَإِذَا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَرًا وَمَقَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا أَخْرَى وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزِنُونَ وَمَنْ يَفْعُلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعِفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَاجِّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَّا صَالَحَاهُ فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُوا بِاللُّغُو مَرُوا كَرَاماً * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمَيَّا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَدَرِّيَاتِنَا قُرْةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتُ مُسْتَقْرَرًا وَمَقَاماً﴾^(١٨)، هذا هو عبد الرحمن، فالعبد هو الذي همه أن يرضي الله، وليس أن يأتي بعلوم ويكتسبها ويعرف ألفاظاً كثيرة، ويظل يحاضر بالساعات ولا يمل، فليس هذا هو العلم والتعليم. تلك النية التي في القلب من وراء هذه الألفاظ، ومن وراء هذا التعلم والتعليم، ما هي؟!

أريد أن أكون لنفسي شخصية وأن أحصل على الألقاب والأموال والدنيا؟ إلى أي حد هذه النية ربانية؟ من أجل رضا رب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هذا الذي له قيمة، وهذا لا يتوفّر في العلوم الحضولية، نعم الأساس هو أن يتعرّف على نفسه، فهذه الروح التي تعرّف عليها، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١٩) يأْتِي الجواب من القرآن، أنت عرفت نفسك؟ فهذه النفس تحجل من تجليات الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هذه النفس كانت بأمر من الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢٠)، بأمر من الله كانت هذه الروح، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٢١)، فإذا هنا وصلنا إلى نقطة حساسة وهي أنّ العرفان من هنا يبدأ على ضوء القرآن الكريم ويسنده البرهان، فالقرآن يصدق بهذا كله، أن الإنسان يتمتع بعلوم حضورية وعلوم حضولية، والعلوم الحضولية مقدمة لكي توصل الإنسان إلى هذا المستوى، ولكن يعتمد على جهده الشخصي. أنه إلى أي حد يتقدم الإنسان في هذا المضمار، ويعلو ويتكامل فكل من سار في هذا الطريق فإنه يؤدي به إلى ذلك الشيء الذي نتحدث عنه وهو (محبة الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ). إلى هنا انتقلنا من أن الإنسان عبد الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والعبودية ناشئة من المعرفة لله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (بالعلمين الحضولي والحضوري) ولكن المهم هو العلم الحضوري، فالعلم الحضوري يؤدي إلى محبة الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بصورة إجمالية وهو كيف أنه عندما يعرف الإنسان ربّه يعني يعرف الذات الجامعة لكل الكمالات بصورة غير متناهية. الله سميع، قادر، بصير... إلخ، وكل الكمالات مجتمعة في الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بصورة غير متناهية.

المحبة لمن تكون؟

المحبة تكون للكمال، فالإنسان لا يحب شيئاً إلا عندما يكون هو حسب تشخيصه أن فيه لوناً أو أكثر من ألوان الكمالات، يعني الإنسان العالم لماذا يحبّ

العالم؟!

يحبه لأن فيه كمالاً، فيحبه، يحب القوي، لأن القوة كمال، ويحب الحكيم، وهكذا... إلخ، وكل الكلمات مجتمعة في الله تعالى بصورة غير متناهية.

فإذاً من هنا تنشأ المحبة لله تعالى، وهذه العلاقة والانجذاب لله تعالى والارتباط به، وأعلى درجات المحبة هي (العبادة)، عندما يحب الإنسان شيئاً بشكل قوي فإنه يصل إلى أنه يستسلم أمامه، يحب قربه ويحب إرضاءه، ويحب أن يرضى عنه، فتنشأ هذه العلاقة بين العبد وربه جل وعلا، فلا يعصيه ولا يغضبه.

تجسد «التعبد» في شخصية الإمام الخميني قده:

الإمام الخميني قده كان إنساناً متبعداً يعبد نفسه عبداً لله تعالى، والقرآن الكريم يتحدث عن عباد الله الصالحين كما في سورة الفرقان من الآية الثالثة والستين إلى قوله تعالى: ﴿ حَسْنَتْ مُسْتَقِرًا وَمَقَاماً ﴾^(٢٢).

هذه من جملة الآيات التي تتحدث عن عباد الرحمن تعالى، إذاً نستطيع أن نقول إن مفتاح شخصية الإمام الخميني قده هو التعبد، وأنه ينظر إلى نفسه بما أنه عبد للرحمن، كما في آية أخرى أن الله تعالى يصف هؤلاء العباد بأنهم يصطبغون بصبغة الله ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾^(٢٣) حينما تتصف الشخصية وتصطبغ بصبغة الله تعالى فإنه يصبح عبداً خالصاً لله، وفي آية أخرى ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا يَمْعِنُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾^(٢٤) هؤلاء العباد مشغولون بذكر الله تعالى ونحن نستطيع أن ننظر إلى الإمام الخميني قده بأنه آمن منذ الصغر بأن العالم كلّه تجلّ لعظمة الله جل وعلا، وأن كلّ شيء خاضع لله تعالى كما في الآية الكريمة ﴿ كُلُّهُ لَهُ قَاتِلُونَ ﴾^(٢٥) وأن إرادة الله جل وعلا تعلقت بأن يتحرّك الإنسان بحربيته ووعيه في طريق التقرب إليه، وفي هذا السياق عليه مسؤولية هداية الآخرين إلى هذا الهدف.

بعض العرفاء يعد العرفان حركة فردية وعلاقة شخصية بين العبد وربه، لكن الإمام الخميني يرى أن جميع أبعاد الإنسان لا بد من أن تتصرف بالعبودية لله جل وعلا، فالقلب متصل بالله، واللسان، والعمل الاجتماعي، والفردي، والدولي، وكل شؤون الإنسان هي مرتبطة بالله جل وعلا، وكما تقول هذه الآية الشريفة ﴿قُلْ إِنَّمَا هَذَا نِعَمَ اللَّهِ الْعَظِيمِ إِنَّمَا مِنْ حَنْفَيَا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣٦)، لاحظوا هذه الآية الكريمة تقول بأن كل حركات الإنسان وسكناته هي لله جل وعلا لا شريك له، وشعار الإمام الخميني يتشكل كما في محاضراته المختلفة حيث يقول: نحن بصدده أداء التكليف ولا علاقة لنا بالنصر وغيره فإنه يأتي من الله جل وعلا وهذا هو التعبّد للحصول على القرب الإلهي.

التعبد يعني أن يتبعه الإنسان نفسه في أن يكون مقيداً بطاعة أوامر الله عز وجل ويقترب بهذا العمل لله عز وجل وهذه هي العبادة، يقول الله عز وجل في سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَنَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيِنَ﴾^(٣٧)، وهناك آيات أخرى مشابهة تفيد أن العبادة هي الهدف من خلق الإنسان، هذا التعبد والانقطاع لله عز وجل وتعاهد النفس أن يكون الإنسان في طريق الطاعة المطلقة لله عز وجل.

التعبد إذا حلّناه إلى عناصره يحتاج إلى إيان سابق لما لم يكن الإنسان مؤمناً بالله عز وجل فإنه لا يمكن أن يعبده، يعبد من؟! يعبد شيئاً لا يعرفه؟! الإيمان يحتاج إلى شيء سابق له وهو أن يكون الإنسان قد عرف الله ليؤمن به، فإذا نحن نتقدم خطوات إلى الأمام لنعرف أن هذه المراحل لابد أن تسبقها مراحل أخرى حتى تنتهي إلى هذه النتيجة، فإذا الإيمان بدوره يعتمد على معرفة سابقة بالله عز وجل،

فالإنسان يعرف الله فيؤمن به، يؤمن به فيحبه وهكذا يكون التقدّم في الخطوات.

❖ وما هو نوع المعرفة الموصولة إلى حقيقة العبادة وجوهرها؟

❖ نحن ذكرنا فيما سبق أن معرفة الإنسان وعلم الإنسان يكون بشكليين، إما بالمعرفة الحصولية وإما الحضورية. أما الحصولية فإن غاية ما يصل إليه الإنسان نتيجة العلوم الحصولية هو المفاهيم والصور الذهنية(مفهوم الله جل وعلا، مفهوم السميع، البصير...) أكثر من هذا فإن المعرفة الحصولية لا تفيد الإنسان وهكذا يبقى الإنسان يدور في مجال المفاهيم والصور الذهنية ليس أكثر وهذا نلاحظ بعض فلاسفة الغرب الذين يعلنون أن نتيجة دراساتهم الفلسفية والعلمية هي إثبات وجود الله تعالى، لكن هذا العلم من قبيل العلم الحصولي يعني أن البرهان قام عندهم على أن هذا الكون لا يمكن أن يكون بلا خالق ولكن ما هي نتيجة هذه المعرفة وهذا العلم؟ لا يوجد نتيجة سوى أن هذا الكون له خالق فحسب.

بينما هو لم يغير أسلوب حياته ومعيشته حسب ما يريد الله تعالى لأنه يدور في مجال المفاهيم والصور الذهنية وما لم تكن حية في نفس الإنسان فإنه لا تنتهي به إلى الإيمان ثم إلى الطاعة التي يؤكّد عليها القرآن الكريم ﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾^(٢٨)، وإنما ينبع البرهان من بعض مضمون الآيات الشريفة لكن لا يوجد في القرآن برهان منطقي قائم على إثبات وجود الله.

إذَا نحن ومعرفة الإنسان، إذا اقتصرنا على المعرفة الحصولية فإنها لا تنتهي إلى هذا التعبد. فلا بد من أن نلجأ إلى المعرفة الحضورية (المعرفة الشهودية) نعم هذه المعرفة الشهودية، إذا كانت صادقة وإذا كانت مستقيمة فهي تنتهي إلى النتائج التي نريدها. لكن هذه المعرفة الحضورية تسبقها معرفة حصولية يعني أن يبدأ الإنسان بالمعرفة الحصولية ثم لا يكتفي بها ولا يقتصر عليها وإنما يتقدم

ويتكامل فيصل إلى المعرفة المضورة.

من هنا نشير إلى مسألة وحدة الوجود في العرفان، مع الأسف الشديد فإن البعض إما غفلة وإما تعمداً أشار إلى هذه المسألة العرفانية (القول بوحدة الوجود) ليشهر بالعرفاء ومن جملة ذلك يشهرون بالإمام الخميني عليه السلام في أنه يقول بوحدة الوجود والبعض كان يدعى كما لاحظت أنا في أوائل الثورة لما جئت إلى مدينة قم المقدسة فإني شاهدت بعض النشرات الصادرة في طهران تشهر بالإمام على أساس أنه من العرفاء والعرفاء يقولون بوحدة الوجود وهو من جملتهم وأن القائل بوحدة الوجود يفتى بعض الفقهاء بکفره.

لماذا؟ لأن هؤلاء يفهمون أن القول بوحدة الوجود يعني أن الله بتعالى والعبد المخلوق وجود واحد، هكذا كانوا يفهمون وحدة الوجود ولذلك كانوا يفتون بأن هذا كفر، فإذا قلت بأن هذا الإنسان المخلوق هو الله كما ينقل عن أحد الصوفية (ما في الجبة إلا الله) يعني أنا الله، والعياذ بالله. هكذا كانوا يفهمون، ولهذا كانوا يحكمون بکفرهم.

فكانوا يشهرون بالإمام، وفي تلك النشرة التي رأيتها وقد وزعت في طهران في ذلك الوقت في أوائل الثورة، قالوا بأن هؤلاء الذين يقولون بوحدة الوجود والإمام عليه السلام وحاشاه من هذا القبيل، لأنه يقول بوحدة الوجود. بينما هؤلاء في الواقع لم يفهموا قول العرفاء بوحدة الوجود وخلاصة ما أريد أن أشير إليه هو أن أصحح هذه النظرة فقد يكون الفقهاء ذوي نية طيبة في هذا المجال ولكن النتائج التي وصلوا إليها نتائج غير صحيحة، لأنهم لم يطلعوا على مضمون القول بوحدة الوجود عند العرفاء السابقين ولا أقول جميع العرفاء وإنما في مدرستنا التي تنتهي إلى أقوال أهل البيت عليهم السلام.

هذا العرفان الذي نؤمن به وكما ورد في دعاء عرفة «عَمِيتُ عَيْنَ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا

رَقِيباً وَخَسِرتْ صَفَقَةً عَبْدٌ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حِبْكَ نَصِيباً» فمثل هذا العرفان الذي ينتهي الى الأئمة عليهما السلام. أو هذا النص من دعاء عرفة «إلهي تردد في الآثار يوجب بعده المزار» يعني ان الذي يريد أن يصل الى الله تعالى من خلال مخلوقاته، هذا طريق بعيد فيه لف ودوران حتى يصل إلى الله يعني أن المخلوق الذي هو الضعيف هو الذي يثبت وجود الله تعالى، هذا الانتقال من الضعيف الفقير الى القوي الغني تعالى «إلهي تردد في الآثار يوجب بعده المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلي إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك» الإمام صلوات الله عليه يتساءل بأن هذا الدليل يجب أن يكون أظهر من الخالق جل وعلا؟! «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك وممتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟» يعني أن هذا الدليل المحسولي معقول ولكنه أول الطريق وليس آخر النتائج التي يصل إليها الإنسان، فعن طريق النور الذي يوصل إلى الله تعالى وهذا هو العلم الحضوري «وهدایة الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع المهمة عن الاعتماد عليها إنك على كل شيء قادر. إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك وهذا حال لا يخفى عليك منك أطلب الوصول إليك» يعني أن يبدأ من الله وينتهي إلى الله جل وعلا. هكذا الإمام الحسين عليهما السلام يصور الوصول إلى الله جل وعلا «فأهذني بنورك إليك» المعرفة الناتجة عن طريق النور الذي هو صادر من الله عز وجل «وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَكَ الْمُلْكُ وَلَكَ الْحَمْدُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

تلاحظون بأن الإمام عليهما السلام في هذه النصوص يؤكّد على هذه المعرفة التي تبدأ من الله وتنتهي إلى الله جل وعلا من دون الاعتماد على العلم المحسولي وما شابه ذلك من مفاهيم، هذه مرحلة راقية من العلم إذاً هذا هو العلم الحضوري الذي نريد أن نؤكّد عليه وهذه وحدة الوجود عند هؤلاء الذين يأخذون علمهم عن طريق الأئمة عليهما السلام يؤكّدون على أن وحدة الوجود تعني أن الوجود الحقيقي هو الله

فحسب، وأمّا نحن فلا نستطيع أن نكون موجودين في قبال وجود الله. فالله موجود ونحن موجودون، هذا يؤدي إلى أن يكون وجود الله محدوداً، لأنّه عندما تفرض الثاني فإن كل واحد من هذين الاثنين يحدّ الآخر. بينما وجود الله غير محدود فإذاً نحن لا نستطيع أن نقول في مقابل وجود الله يوجد لنا وجود.

وبينما وجود الله غير نهائي، فإذاً نحن لا نستطيع أن نقول إنه في مقابل وجود الله يوجد لنا وجود، الله تعالى وحده هو الموجود وهذه وحدة الوجود. أما كل المخلوقات ومن جملتها الإنسان فإنها مرآة لوجود الله تعالى ومرآة تحل لنور الله تعالى، فأما الوجود المرآتي كما يطلق عليه البعض أو التجليات كما يقول أمير المؤمنين صلوات الله عليه «الحمد لله المتجلٍ خلقه بخلقه»^(٢٩)، وفي خطبة أخرى يتحدث عن القرآن الكريم سلام الله عليه - فيقول: «لقد تجلَّ الله لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»^(٣٠) الله متجلٍ في القرآن الكريم والقرآن تجلٍّ الله وهو مخلوق الله تعالى، فإذاً هؤلاء لا يقصدون بوحدة الوجود أن الله جل وعلا فقط هو موجود، فهذا لا يقول به مؤمن أصلاً فالذى جعل نفسه في مصاف وجود الله تعالى بينما نحن دين التوحيد ودين التوحيد مأخوذ من الأئمة الطاهرين في هذه النصوص.

عندما يقولون بوحدة الوجود فهم يقولون الله فقط موجود وأمّا وجودي فهو وجود مرآتي وليس كما هو الوجود الحقيقي لله تعالى، فإذاً نحن عندما نريد أن نفهم القول بوحدة الوجود لابد أن نرجع إلى القائل الذي يقول بوحدة الوجود ماذا يعني، لا أن نفسره بحسب أهوائنا ورغباتنا، فإذاً هؤلاء يجب أن يتقوى الله تعالى عندما ينسبون إلى العرفاء عندما يقولون بوحدة الوجود بأن المخلوق سواء، لا، لا يقولون بهذا، وإنما يقولون بأن الإنسان عندما يقف أمام المرأة فتنعكس صورته في المرأة، هل هذا خيال (الصورة في المرأة)؟، ليس خيالاً، بل هي حقيقة ولكنه لا يوجد شيء في المرأة وإنما صاحب الصورة هو الموجود،

فهذا الذي تعكسه المرأة هو انعكاس لذاك صاحب المرأة، صاحب الصورة، فكذلك أنا إذا نسبت الوجود إلى نفسي، فإنّ هذا الوجود مجازي، الحقيقة هو وجود الله تعالى، وهو متجلّ في «قد تجلّى الله لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»، «الحمد لله المتجلّ لخلقه بخلقه»، ولذا نقول إن آيات القرآن الكريم، سواء كانت الآيات التكوينية أو الآيات التشريعية، فهي آيات يعني علامات، أي إن هذا مشير إلى ذاك، يدلّ عليه، يتجلّ فيه الله تعالى، فإذاً هذه وحدة الوجود.

تنبيه: القول بوحدة الوجود قول لا يتنافى مع الوحدانية ولا يؤدّي إلى الشرك، وإنما هو من قبيل التنزيه الصحيح لله تعالى، وأنه منزّ عن مشابهة مخلوقاته، وحده لا شريك له، ليس كمثله شيءٌ جلَّ جلاله.

إذا عرفنا هذا، فنقول بأن المعرفة الحضورية هي التي تؤدي إلى محبة الله عزوجلأن أن يحب الإنسان ربه، لماذا؟ لأن الإنسان لا يصل إلى الطاعة المطلقة لله تعالى إلا إذا أحّبه، وليس الاكتفاء بإثبات وجوده جلَّ جلاله، بالدليل والبرهان، فهذا لا يولد علاقة به، فلا بد من أن تنشأ محبة بين الإنسان وربّه جلَّ جلاله، كما تقول الآيات الشريفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٣١).

✿ كيف يمكننا أن نتخذ من الإمام الخميني^{قدس} قدوة وأسوة في الجانب العبادي؟

❖ نحن حينما نتأمل في هذه الشخصية المباركة ونتعمق في دراستها نشاهد العناصر القرآنية والعناصر العرفانية والبرهان الصحيح كلّها متجلّة في سلوكه وسائل مفاصل حياته، فعليينا أن نتعظ بذلك، نحن لا نستطيع أن نقتدي مباشرة بالإمام المعصوم عاشق الله؛ لأنّه أرفع وأجلّ من أن يكون بهذه الصورة البسيطة، ولكننا عندما ننظر إلى أمثال الإمام الخميني^{قدس} فإننا نحاول أن نقتدي به؛ لأنّه إنسان غير معصوم وقد وصل إلى هذه الدرجات العليا، وبالتالي يكون قدوة لنا،

يكون أسوة لنا.

نقول: بما أنَّ الإمام الخميني قدُّشَ إنسان عادي وقد وصل إلى هذا المستوى الرفيع، فإنَّ الإنسان العادي أيضًا يستطيع أن يصوغ نفسه، ولكن بتعب، وجد، وبجهد، وبصبر على التكامل والرقى، يستطيع أن نطرح الإمام الخميني قدُّشَ كقدوة لآخرين، ولكن عندما نطرح شخصية رسول الله ﷺ فإنَّ البعض سيقول: هذا معصوم، هذا مصطفىٌ من قبل الله تعالى، في حين أنَّ القرآن الكريم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٣٢)، ولكن عندما نطرح الإمام الخميني قدُّشَ كقدوة لا يستطيع أحد أن يعترض علينا بأنَّ هذا معصوم، وقد فعل هذا بفضل وبركة ودعم من الله جلَّ وعلا، بينما هذا القول لا يصدق على الإمام الخميني قدُّشَ حينما نظره، هذا هو إنسان مثلنا، لا هونبيٌّ، ولا هو إمام معصوم، فهذه مرحلة أدنى من هذه الذوات المقدسة، فنستطيع أن نقدمه أسوة لنا جميعاً، فيسهل الأمر، بينما نلاحظ أنَّ الإمام الخميني قدُّشَ عندما يذكر الإمام الحجة المنتظر عَلَيْهِ الْمَحْيَا فإنه يقول: روحي لتراب مقدمه الفداء، وليس روحي فداء له، لا بل روحي فداء للتراب الذي يدوس عليه.

إذاً كم هي الفاصلة بين الإمام الخميني قدُّشَ والمعصوم عَلَيْهِ الْمَحْيَا الذي يتقدّى التراب الذي يمشي عليه الإمام المعصوم عَلَيْهِ الْمَحْيَا، لذا نرى أن هذا التواضع، وأن هذا التخفيض للنفس في مقابل الذوات المعصومة عَلَيْهِ الْمَحْيَا، هذا يربّينا على التواضع، يربّينا على البعد عن الاستكبار سواء كان الاستكبار على الله عَزَّوجلَّ أو الاستكبار على الأئمة المعصومين عَلَيْهِمُ الْمَحْيَا، أو على النبي عَلَيْهِ الْمَحْيَا، يربّينا على التواضع أمام هذه الذوات المقدسة، فإذاً كل حياة الإمام الخميني قدُّشَ هي درسٌ لنا، درسٌ لنا في أن نقتدي به، ونسير في الطريق الذي سار عليه، وبذل جهداً حتى وصل إلى هذا المستوى وإلا فإنه عندما يعرض عليه: نحن نطبع رسالتك العملية ولكن بالحقوق

الشرعية، فإنه لا يرضى، لأنه لا يرى أنّ هذا الكتاب يجب أن تصرف عليه أموال من الحقوق الشرعية، فهذا ينبغي أن يكون درساً لنا، بحيث لا نكرّس الأشياء الشرعية من أجل مصالحنا الدنيوية الشخصية القريبة، بل علينا أن نفصل بينها، فكلّ شيء في محلّه، فلا نبرر لأنفسنا أن نتصرف في أموال الحقوق الشرعية كما نشاء باعتبار أنها وصلتنا، فهذا الإنسان الذي وصل إلى أعلى الرتب الحكومية الذي هو كان القائد المطلق للجمهورية الإسلامية والمعلوم بأنّ إيران هي من أثرى الدول النفطية في العالم، ولكنه عاش تلك المعيشة البسيطة، لم يملّ بيئاً ولا أشياء دنيوية، فإني واقعاً أستغرب فقد شاهدت بيته في النجف الأشرف حينما كان هناك، أنا ما كنت مطلعاً على جميع زوايا حياة الإمام الخميني تدشّن ولكنه كان يعجبني أن هذا الإنسان كان يسكن في غاية البساطة حتى بيتي كان أحسن منه!! وهو مرجع وأنا طلب بسيط مبتدئ في الحوزة العلمية، فإذاً هذا ينبغي أن يقدم أسوةً للآخرين حتى يقتدوا به ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًا لِّلَّهِ﴾^(٣٣)، هذا لا يحب الدنيا ولا رفاهية الدنيا، يحب الله عزّ وجلّ، ويحب أن ينتشر دين الله عزّ وجلّ، ويحب التعبّد، يحب الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ، فإذاً نحن كلّما خصّصنا من وقت لدراسة هذه الشخصيات فإننا ننفع أنفسنا، ونقدم أسوة حسنة لنا لنقتدي بها وليس فقط أن نتحدث عنـه، أنا أذكر أحد المفكّرين كان يقول: بأنه لو فرضنا أن نذكر جميع فضائل أمير المؤمنين علّيـهـ لكن أين أنا من هذه الفضائل؟! مدحـيـ لا يزيد من فضائلـ أمير المؤمنين علـيـهـ شـرـفاـ ولكنـ أـيـنـ أناـ مـنـ هـذـهـ الفـضـائـلـ؟ـ!ـ وكـمـ هـيـ مـتـجـلـيـةـ فـيـ حـيـاتـيـ؟ـ هـنـاـ الـعـظـمـةـ لـإـلـهـانـ إذاـ سـارـ فـيـ هـذـاـ الطـرـيقـ وـاقـتـدـىـ بـأـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـهـ وـقـتـلـ بـأـخـلـاـقـهـ،ـ كـذـلـكـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ هـمـ عـبـادـ الـرـحـمـنـ الـعـادـيـوـنـ،ـ أـنـاـ أـمـدـحـ الـإـمـامـ الـخـمـيـنـيـ تـدـشـنـ،ـ وـأـنـاـ فـيـماـ إـذـاـ اـقـتـدـيـتـ بـهـذـاـ إـلـهـانـ فـقـدـ اـنـتـفـعـتـ،ـ فـإـذـاـ نـحـنـ نـذـكـرـهـ لـلـمـجـتمـعـ مـنـ أـجـلـ أـنـ نـقـتـدـيـ بـهـ،ـ حـتـىـ الـمـتـحـدـثـ هـوـ

يريد أن يلقن نفسه أنه كيف أقتدي بالذي أتحدى عنه ولا أقتصر على الحديث عنه، وإنما أحاول أن أسير في هذا الطريق الذي سار فيه.

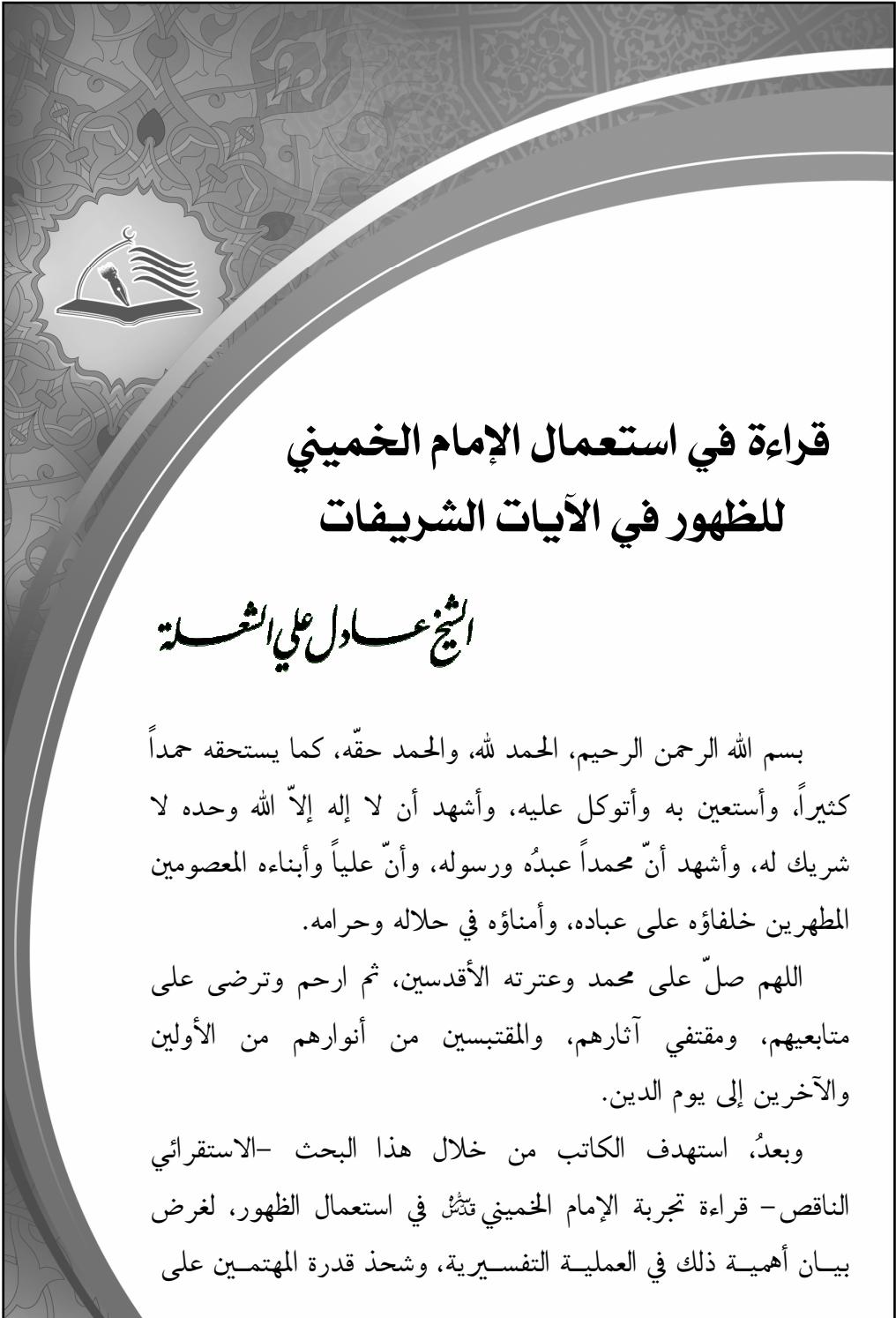
✿ سماحة الشيخ. ما هي كلمتكم الأخيرة؟

❖ نسأل الله تعالى أن يوفقنا لكي نقتدي بالصالحين وبرسول الله عليه وآله والائمة الطاهرين عليهم السلام وأن نطيعهم ﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ﴾^(٣٤) وهذه "أولي الأمر منكم" مختصة بالمعصومين عليهم السلام وعندما نطيع هؤلاء فإن الله تعالى يحبّنا حسب تلك الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتَيْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ﴾^(٣٥)، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من يطاع الله تعالى ويطيع رسول الله عليه وآله ويطيع الأئمة الطاهرين عليهم السلام؛ حتى نحظى بمحبة الله تعالى.

الهوامش:

- (١) من الأساتذة في الحوزة العلمية وله خدمات جليلة في نشر الفكر الإسلامي وترجمة كتب الأعلام ككتب الشيخ محمد تقى مصباح اليزدي والشيخ الجوادى الاملى وغيرهم.
- (٢) سورة البقرة: ١٣٨.
- (٣) نهج البلاغة، من كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي.
- (٤) سورة البقرة: ١٣٨.
- (٥) سورة النور: ٣٧.
- (٦) سورة يس: ٨٢.
- (٧) سورة البقرة: ١١٦.
- (٨) سورة الأنعام: ١٦٢.
- (٩) سورة الأحزاب: ٣٩.
- (١٠) سورة البقرة: ١١١ / سورة النمل: ٦٤.
- (١١) سورة الأنعام: ١٠٣.

- .١٧٩) سورة الأعراف: ١٢)
- .١٧٩) سورة الأعراف: ١٣)
- .٣٢ ص ٢ ج الأنوار بحار (١٤)
- .٨٥) سورة الإسراء: ١٥)
- .٤٦) سورة الحج: ١٦)
- .٧٦-٦٣) الفرقان: ١٨)
- .٨٥) سورة الإسراء: ١٩)
- .٨٢) سورة يس: ٢٠)
- .٨٥) سورة الإسراء: ٢١)
- .٧٦) سورة الفرقان: ٢٢)
- .١٣٨) سورة البقرة: ٢٣)
- .٣٧) سورة النور: ٢٤)
- .٢٦) سورة الروم: ١١٦ / سورة البقرة: ٢٥)
- .١٦٣-١٦١) سورة الأنعام: ٢٦)
- .٥٧-٥٦) سورة الذاريات: ٢٧)
- .٥٩) سورة النساء: ٢٨)
- .٢٤٠ ص ٣٤ ج الأنوار بحـار (٢٩)
- .١٦٥) سورة البقرة: ٣٠)
- .١٦٥) سورة البقرة: ٣١)
- .٢١) سورة الأحزاب: ٣٢)
- .١٦٥) سورة البقرة: ٣٣)
- .٥٩) سورة النساء: ٣٤)
- .٣١) سورة آل عمران: ٣٥)



قراءة في استعمال الإمام الخميني للظهور في الآيات الشريفات

الشيخ عادل علي الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والحمد لله، كما يستحقه حمداً كثيراً، وأستعين به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وأنَّ علياً وأبناءه المعصومين المطهرين خلفاؤه على عباده، وأمناؤه في حاله وحرامه.

اللهم صل على محمد وعترته الأقدسین، ثم ارحم وترضى على متابعيهم، ومقتفي آثارهم، والمقتبسين من أنوارهم من الأولين والآخرين إلى يوم الدين.

وبعد، استهدف الكاتب من خلال هذا البحث -الاستقرائي الناقد - قراءة تجربة الإمام الخميني تتبّع في استعمال الظهور، لغرض بيان أهمية ذلك في العملية التفسيرية، وشحذ قدرة المهتمين على

تشخيص الظهور، وتحديد الأظهر، لأنّ الظاهر وإنْ كان بمعنى يُقارب الواضح، إلا أنّ المتكلم قد لا يُريد من المفردة أو الجملة هذا القريب الواضح، بل يُريد معنى آخر^(١). وسيظهر لك من المناقشات التي أثارها الإمام قتيل في تحديد الظهورات - عندما تطلع عليها إن شاء الله -، أنّ الظهور قد يختلف في تحديده، لاختلاف المحتمل وطبيعة النظر في القرائن المتصلة أو المنفصلة أو للغفلة عنها، فمثلاً: قد يوجد مخصوص للعموم في القرآن نفسه أو في السنة المطهرة، إلا أنّ عدم تنبهه مُفسِّر لهذه القرينة حال فحصه عنها موجب لأخذة بالعام، بينما عثور آخر عليها موجب لتخفيض الظاهر أو تقييده، كعثوره على خبر مخصوص لعمومات الكتاب، أو مقيد لمطلقاته.

ومما ذُكر يتبيّن لك أنّ تشخيص الظاهر، يتطلب -أحياناً- إعمالاً علمياً عالياً، وحضوراً معرفياً يقظاً، وكل ذلك يجعل دراسة التجارب في هذا المجال ذات قيمة عالية، وهنا مباحث:

المبحث الأول: معنى الظهور

في اللغة: "الظهور": خلاف البطن من كل شيء^(٢)، و"الظهور": بدو الشيء الخفي^(٣). يقال: " ظهر الشيء -بالفتح- ظهوراً: تبيّن"^(٤).

ومن المعاني التي تُذكر للظهور: البروز^(٥)، والوضوح^(٦). والمعنى في الجميع واحد، غير أنّ في بعضها حيادية البدو بعد خفاء.

وفي الاصطلاح لا يختلف كثيراً عن المعنى اللغوي.

وهذا التحميل لوجود رجحان في اللفظ أوجب انساب المعنى منه إلى الذهن، وفي هذا إشارة إلى أنّ الظاهر ما احتمل أكثر من معنى، وكان أحدهما راجحاً.

المبحث الثاني : حكم الظهور

والإمام قتيل قد أثبت حجية الظواهر لتأسيس شرعية العمل بها في كتاب الله تعالى، فقد ذكر قتيل: "إن بناء العقلاه تحمل ظاهر كلام المتكلم عليه، والاحتجاج عليه، وتحمیل المتكلم ظاهر كلامه على المخاطب، واحتجاجه به"^(٧) ، فـ"المتبع هو الظهور المنعقد للكلام، وإن شك في قرينية الموجود، ما لم ينثمه الظهور"^(٨) .

وقال قتيل: "لا إشكال ولا كلام في أن بناء العقلاه على اتباع الظاهرات في تعين المرادات الاستعملية، فاللفظ الصادر من المتكلم - بما أنه فعل له كسائر أفعاله- يدل بالدلالة العقلية - لا الوضعية- على أن فاعله مرید له، وأن مبدأ صدوره هو اختياره وإرادته، كما أنه يدل بالدلالة العقلية -أيضاً- على أن صدوره يكون لفرض الإفادة، ولا يكون لفواً، كما أنه يدل بهذه الدلالة على أن فائله أراد إفاده مضمون الجملة خبرياً أو إنشائياً، لا الفائدة الأخرى، وتدل مفردات كلامه -من حيث إنها موضوعة- على أن المتكلم به أراد منها المعاني الموضوعة لها، ومن حيث إنه كلام مركب -من ألفاظه وهيئة تركيبية- على أنه أراد ما هو الظاهر منه، وما هو المفاهيم العرفية لا غيره، ويدل أيضاً على أن المتكلم - المرید بالإرادة الاستعملية ما هو الظاهر من المفردات والهيئة التركيبية- أراد ذلك بالإرادة الجدية، أي: تكون إرادته الاستعملية مطابقة لإرادته الجدية. وكل هذه دلالات عقلية يدل عليها بناء العقلاه في محاوراتهم، والخروج عنها خروج عن طريقتهم، ويحتاجون [بها] على غيرهم في كل من تلك المراحل، ولا يصفون إلى دعوى المخالفه، وهذا واضح".^(٩)

وقال قتيل أيضاً: "والظاهر أن أصلالة عدم القرينة -أيضاً- ترجع إلى أصلالة الظهور، أي: العقلاه يحملون الكلام على ظاهره حتى تثبت القرينة، ولهذا تتبع الظاهرات مع الشك في قرينية الموجود ما دام كون الظهور باقياً.

وبالجملة: المتابع هو الظهور المنعقد للكلام وإن شك في قرينية الموجود ما لم ينثمه

الظهور.

وبالجملة: لا إشكال في حجية الظواهر، من غير فرق بين ظواهر الكتاب وغيره،
ولا بين كلام الشارع وغيره، ولا بالنسبة إلى من قصد إفهامه وغيره^(١٠).

وبحث حجية الظواهر في الكتاب الكريم، كاشف عن أثره وأهميته في العملية التفسيرية، وهذا ما دعى لمحاولة التعرف على تجربة الإمام الخميني قدّس في استعمال الظاهر في تفسيره لآيات كتاب الله تعالى.

المبحث الثالث : ثمرات تشخيص الظهور

ولبيان أهمية تشخيص الظهور، وضرورة المدافة في تحديده لمعنى المعنى المراد، يمكن الإشارة إلى الثمرات الآتية:

الثمرة الأولى: تشخيص الإطلاق من عدمه: وإليك هذين المثالين:

المثال الأول: قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمًا يَعِظُكُمْ بِهِ»^(١١)، فقد استدل به على جواز استقلال العامي في القضاء بدعوى أن "إطلاقه شامل للمくだ العامي، ومعلوم أنه إذا أوجب الله تعالى الحكم بالعدل بين الناس، فلا بد من إيجاب قبولهم ومن نفوذه فيهم، إلا لصار لغوا".^(١٢)

ونجد أن الإمام قدّس يعتمد ظهور الآية في تفنيد الإطلاق، وينحصر الأمر بن له الأمر، فيقول: "إن الخطاب في صدر الآية متوجه إلى من عنده الأمانة، لا إلى مطلق الناس، وفي ذيلها إلى من له الحكم وله منصب القضاء أو الحكومة، لا إلى مطلق الناس أيضا، كما هو ظاهر بأدنى تأمل، فحينئذ يكون المراد: أن من له حكم بين الناس، يجب عليه أن يحكم بينهم بالعدل . هذا مضافا إلى أنها في مقام بيان وجوب العدل في الحكم، لا وجوب الحكم، فلا إطلاق لها من هذه الحيثية".^(١٣)

يقول قدس ^(١٤) : "والإنصاف: أن هذه الآية ليس لها إطلاق يمكن أن يتمسك به للمطلوب، مضافا إلى أنه لو كان لها إطلاق، ينصرف إلى من كان صاحب الأمر، دون غيره".

المثال الثاني: ما استدل به على جواز استقلال العامي في القضاء، فقد قيل أن " قوله تعالى في المائدة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ^(١٥)، وفي آية: ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ^(١٦)، وفي ثالثة: ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ^(١٧)، دلت بمفهومها على وجوب الحكم بما أنزل الله، وإطلاقه شامل للعامي المقلد" ^(١٨).

والإمام قدس يرفض هذا الفهم قائلاً: "إن الآيات الكريمة في مقام بيان حرمة الحكم بغير ما أنزل الله، ولا يستقاد منها جواز الحكم أو وجوبه لكل أحد، لعدم كونها في مقام البيان من هذه الجهة" ^(١٩). ثم يقول قدس : "والإنصاف: أن هذه الآية "ليس لها إطلاق يمكن أن يتمسك به للمطلوب، مضافا إلى أنه لو كان لها إطلاق، ينصرف إلى من كان صاحب" الحكم، دون غيره" ^(٢٠).

ونجد واصحاً اختلاف التفسير، لا خلاف تحديد المراد من الآية.

الشمرة الثانية: تحديد المعنى المراد: إذ إن الظهور يعني -فيما يعني- تحديد معنى الآية، ويختلف تفسير الآية عند الاختلاف في تحديده. ويمكن التمثيل بآية تحريم الخبائث، إذ ادعى أن الأصل الثانوي على حرمة الانتفاع بالأعian النجسة والمتنجسات، ثم استدل على هذه الدعوى بالآية المذكورة، "بتقريب أن النجسات والمتنجسات من الخبيثات، وأن الحرمة إذا تعلقت بذات الشيء، تفيد حرمة مطلق الانتقادات، لأن التعلق بها مبني على الدعوى، وهي أنساب لها" ^(٢١).

ولكن الإمام قدس تنظر في هذا الاستدلال، وقال: "يظهر النظر فيه بعد ذكر الآية الكريمة قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا -أي: الرحمة- لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْمِنُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ

مَكْتُوبًاً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَتَصَرَّفُوا وَاتَّبَعُوا التُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٢٢)، فإنّ مبني الاستدلال على دعوى تعلق الحرمة على عنوان
الخبائث، وأنت خبير بأن الآية ليست بصدق بيان تحريم الخبائث، بل بصدق الإخبار
عن أوصاف النبي ﷺ بأنه «يأمرون بالمعروف» (الخ). وليس المراد أن
النبي ﷺ يحرم عنوان الخبائث أو ذاتها، ويحلّ عنوان الطبيات أو ذاتها، بل بصدق
بيان أنه يُحلّ كلّ ما كان طيباً، ويحرّم كلّ ما كان خبيثاً بالحمل الشائع، ولو بالنهي
عن أكله وشربه، فإذا نهى عن شرب الخمر، وأكل الميتة، ولحم الخنزير، وهكذا،
يصدق أنه حرم الخبائث، فلا دلالة للأية على تحريم عنوان الخبائث، وهو ظاهر^(٢٣).

الشمرة الثالثة: ترجيح أظهر محتملات الآية: ويمكن التمثيل بمثالين:

المثال الأول: قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»^(٤)، وسيتم توضيح ربطه بالمقام من خلال

جهتين:

الجهة الأولى: في الاستدلال به على أن الوقت من زوال الشمس إلى غسق الليل وقت اختياري للصلوات الأربع، قال تعالى: "بيان ذلك أن في قوله تعالى:
«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُودًا»^(٥)، احتمالات:

أحدها: أنه أمر لخصوص النبي ﷺ بإقامتها من الزوال إلى انتصاف الليل،
ويكون أمراً مولوياً وجوبياً.

ثانيها: أنه أمر مولوي متوجه إليه بإيقاعها في القطعة المذكورة، بأن لا يكون الأمر
متوجهاً إلى نفس الصلاة التي ظرفها تلك القطعة، بل إلى لزوم جعلها فيها بعد

مفروضية كونها واجبة.

وبعبارة أخرى: لم يكن بيان أصل وجوبها بالأئمة الشريفة، بل كان ثابتاً من قبل، وإنما تعلق الوجوب بجعل الصلوات الواجبة في تلك القطعة.
ثالثاً: أنه أمر إرشادي متوجه إلى لبيان شرطية الوقت للصلوة، كالأوامر المتعلقة بسائر الشروط، كالطهارة والقبلة.

فعلى هذه الاحتمالات، لما كان الخطاب شخصياً متوجهاً إلى رسول الله عليه وآله لا محالة، يكون الأمر للتتوسية اختياراً، فإن الاضطرار كالسهو والنسيان والخطأ والجهل والإغماء والمرض الموجب لعدم الالتفات إلى أوقات الصلاة، بل النوم الموجب لترك الصلاة في الوقت الاختياري، غير جائز على النبي عليه وآله ، وما ورد من نومه منها، لا بدّ فيه من التأويل أو الرد إلى أهله، فلا محالة يكون الخطاب لشخص ملتفت غير معدور، ف تكون التوسعة لصلاة المختار، ثم بعد ثبوت ذلك له عليه وآله ، ثبت للأمة، للإجماع، بل الضرورة على الاشتراك، وعدم كونها من مختصاته، ولا يفرق في استفادة ذلك بين الوجوه المتقدمة، حتى على الاحتمال الثالث، لأنّ الأمر الإرشادي أيضاً، متوجهاً إليه، فيكون إرشاداً له إلى ذلك.

نعم لو كان المراد من أمره بالإقامة إقامتها في الأمة بأن يكون مأموراً بأن يأمر الأمة بإقامتها، لكنه أمر بها قانونياً يصح فيه الإطلاق للحالات العارضة، لكنه خلاف الظاهر. ولعل الظاهر هو الاحتمال الأول، لفارق بين المقام وغيره مما أمر بالأجزاء والشروط، لقيام القرينة في سائر الموارد على الإرشاد، لتعلق الأمر بالجزء أو الشرط ونحوهما مما لا يصح فيه العمل على الملوية، وأما في المقام، فيحمل على ظاهره، لتعلقه بالصلوة في الأوقات المذكورة.

والحاصل، أن العمل على الإرشاد، حمل على خلاف الظاهر المحتاج إلى القرينة المفقودة في المقام. فتحصل مما ذكر: أن الوقت المستقاد من الآية وقت اختياري، هذا مضافاً إلى دلالة جملة من الروايات عليه وعدم صلاحية الروايات الموهمة للخلاف

لعارضتها، بل في نفس تلك الروايات شواهد على أن الأوقات المذكورة فيها أوقات فضل على مراتبه، ولا يقتضي المقام تفصيل الأوقات وأحكامها.

فلا إشكال في أن وقت العشاء ممتد إلى نصف الليل اختياراً. كما لا إشكال في عدم امتداده إلى الفجر اختياراً بمقتضى الآية الكريمة والروايات^(٢٦).

الجهة الثانية: في بيان طبيعة الوجوب: قال قدس: ظاهر الآية الكريمة: أحد الاحتمالين الأولين^(٢٧)، ويعني بهما التاليين:

الاحتمال الأول: "أن دخول الوقت يحتمل أن يكون شرطاً لوجوب الصلاة، فيكون وجوبها مشروطاً بمجيئ الوقت كسائر الوجوبات المشروطة"^(٢٨).

الاحتمال الثاني: "أن يكون الصلاة الواجبة معلقة على دخول الوقت، فتكون من قبيل الواجبات المعلقة، فيكون الوجوب فعلياً متعلقاً بأمر استقبالي هي الصلاة في الوقت".^(٢٩)

ثم قال قدس: "والأرجح بينهما، هو: الأول منها، فإن الأظهر أن يكون قوله: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ»، متعلقاً بالطلب، فيكون الحال: تجب الصلاة عند دلوها، فيكون الوجوب مشروطاً، لا بالصلاحة حتى يكون الوجوب معلقاً".

وأما كونها بصدق بيان الشرطية، لا الحكم التكليفي، فخلاف الظاهر بعد كون الأمر متعلقاً بالصلاحة أو متعلقاتها، هذا بالنسبة إلى أول الزوال، وأما منه إلى آخر الوقت فسيأتي الكلام فيه".^(٣٠)

المثال الثاني: قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيطِ قُلْ هُوَ أَذْنِ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيطِ وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأُتْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمْرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»^(٣١)، قال قدس إن "العمل على الاغتسال أو الوضوء أو غسل الفرج، يدفعه السياق والتفريج، وينافي صدر الآية الذي هو ظاهر في علية نفس المحيط، الذي هو أذى في وجوب الاعتزال وحرمة القرب".^(٣٢)

فترجح بل تُعین احتمال الظهر من خلال ظهور صدر الآية.

المبحث الرابع: مثبتات الظهور

فهنا أشار قتيل إلى عدد من مثبتات الظهور، وسيذكر الباحث أمثلة تطبيقية، سيبين من خلالها المثبتات التي يرتضيها قتيل من غيرها:

المثبت الأول: التبادر: والمراد به -كما قال قتيل- "ظهور المعنى من اللفظ بنفسه من غير قرينة، لا سرعة حصول المعنى في الذهن بالنسبة إلى معنى آخر، أو سبقه عليه".^(٣٣)

وذهب قتيل إلى أنه "لا إشكال في اشتراط كاشفية التبادر بكونه مستندًا إلى حاق اللفظ، لا إلى القرينة، ولكنه هل لنا طريق مضبوط إلى إثباته من الأطراد وغيره - بأن يقال: أن التبادر من اللفظ مطردًا، دليل على كونه مستندًا إلى الوضع- الظاهر عدمه"^(٣٤)، ومع شرطه الأطراد يكون "التبادر الناشئ من الغلبة غير مفيد"^(٣٥) أيضًا.

ويظهر من بعض كلماته قتيل أنه يرتضى التبادر كعلامة للحقيقة في البحوث اللغوية، فمن أقواله قتيل: "وليس شيء أقرب إلى إثبات اللغة من التبادر، ولا سيما عند أهل اللغة والعرف".^(٣٦)

وفي إطار تحقيقه لكون المشتق حقيقة في المتلبس بالمبأء، قال قتيل: "وبما أن البحث لفوي، يكون الدليل الوحيد في الباب هو التبادر، وما سوى ذلك لا يغني من الحق شيئاً".^(٣٧)

وكيف كان فيمكن التمثيل لكلامه قتيل في التبادر بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْقَائِطِ أَوْ لَا مَسْتِمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءَ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامسحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ﴾^(٣٨). قال قتيل: "وقد يستدلّ لتشخيص المراد من (الصعيد) في الآية التي في المائدة بلفظة ﴿مِنْهُ﴾، بدعوى

أن المبادر منها هو: المسح ببعض الصعيد؛ لظهور رجوع الضمير إليه، وعدم إمكان المسح بجميعه، فلا بد من المسح ببعضه، ولا يمكن ذلك إلا بإرادة التراب منه؛ لحصول العلوق به، دون الحجر ومثله؛ سواء كان الاستعمال على وجه الحقيقة أو المجاز.

والمقصود في المقام إثبات المطلوب، لا إثبات المعنى الحقيقي.

وفيه: أن المحتمل بدواً فيها: كون الضمير راجعاً إلى (الصعيد)، وكون (من) ابتدائية، وعليه يكون معنى الآية: (تَيَمِّمُوا وَاقْصُدُوا صَعِيداً، فَإِذَا انتَهَيْتُمْ إِلَيْهِ فَارجُمُوهُ مِنْهُ إِلَى مسح الوجوه والأيدي)، فيكون (الصعيد) منتهي المقصود أولاً، فإذا انتهى المكفل إليه، صار مبدأ الرجوع إلى عمل المسح، فاستفيد منها عدم جواز مسح الوجه واليد على الأرض، وعدم جواز التمرغ والتمعل، كما فعل عمار^{رض}، فكان رسول الله ﷺ حين قال: هكذا يصنع الحمار^(٣٩)، وإنما قال الله عز وجل: ﴿فَتَيَمِّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾^(٤٠)، أراد تفهيم أن المستفاد من الآية خلاف ما فعله. بل يستفاد منها كون اليد آلة المسح، وطريق الاستفادة أنه إذا أمر بالمسح بعد الانتهاء إلى المقصود وهو الصعيد، والرجوع منه إلى مسح الوجه والأيدي، يعلم أن المسح باليد، فإنها الآلة المتعارفة للعمل، وبهذا يعلم أن المسح بياطن الكف لكونه الآلة المتعارفة، وبعد كون باطنها آلة يعلم أن المسح غيره، تأمل.

نعم لا يستفاد منها أن المسح ظاهرها.

ولعل هذا الوجه بالتقريب المتقدم، أقوى الوجوه وأنسابها.

ويحتمل أن تكون (من) تعبيرية، مع رجوع الضمير إلى (الصعيد)، كما يدعى المدعى، فيكون المعنى: (وامسحوا بوجوهكم وأيديكم بعض الصعيد)، فحينئذ لا يتضح من الآية أن آلة المسح اليد، لإمكان أن تكون الآلة نفس بعضه، بأن يرفع حيناً أو مدرأً ويمسح به، أو يضع وجهه على الصعيد ويمسحه به، لصدق مسح وجهه ببعض الصعيد، بل لما كان بعض الصعيد هو الصعيد، لصدق الجنس على الكثير والقليل بنحو

واحد، فكأنه قال: (امسحوا بوجوهكم وأيديكم الصعيد)، فيكون الصعيد آلة المسح أو المسوح، والمساحُ الوجه، فيكون مناسباً لما صنع عمّار، لكنه تخيل أنّ ما هو بدل الوضوء، عبارة عن وضع الوجه والأيدي على الأرض، وما هو بدل الفسل بالنسبة المرتكزة في ذهنه عبارة عن مسح جميع البدن بالتراب، كما يفسل بالماء.

وهذا الاحتمال مع بعده لأنّ لازمه اعتبار زائد في الصعيد حتّى يخرجه عن المعنى الجنسي الشامل للقليل والكثير بنحو واحد؛ وهو لحظة مجموعاً ذا أبعاض، وهو خلاف الظاهر، ولأنّ الأصل في "من" الابتدائية، على ما قالوا، والاستعمال في غيرها بضرب من التأويل، ولأنّ ذكر المسح ببعضه غير محتاج إليه بعد عدم إمكانه بجميع ما يصدق عليه الصعيد، بل غير محتاج إليه مع الإمكان أيضاً، لأنّ طبيعة المسح توجد بأول مصادقه عرفاً، والفرض أنّ (الصعيد) اسم جنس صادق على الكلّ، وببعضه لا يثبت مدعاهم؛ وهو كون المراد من (الصعيد) هو التراب:

أما أولاً: فلما عرفت من عدم دليل في ظاهر الآية على أنّ الماسح الكفّ، بل يمكن أن يكون نفس الصعيد برفع بعضه إلى الوجه، وهو يشعر بخلاف مطلوبهم، وأن يكون المراد مسح الوجه على الأرض، نظير ما صنع عمّار. والمنظور الآن هو النظر في نفس الآية، لا الأدلة الخارجية والمرتكزات الحاصلة من معهودية كيفية التيمّم، وإنما يكون مطلوبهم واضح البطلان، كما يأتي التتبّيه عليه.

وأما ثانياً: فلأنّ وجه الأرض لا ينحصر بالتراب والحجر حتّى يثبت مطلوبهم، بل كثير من الأراضي يكون لها علوق مع عدم كونها تراباً، كالجصّ والنورة والرمل، بل والحجر المسحوق وغيرها.

ويحتمل أن تكون (من) للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٤١).

وقوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾^(٤٢)، فيكون المعنى: فامسحوا بوجوهكم وأيديكم الصعيد، وهذا الاحتمال إن لم يكن أقرب من الاحتمال

المقدم لعدم لزوم التصرف في "الصعيد"، بما مرّ من لزومه على ذاك الاحتمال، فلا أقلّ من مساواته معه، ويأتي فيه ما مرّ آنفًا في فرض ذاك الاحتمال.

وما قيل: (إنّ مجيء الحرف للتأكيد خلاف الظاهر، والأصل أن تستعمل في معنى من المعاني)، غير مسلم إذا كان سائر المعاني خلاف ما وضع له، كما يظهر منهم هنا من أنّ الأصل فيها الابتدائية، بل عن السيد: "أنّ كلمة "من" ابتدائية، وأنّ جميع النحوين من البصريين منعوا ورود "من" لغير الابتداء. نعم، لو ثبت اشتراكها بين المعاني المذكورة لها، يكون المجيء للتأكيد خلاف الأصل، لكنه غير معلوم.

ويحتمل أن تكون بدلية، مع رجوع الضمير إلى (الماء)، وهذا الاحتمال أيضًا لا يقتصر من احتمال كونها تبعيضة. ويحتمل أن تكون ابتدائية، والضمير راجعًا إلى (التيّم). وأن تكون سبيبة، والضمير راجعًا إلى الحدث المستفاد من سوق الآية. أو يكون مساقها مساق قوله: (اغسل ثوبك من أبوال ما لا يؤكل لحمه)، إلى غير ذلك من الاحتمالات التي بعضها أقرب من التبعيضة أو مساوٍ لها^(٤٣).

المثبت الثاني: صحة السلب: قال قتيل^(٤٤): "والظاهر أن المراد به صحته عند نفسه لا عند غيره، إذ الثاني يرجع إلى تخصيص أهل اللغة واللسان. وصحته عند نفسه فالتحقيق أن الاستكشاف واستعلام الحال حاصل من التبادر الحاصل من تصوّر الموضوع السابق على سلبه، فيكون إسناده إلى سلبه في غير محله".

وقال قتيل^(٤٥): "إنّ صحة السلب لا تصلح لأن تكون علامة الحقيقة".

المثبت الثالث: قول اللغوي: تبناء البعض، غير أن الإمام قتيل قد ذهب إلى أنّ "اللغوي" مرجع في موارد الاستعمال لا في تشخيص الحقائق عن المجاز^(٤٦)، وقال بأنه "لم يُعرَّز رجوع الناس إلى صناعة اللغة في زمن الأئمة عليهم السلام" بحيث كان الرجوع إليهم كالرجوع إلى الطبيب^(٤٧). وأن الصحابة "لم يثبت رجوعهم إلى مثل ابن عباس وغيره في لغة القرآن ومفرداته، بل الظاهر رجوعهم إلى مثله في تفسير القرآن المدخل

عنه من أصحاب الوحي، وصرف تدوين اللغة في عصر الأئمة عليهما السلام لا يدل على أحد الناس اللغة بصرف التقليد كالرجوع إلى الطبيب والفقير^(٤٨). نعم الرجوع إلى كتب اللغة ربما يوجب تشخيص المعنى بمناسبة سائر العمل، كما في رجوعنا إليها، فصرف تدوين اللغة والرجوع إليها في تلك الأعصار لا يفيد شيئاً^(٤٩).

وكمثال تطبيقي يمكن الإشارة إلى الاستدلال الذي ذكر لآيتين كريتين على كفاية مطلق وجه الأرض، أولاهما: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْقَاتِلِ أَوْ لَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾^(٥٠).

وثانيتهما: قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْقَاتِلِ أَوْ لَا مَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ﴾^(٥١)، وهذه الآية عين الموجودة في سورة النساء مع زيادة لفظة: ﴿مِنْهُ﴾ بعد ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾.

قال قتيلث: "وقد اختلفت كلمة أهل اللغة والعربية في معنى (الصعيد)، فعن (العين) و(المحيط)، و(الأساس)، و(المفردات) للراغب، وجمع آخر: (أنه وجه الأرض)، بل عن الزجاج: (أنه لا يعلم اختلافاً بين أهل اللغة).

وعن (المعتبر) حكايته عن فضلاء أهل اللغة.

وعن (البحار): أن الصعيد يتناول الحجر، كما صرّح به أئمة اللغة والتفسir.

وعن (الوسيلة): قد فسرَ كثير من علماء اللغة الصعيد بوجه الأرض وادعى بعضهم الإجماع عليه.

واستدلّ بعضهم بكونه وجه الأرض بقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَاقًا﴾.

وقول النبي عليهما السلام: «يمشر الناس يوم القيمة حفاةً عراةً على صعيد واحد»^(٥٢)، أي:

أرض واحدة؛ لعدم تناسب التراب.

وعن جمع من أهل اللغة: "أَنَّهُ التَّرَابُ" ، "الصَّحَّاحُ" والأصمعي وأبي عبيدة، بل عن ظاهر "القاموس" ، وبني الأعرابي وعباس وفارس، بل عن السيد حكايته عن أهل اللغة.

ويظهر من بعضهم: الاشتراك اللفظي بين التراب الخالص ومطلق وجه الأرض، بل والطريق لا نبات فيه، قال في "مجمع البحرين": "الصعيد: التراب الخالص الذي لا يخالطه سبخ ولا رمل، نقلًا عن "الجمهرة".

والصعيد أيضًا: وجه الأرض تراباً كان أو غيره، وهو قول الزجاج.. حتى قال: لا أعلم اختلافاً بين أهل اللغة في ذلك، فيشمل الحجر والمدر ونحوهما.
والصعيد أيضًا: الطريق لا نبات فيها.

قال الأزهري: ومذهب أكثر العلماء أن "الصعيد" في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمِّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾، هو التراب الظاهر الذي على وجه الأرض، أو خرج من باطنها، انتهى ما في "المجمع"، بل في "المنجد": "الصعيد: التراب، القبر، الطريق، ما ارتفع من الأرض".

وما قيل: "إن الاشتراك اللفظي كذلك أي بين مطلق وجه الأرض والترباب بعيد، بل إذا دار الأمر بين اللفظي والمعنوي يقدم الثاني" ، ناشئ من تخيل أن وقوع الاشتراك اللفظي في الأنسن من واضح واحد أو طائفة واحدة، لكن الظاهر أن الاشتراك حاصل من ضم الطوائف بعضها إلى بعض، واحتلاط اللغات، كاحتلاط لغة العرب بالعجم؛ لأجل سلطة الأعراب واحتلاطهم مع غيرهم، فربما نسي بعض اللغات من إحدى الطائفتين، وقامت اللغة الأخرى مقامه، وربما بقيت الفتان، فبقي معنى واحد لنقطان أو أكثر من احتلاط الطوائف، فيظن من ذلك الاشتراك اللفظي البعيد أو المرجو.

وكيف كان: لا يمكن لنا الاتكال في معنى "الصعيد" على قول أهل اللغة مع هذا الاختلاف الفاحش بينهم؛ فإن حجية قولهم إما لحجية قول أهل الخبرة، فمع

اختلافهم وتعارض أقوالهم تسقط عنها، أو للاطمئنان والوثوق منه، فلا يحصل معه.
ودعوى الزجاج عدم الاختلاف بين أهل اللغة، يردها قول من عرفت من كونه
التراب الخالص، أو الاشتراك بينه وبين غيره^(٥٣).

المثبت الرابع: أصلة الحقيقة: وهي الأصل الذي يعتمد العقلاً لتنقية الظهور
عند الشك في المراد، "والسر" في ذلك: هو أن أصلة الحقيقة من الأصول المرادية،
وهي جارية في مورد الشك في المراد، لا في إحراز المعنى الحقيقي بعد العلم
بالمراد^(٥٤)، ويمكن التمثيل لذلك بما قاله قيثن في الرد على من استدل لتحديد معنى
كلمة "الصعيد" بأصلة الحقيقة: "كما أن الاستدلال على كونه مطلق وجه الأرض بقول
الله تعالى: ﴿صَعِيدًا زَكَافًا﴾^(٥٥). وقول النبي ﷺ في النبي المتقدم^(٥٦)، في غير
 محله، لعدم جريان أصلة الحقيقة مع معلومية المراد والشك في الوضع، وإنما هي
حجّة في تشخيص المراد بعد العلم بالوضع^(٥٧).

المثبت الخامس: الانصراف: لم يجد الكاتب تعريفاً محدداً للانصراف عنده قيثن،
غير أنه يمكن استخلاص هذا التعريف من كلماته، بأن يقال: هو عبارة عن
انقداح قسم من أقسام الطبيعة إلى الذهن من اللفظ، رغم اتساع المدلول الوضعي
للفظ لأكثر ما هو المنسب منه، وذلك نتيجة تكرر استعماله فيه، وأنس الذهن
به.

قال قيثن: إن "الانصراف لا يوجب استعمال الكلي في الجزئي حتى يخالف
الظاهر، بل يوجب تعين الإرادة الجدية بتعذر الدال والمدلول"^(٥٨)، والانصراف يعني
الإرادة الجدية، "بعد استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقية، نظير قوله: "هذا الإنسان
كذا"، مشيراً إلى زيد، فإن لفظ "الإنسان" لم يستعمل في زيد، بل استعمل في معناه،
والإشارة تقيد الانطباق وتعين الإرادة الجدية"^(٥٩).

ومن خلال كلمات الإمام قيثن، يمكن بالآتي تحديد نوع الانصراف الذي

يوجب انسلاب الظهور عن الإطلاق واستقراره في الأفراد أو الحصص المنصرف إليها:

أولاً: أن يكون الانصراف موجباً لنشوء علاقة بين اللفظ وبين الأفراد أو الحصص المنصرف إليها، بحيث لا يبقى اللفظ الدال على الطبيعة محتفظاً بصلاحيته للدلالة عليها، ولذا قال قتيلث: "أن كثرة أفراد في قسم لا توجب الانصراف، فإن الإطلاق عبارة عن الحكم على طبيعة من غير قيد، فلا بد في دعوى الانصراف من دعوى كون الكثرة والتعارف وأنس الذهن بوجه تصير كفيف حافظ بالطبيعة"^(٦٠)، "فلو سلم إمكان دعوى الانصراف، فلا بد وأن يكون في مورد يكثر استعماله فيه؛ بحيث يوجب أنس الذهن به؛ بحيث يوجب انقلاب الذهن وتوجّهه إليه متى انفتح في ذهنه ذلك اللفظ، ويكون المعنى مغفلاً عنه ومهجوراً"^(٦١).

ثانياً: أن يكون الانصراف وفق الميزان، وقد حدد قتيلث هذا الميزان بقوله: "أن الميزان: الانصراف في زمان الصدور"^(٦٢)، فمن أحرز ما تُعورف عليه في زمان الصدور أوجب الانصراف عن الإطلاق إلى ما انصرف إليه.

ويكفي التمثيل لمسألة الانصراف بمثالين:

المثال الأول: قوله تعالى: «فَتَيَمِّمُوا صَعِيداً طَيِّباً»^(٦٣)، فقد قال قتيلث -في الرد على من استدل لتحديد معنى الكلمة (الصعيد) بالانصراف إلى الفرد الغالب-: و"دعوى الانصراف إلى التراب الخالص لكونه الفرد الغالب الشائع، في غير محلها، لمنع تحقق الشياع الموجب له"^(٦٤).

والإمام قتيلث في هذه المثال وإن لم يقبل نفي الظهور في الإطلاق بالانصراف، باعتبار عدم تحقق الشياع الموجب للانصراف، إلا أن المثال بين في دور الانصراف في الظهور نفياً أو إثباتاً، وأن هناك من تبناه في المقام، وهو أمر ينبع إلى عدم بساطة المسألة.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾^(٦٥)، فقد وقع كلام في انتفاء الغيبة عند رضى المغتاب باحتمالية انصراف الأدلة عما إذا رضى المغتاب أو لم يكرهه، فردّ قائل هذا الاحتمال -بدليل ذكره-، ووصفه بالوهن والضعف، وما قال: "وبالجملة: دعوى الانصراف لا وجه لها. وقلة الوجود لا توجب الانصراف، بل المناسبات تقتضي قوة الاطلاق. والانصاف أن رفع اليد عن إطلاق الآيات والروايات والتشديدات والاهتمامات الواردة في حرمة غيبة المؤمن، وإذاعة سره، وهتكه، وتعيبه، وغير ذلك، غير ممكن، فالا ظهر الأقوى عدم اعتبار هذا القيد".^(٦٦)

المبحث الخامس : عوامل تشخيص الظهور

وفي البدء يمكن القول بأنّ تعين الظهور ليست مسألة سهلة، بل قد زلت فيها أقدام الكثيرين، لأنّ "الظهور الكلامي ربما لا يكون كظهور مفرداته عند الوضع، فإنّ مراد المتكلم يفهم من صدر كلامه وذيله، وربما يكون الصدر قرينة للذيل، وربما يكون بالعكس، ولذا نفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكُ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحِ﴾^(٦٧): أنّ المراد بالكلام هو التلفظ بإيجاد الصوت في الشجرة، لظهوره كذلك. ونفهم من قوله تعالى: ﴿وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٦٨): أنّ المراد بها هو جهة مبرزية الكلام، ولذا يصدق على المسيح عليه السلام أنه كلمة منه.

إذا كان الكلام في أمر نبع الماء وسفينة نوح في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا - ثُمَّ ورود قوله تعالى:- وَلَا تُخَاطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ﴾^(٦٩)، فلا مجال لتورهم أنّ الفرق يكون في بحر المحبة والرحمة، وتورهم أنّ ما ورد من الوعيد بالنار من الآيات المباركات، يكون المراد منها نار العشق، بصرف إطلاق النار عليه أيضاً حقيقة أو مجازاً كما يزعم من خرج عن قانون المحاورة والعقلاء، ويدعي من عند نفسه أنّ له لغة مختصة به، فإنّ المتكلم بالعربية لا بدّ أن يلاحظ وضع لغة العرب، وفهم عامة العقلاء الظهور من اللفظ، لا أن يدعي من قبل

نفسه أنّ معنى هذه اللغة هكذا، أو ظهور العبارة كذا، وأنا أفهم لا غيري^(٧٠).

و"الحاصل إذا كان للفظ معنى ظاهر، فتتبعه، وإن كان معناه متشابهاً، فتذره في سنبه، ليبينه معصوم عالم بمعاني الألفاظ في ساير العوالم، فإن القرآن الشريف الذي هو أفصح كلام وأبلغه، ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمٌاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَبْغٌ فَيَتَبَعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفُتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمِنًا بِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدِ رِبِّنَا﴾^(٧١). فإن كان في وسع المخاطب بيان مطلب من المطالب العالية فيبيتون له وإلا فيسكتون وهم المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين). فمن باب المثال فارجع في تفسير ﴿ن﴾^(٧٢) في سورة القلم، وانظر إلى الروايات في تفسير نور الثقلين وغيره، فإنّ كلمة ﴿ن﴾ فسرت في كلام المعصوم عليه السلام: بأنه نهر في الجنة أو أنها لوح من نور، فإنّ هذه الكلمة حيث لا يكون لها ظهور يفهمه كل أحد، بل لا ظهور له بحسب الوضع اللغوي في لسان العرب، ويكون معناه في غير هذا العالم، لا بدّ أن يتبع وضع الله تعالى هذا اللفظ لذاك المعنى، ولا طريق للبشر إلى فهم معناه بهذا التحو إلّا بإخبار معصوم^(٧٣).

وإليك ذكر عوامل تشخيص الظهور، لتصون التشخيص من الزلل:

العامل الأول: مباحث الأوضاع اللغوية: قال الإمام قدس شانه: "أكثر ما يبحث عنه في مباحث الألفاظ يرجع إلى تشخيص الظاهر"^(٧٤)، وذلك مثل ما يبحث فيه عن الأوضاع اللغوية، كدلالة هيئة (الأمر) على الوجوب، وهيئة (النهي) على الحرمة، ودلالة أداة «العموم» على معانيها، ودلالة (الحصر) على مدلولها، وكمداليل المفردات والمركبات، وكلفظة (كل) و(جميع) للاستفرار، ولفظة (ما) ... (إلا) و(إنما) للحصر، ولفظة (لا) لنفي الجنس، إلى غير ذلك من المباحث المدرجة في مباحث الألفاظ، و نتيجتها هو: "تعين ظهور الألفاظ فيما يذكر لها من المعاني"^(٧٥)، لـ"فهم كلام

الشارع، لتعيين وظيفة العباد^(٧٦).

ويكن التمثيل للأوضاع اللغوية بقوله تعالى: ﴿لِرِجَالٍ نَصِيبٌ مُّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مُّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾^(٧٧). قال الإمام قتيل: "فالظاهر منها أن لكلّ رجل نصيباً، وأن كلّ امرأة كذلك؛ لظهور الجمع المحلّ في الكثرة الأفرادية، في قبال العامّ المجموعي، ولا تعرّض فيها لقدر النصيب، بل هي في مقام بيان عدم حرمان الرجال ولا النساء، ولعله للردّ على الجهميين يقولون: بحرمان النساء، أو يحرّمونهن عملاً"^(٧٨).

العامل الثاني : القرآن: ويكن التمثيل بالقرائن الآتية:

القرينة الأولى: **اللفظية المتصلة**: وذلك كما في الأمثلة الآتية:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذِلْكُمْ فِسْقٌ﴾^(٧٩)، فربما يتورّم إمكان استنقاذ الكلية من الموارد الجزئية، فيقال بإن تعلق الحرمة بذات العناوين المذكورة فيها، يدلّ على حرمة جميع الانتفاعات.

ونحوها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾^(٨٠).

قال الإمام قتيل في الرد على من قال بحرمة مطلق الانتفاع من الأمور التي ذكرت في الآية: "فيه منع استفادة حرمة مطلق الانتفاعات في الموارد المذكورة، فضلا عن الإسراء إلى غيرها، أما الآياتان فلقرائن فيهما وفيما قبلهما وبعدهما، تدل على أن المراد بتحريم العناوين تحريم أكلها:

منها: ذكر لحم الخنزير للجزم بعدم إرادة جواز الانتفاع بغير لحمه، وعدم الجواز في الميتة.

ومنها: عدم ذكر الكلب، لعدم كونه مما يتعارف أكله.

ومنها: استثناء الاضطرار في المعاة، فإن المراد منه جواز أكلها في المخصصة.

ومنها: قوله تعالى: - قبل الآية الثانية-: «**كُلُّوا مِنْ طَيَّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**»^(٨١). وتعليق الأولى بقوله تعالى: «**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمُ الطَّيَّبَاتُ وَمَا عَلِمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ شَعْلَمُونَهُنَّ مِّمَّا عَلِمْتُمُ اللَّهُ فَكُلُّوا مِمَّا أَنْسَكْنَ عَلَيْكُمْ**»^(٨٢).

وقوله: «**وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ**»^(٨٣).

فاحتفافهما بما ذكر، يوجب ظهورهما في إرادة الأكل، لا الانتفاعات الأخرى، مع أن الشابع من المنافع منها، سيما الدم ولحم الخنزير هو الأكل»^(٨٤).

المثال الثاني: قوله تعالى: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**»^(٨٥).

قال قتيل: "لا شبهة في أن الأصل الأولى، (أكالصالي الحل والإباحة)، (عموم خلق ما في الأرض جميعاً لنا)، جواز الانتفاع بكل شيء، من كل وجه، إلا ما قام الدليل على التحرير، وقد ادعى الأصل الثانوي على حرمة الانتفاع بالأعيان النجسة وبالمنتجات مستدلا بالكتاب"^(٨٦)، والآية الآنفة من الأدلة التي ذكرت "بدعوى رجوع الضمير إلى الرجس، وأن وجوب الاجتناب عن المذكورات لانسلاكها فيه، أما حقيقة كالخمر، أو ادعاء كفيرها، وأن الرجس هو النجس المعهود، ووجوب الاجتناب عن الشئ يقتضي عدم الانتفاع بشئ منه، وإن لم يناسب التعبير بالاجتناب والتبعاد عنه، فتدل على حرمة الانتفاع مطلقاً عن كل رجس ونجس".^(٨٧)

ولكن الإمام قتيل يرد هذا الكلام ويقول: "فيه:

أولاً: ممنوعية رجوع الضمير إلى الـ«رجس»، إذ من المحتمل رجوعه إلى

﴿عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، بل لعله الأنسب في مقام التأكيد عن لزوم التجنب عن المذكورات، ولو سلم رجوعه إليه، لا يسلم الرجوع إليه مطلقاً، بل مع قيد كونه ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، وإنما فلو كانت علة وجوب الاجتناب كون الشيء رجساً، لم يكن ذكر عمل الشيطان مناسباً. والرجوع إلى كل منهما مستقلأً لو فرض إمكانه، خلاف الظاهر، فيمكن أن يقال: - بعد رجوع الضمير إلى الرجس الذي من عمل الشيطان - أن الرجس على نوعين: ما هو من عمله يجب الاجتناب عنه. وما ليس كذلك لا يجب. فتدل أو تشعر على جواز الانتفاع في الجملة بالنجاسات.

وثانياً: أن الظاهر منها، ولو بمناسبة قوله: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، وبقرينة قوله متصلاً به: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾^{٨٨}. إن شرب الخمر والمقامرة وعبادة الأوثان رجس من عمله، لا بنحو المجاز في الحذف، بل بادعاء أن لا خاصية للخمر إلا شربها، ولا للميسر إلا اللعب، إذا كان المراد به آلاته، وأما إن كان المراد اللعب بالألة فلا دعوى فيه، ويكون قرينة على أن المراد بالخمر أيضاً شربه، وبالأنصاف عبادتها، بنحو ما مر من الدعوى، فإن إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، إنما هو بشرب الخمر والمقامرة، وإمساكها للتخليل ليس من عمل الشيطان، ولا آلة له لإيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله، هذا مع أن في كون الرجس بمعنى النجس المعهود إشكالاً، فإنه - على ما في كتب اللغة - جاء بمعناه: منها: العمل القبيح، فدار الأمر بين حمله على الرجس بمعنى القذر المعهود، وارتكاب التجوز في الآية زائداً على الدعوى المتقدمة، أو حمله على القبيح وحفظ ظهورها من هذه الحيثية، والثاني أولى. مع أن في تزيل عبادة الأوثان - التي هي كفر بالله العظيم - منزلة القذارة، أو تزيل نفسها متركتها - أي: منزلة القذارة الصورية في وجوب الاجتناب -، ما لا يخفى من الوهن، فإنه من تزيل العظيم منزلة الحقير في

مورد يقتضي التعظيم، (تأمل)^(٨٩).

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا مَنِ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأُتْهُنَّ مِنْ حِيثُ أَمْرُكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٩٠)، فقد قال تعالى: "أنَّ هذه الآية تدلُّ على قول المشهور من جواز وطء الزوجة قبلًا بعد نقاءها، ولا يجب عليها الفسل للوطء، "سواء في ذلك قراءة التخفيف والتضييف:

أمّا الأولى - أي: دلالة قراءة التخفيف- فظاهر؛ ضرورة أنَّ صدر الآية يدلُّ على أنَّ وجوب الاعتزال، متعرّج على الأذى، وأنَّ المحيض بما أنه أذى صار سببًا لإيجابه. وقوله: ﴿وَلَا تَقْرِبُوهُنَّ﴾ ظاهر في كونه بيانًا لقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ لا لأمر آخر غير مربوط بالحيض والأذى، فكانه قال: (إنَّ المحيض ممّا كان أذى فاعتزلوهنَّ ولا تقربوهنَّ حتى يرتفع الأذى ويظهرنَّ من الطمث). وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ تصرّف على ذلك، وليس مطلباً مستانفاً مستقلاً، بشهادة فاء التصرّف والفهم العربي، فيكون معناه: (إذا صرن طاهرات على أحد معاني باب التفعّل).

والحمل على الاغتسال أو الوضوء أو غسل الفرج، يدفعه السياق والتصرّف، وينافي صدر الآية الذي هو ظاهر في علية نفس المحيض، الذي هو أذى في وجوب الاعتزال وحرمة القرب.

وما قيل: (من أنَّ التطهير فعل اختياري، ويشهد به ذيل الآية، لأنَّ تعلُّق الحبّ إنما هو بفعل اختياري)، في غير محله إن أريد ظهوره في ذلك؛ ضرورة أنَّ لصيغة «(التفعل)» معاني وموارد للاستعمال: بعضها مشهور، وبعضها غير مشهور، كالمجيء للصيغة، نحو: (تأيّمت المرأة)، أي: صارت أمّاً أو للانتساب، نحو: «تبديّ»، أي: انتسب إلى البادية.

والظاهر في المقام بمناسبة التقرير على ما سبق - وبما أنّ الظاهر من الآية، وأنّ المحيض هو: تمام الموضع للحكم بالاعتزال وعدم القرب - هو: كونه بمعنى الصيرورة. ودعوى عدم تعلق الحبّ إلّا بالفعل الاختياري، غير وجيهة، كما ورد: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٩١)، ولا إشكال في تعلق الحبّ بأمور غير اختيارية إلى ما شاء الله.

وأغرب من ذلك، دعوى كون (الطهر) حقيقة شرعية في الطهارات الثلاث!! ضرورة أنّ استعمال (الطهر) في المقابل (للطمث) شائع لغة وعرفاً، وفي الأخبار المتظاهرة، فاختصاصه بها على فرض تسليم الحقيقة الشرعية ممنوع. كما أنّ حصول الحقيقة الشرعية عند نزول الآية ممنوع. وتقدم الحقيقة الشرعية على العرفية واللغوية، لا يخلو من منع.

وبالجملة: من تأمّل الآية الكريمة وخصوصياتها صدرًاً وذيلًاً، لا يشكّ في أنّ المراد من (الطهر) و(التطهر) هو زوال الأذى الذي هو المحيض.

وممّا ذكرنا يظهر تقريب الدلالة على قراءة التضعيف، فإنّ صدر الآية - كما عرفت - ظاهر في أنّ المحيض الذي هو أذى، موجب لوجوب الاعتزال، ومعه تكون الغاية لرفعه، هو: ارتفاع الأذى، فيصير ذلك قرينة على تعيين أحد المعاني لباب (التفعل) وهو الصيرورة، وليس في هذا ارتكاب خلاف ظاهر بوجه.

ولا يمكن العكس بحمل (التطهر) على الاغتسال، ورفع اليد عن ظهور الصدر، لأنّ حمله عليه بلا قرينة، بل مع القرينة على ضده، غير جائز.

ويلزم منه حمل صدر الآية على خلاف ظاهره؛ ضرورة أنّه مع كون غاية الحرمة هي الاغتسال، لا يكون المحيض الذي هو أذى سبباً لوجوب الاعتزال، بل لا بدّ وأن يكون حدث الحيض مما هو باقٍ بعد رفعه سبيلاً له. مع أنّه خلاف ظاهري بارد بلا قرينة وشاهد.

وبالجملة: دار الأمر بين حفظ ظهور الصدر وقرينته لتعيين أحد المعاني للفظ المشترك، وبين حمل اللفظ المشترك على بعض معانيه بلا قرينة، ورفع اليد عن ظاهري

آخر بلا وجه.

فتحصل مما ذكرنا: أن ما عليه أصحابنا هو الظاهر من الآية الشريفة، بعد ملاحظة الصدر والذيل وقرينية بعض الكلام المبارك على بعض، وعليه فلا مجال للداعوي التي في الباب^(٩٢).

بيان وجه الجمع العقلائي بين قراءتي التخفيف والتضييف:

قال الإمام قتيل^١: "ثم إنّه لو فرضنا تواتر القراءات والإجماع على وجوب العمل بكل قراءة، وقع التعارض ظاهراً بين القراءتين. ولكن التأمل فيما أسلفناه، يقضي بالجمع العقلائي بينهما بحمل (التطهير) على الطهر بعد الحيض، فإن رفع اليدين عن ظهور (التطهير) في الفعل الاختياري -على فرض تسليمه، وحفظ ظهور الصدر الدال على أنّ الحيض بما هو أذى، علة أو موضوع لحرمة الوطء ووجوب الاعتزال-، أهون من رفع اليدين عن الظهور السيافي (للهـ) في كونه مقابل الحيض، وعن الظهور القوي للصدر المشعر بالعلة أو الظاهر فيها، فإنّ الغاية إذا كانت هي الاغتسال، فلا بد أن تكون العلة أو الموضوع حدث الحيض، لا الحيض الذي أخذ في الآية موضوعاً. بل لا بد وأن يحمل (الأذى) على التعبد^٢، لا العرف المعلوم للعقلاء، وكل ذلك خلاف الظاهر، وارتكابه بعيد.

واما حمل (التطهير) على صيروتها طاهرة، فغير بعيد بعد قضاء مناسبة الحكم والموضع له^(٩٣).

القرينة الثانية: اللفظية المنفصلة: ويكن التمثيل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾^(٩٤)، ففي إطارها قال الإمام قتيل^١: "إمكان دعوى ظهور الآية الكريمة في الركون إلى ولادة الجور، فإن قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أُولَئِكَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾^(٩٥)، سياقه يشهد بأن الركون إليه أمر عظيم، ومن الكبائر،

وذو مفسدة عظيمة؛ حيث أ وعد عليه بالنار، وعدم الأولياء والناصر لهم. وهذا يناسب الركون إليهم؛ حيث ورد فيهم وفي إعانتهم ما ورد في الأخبار، لا الركون والميل إلى فاسق، كان سبب فسقه عدم رد السلام الواجب، أو إصراره عليه، فإن نفس ارتكاب كثير من المحرمات لم يرد فيها نحو ما في الآية.

ويشهد له: عدم احتمال المفسرين هذا المعنى الأعمّ.

وفي (المجمع): روى عنهم عليهما السلام: «إن الركون: المودة، والصيحة، والطاعة»^(٩٦).

ومعلوم أن ذلك في ولادة الجور والظلمة.

وفي رواية الحسين بن زيد في مناهي النبي عليهما السلام: أنه تمسك بالآية في خلال ما قال في حق من تولى خصومة ظالم، أو أعان عليها، ومن مدح سلطاناً جائراً، ومن ولّ جائراً على جور^(٩٧).

وفي رواية الفضل بن شاذان، عن الرضا عليهما السلام في عد الكبائر: «ومعونة الظالمين، والركون إليهم»^(٩٨).

وفي رواية الأعمش في عدّها: «وترك معاونة المظلومين، والركون إلى الظالمين»^(٩٩). مضافاً إلى أن الظالم - عرفاً - هو الذي ظلم غيره، والفاسق ليس ظالماً عرفاً^(١٠٠).

القرينة الثالثة: **اللبيبة**: وي يكن التمثيل لها بالآتي:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾^(١٠١). قال قتيل: "وأما مالكيّة التصرف والأولوية من كل أحد، فلا مانع من اعتبارها له تعالى عند العقلاء، بل يرى العقلاء أنه تعالى أولى بالتصرف في كل مال ونفس وإن كانت ماهيّة الأولوية أمراً اعتبارياً، لكنّها اعتبار معقول واقع من العقلاء. فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ معناه أنه تعالى ولـ أمره، فحيينـذ إن حمل قوله تعالى: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ على ولاية التصرف، فلا إشكال فيه بحسب اعتبار العقلاء، ولا بحسب ظواهر الأدلة ولوازمهـا. وتؤكـده وحدة السياق، ضرورة أن التـفـكـيك خـلافـ

الظاهر يحتاج إلى دلالة^(١٠٢).

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلْنِسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾^(١٠٣) .. قال الإمام قتيل: "والظاهر من ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ هو ما بقي بعد موت المورث، فلا يصدق ذلك إلا على ما له بقاء ولو اعتباراً، وذلك مثل: الدين على عهدة المدين، وكالكتلي في الذمة. وهذا بخلاف الحقوق، فإنها مع عدم الطرف، لا يعقل بقاها ولو اعتباراً^(١٠٤). و"المراد -ولو بمساعدة فهم العرف في باب التوريث، حيث إنّه أمر عرفي ليس من مخترعات الشرع- أنّه ينتقل إلى الوارث، ما يكون الموت موجباً لانقطاعه عنه، أي الموت موجب للنقل، لا أنّ الإرث ملك بحكم الشرع بقي بلا مالك، بعد ما ترك الشئ بموته، حتى يرجع إلى عدم تلقّي الورثة من مورثهم؛ مما هو خلاف الضرورة عرفاً وشرعاً. فالموت سبب للنقل، ملكاً كان، أو حقّاً كالبيع والصلح، ومعنى: «ما تركه الميت فلوارثه»، أي: ما انقطعت إضافته عنه، لا يبقى بلا مالك، بل مالكه الوارث.

وبعبارة أخرى: إنّ المراد بهذه الآية وأشباهها -ولو بالقرائن المقلالية، وفهم العرف- هو أنّ ما كان للميت حال الحياة، يكون لوارثه بعد موته، فالموت ليس سبباً لسلب الحقّ وإعاداته، بل سبب نقله إلى الورثة، فيصدق: (أنّ الميت ترك لوارثه ما كان له)، لا (أنّه ترك المال بلا إضافة، ثمّ أضيف إلى الوارث)، فإنه مخالف للضرورة. فالحقوق للأعيان المملوكة، تنتقل بنفس الموت، وتكون من متروكات الميت، بل لها بقاء وإن تبادلت الإضافات، ولا تصير معدومة في حال.

والشاهد على ذلك -بعد عرفيّة المسألة، وعدم اختصاص الإرث عند العرف بالأعيان، بل يكون ثابتاً في مثل حقّ التحجير وسائر الحقوق، إلا ما دلّ الدليل على خلافه-: النبوى المعروف الذي يقال فيه: إنّه مجبور بعمل الأصحاب، حيث نصّ فيه:

على أنّ الحقَّ ممَّا تركَ، فلا بدَّ وأن لا يكون المراد من مَا تَرَكَ، ما بقي بعد الموت وله وجود بقائي مع عدم الإضافة. بل يكون المراد منه: أنَّ ما للميْت من الحقِّ، فهو لوارثه عند انقطاع إضافته عنه، وهو عبارة أخرى عن نقل ما للميْت إلى الورثة^(١٠٥).

المبحث السادس : شروط العمل بالظاهرات في كتاب الله تعالى

الشرط الأول: الاجتهد العلمي للمسائل الدخيلة في تشخيص الظاهر:

باعتبار أن العمل بالظهور قد يختلف فيه للاختلاف في طبيعة المبني العلمي، مما يعني ضرورة إعداد الرأي العلمي المسبق، ليدور فهم الظهور مداره، ويكون التمثيل بالاختلاف فيما وضعت له الـ(لام)، وكيف أن ذلك يؤدّي إلى الاختلاف في فهم المراد، فقد قال الإمام قتيل في الرد على من تخيل أن (اللام) موضوعة للملك: أنَّ هذَا "في غير محلِّه، فإنه مضافاً إلى منع ذلك، بل (اللام) لا يستفاد منها إلا نحو اختصاص، وأكثر استعمالها في الكتاب في غير الملك، بل استعمالها في الملك لم يثبت، بعد كونها بمعنى الاختصاص، كما هو مقتضى استعمالها فيه بلا تأوّل، وللملك أيضاً نحو اختصاص، ولعلُّها لذلك استعملت فيه، فتأمل مع كثرة الاستعمال في غير الملك، لا يبقى لها ظهور فيه"^(١٠٦).

الشرط الثاني: الثاني في دراسة طبيعة الظاهر: - وهذا أحد دواعي قراءة

تجربة ممارسة الإمام قتيل في استعماله الظاهرات كما تقدمت الإشارة إليه، ويكون التمثيل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُهُودِ﴾^(١٠٧)، لبيان الظاهرات البدوية فيها، ومن ثم العدول عنها، ليتبين للقارئ بأنَّ التعرُّف على الظاهر، عملية ليست يسيرة، بل تتطلب دراية وعناية وتدبرًا.

قال الإمام قتيل: "إنَّ الظاهر من (الوفاء)، هو: العمل على طبق مقتضى العقد وافيًا، كما يظهر من موارد استعمالاته، مثل: الوفاء بالنذر، والمعهد، واليمين.

والظاهر البدوي من وجوبه، هو: الوجوب الشرعي، ولازمه تحقق تكليفين - في مثل

البيع- بعد تتحققه:

أحدهما: وجوب الوفاء بعنوانه.

وثانيهما: حرمة حبس مال الغير أو غصبه.

وفي الثمن إذا كان كلياً: وجوب أداء الدين، ووجوب الوفاء بالعقد، والالتزام به مشكل جدّاً. فيدور الأمر بين الأخذ بموم (العقود) ورفع اليد عن ظهور الوجوب في كونه شرعياً -فيحمل ذلك على نحو الالتزامات العقلائية- وبين رفع اليد عن العموم، وحمله على المقدود المهدية التي ليس فيها إلّا التمهّد بعمل، نحو عقد الولاية، والتعهّدات العقدية المتعارفة بين الدول والأشخاص. بل ربّما يقال: إنّ المراد بـ(العقود) هنا، هي: المهدود التي وقعت في عقد الولاية، والجمع باعتبار أنّ العقد كان متعدّداً بعديد الأشخاص، أو بعديد الواقعة. وتشهد له رواية ابن أبي عمير، عن أبي جعفر الثاني عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُهُودِ﴾^(١٠٨)، قال: «إنّ رسول الله ﷺ عقد عليهم لعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخلافة في عشرة مواطن، ثم أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُهُودِ﴾^(١٠٩)، التي عقدت عليكم لأمير المؤمنين»^(١١٠).

وتؤيّدتها صحيحة ابن سنان المتقدّمة^(١١١)، وكون الآية في سورة المائدة المشتملة على آية تبليغ الولاية. لكنّه غير مرضيّ بعد عموم الآية، وتمسّك الأصحاب خلفاً عن سلف بها، وعدم دلالة الروايتين على الانحصر، وعدم جواز الاتكال على مثل تلك التأييدات. على أنّه لو نزلت الآية الكريمة في خصوص عهد الولاية، لصار شائعاً، لكثرة الدواعي على ذلك، فإنبقاء ﴿الْعُهُودِ﴾ على ظهورها وعمومها، ورفع اليد عن الظهور في الوجوب الشرعي أولى.

بل الإنصاف: عدم ظهورها فيه، بعد كون لزوم الوفاء بالعقود والعقود عقلائيّاً ، شائعاً بين جميع الطوائف، ظاهراً لديهم، وفي مثله لا ينقدح في أذهانهم إلّا ما هو الشائع بينهم، وهو المناط في الاستظهار، وظهور الأمر في الوجوب الشرعي ليس -

كسائر الظهورات- مستنداً إلى دلالة لفظية، بل هو كظهور الحال والمقام. ومع كون وجوبه ولزومه العقلي مرتکزاً في الأذهان، لا يحمل الكلام إلا على ما هو المرتکز، كالأمر بالعمل بخبر الثقة، أو الظهور اللفظي، أو غيرهما مما هو معهود عند العرف. فالآلية الكريمة تدلّ على لزوم العمل بالعقود، ولازم ذلك -بحسب الفهم العرفي- أن العقود لازمة؛ ضرورة أنّ اللزوم لازم عرفي لوجوب العمل، وكونه ملزماً به، ولو قيل: (إلتک ملزم بالعمل بعقد كذا، ولكن زمامه بيديك فسخاً وابقاء)، عدّ ذلك عند العرف تنافضاً. فالقول: بأنّ وجوب الوفاء، لا ينافي جواز العقد أو خياريته ساقط جدّاً، لعدم جواز الاتكال في هذا المجال على التحریصات العقلية، بل المناطق هو فهم العرف واستظهارهم، كالقول: بأنّ وجوب الوفاء، لازمه وجوب إبقاء العقد تکلیفاً، فهو دالّ على جوازه؛ لاعتبار القدرة في متعلق التکلیف ضرورة أنّ ذلك بعيد عن الأذهان جدّاً، بل لازمه إقدار المكلف على المخالفه، ثمّ الأمر بالوفاء.

وبعبارة أخرى: ردع العقلاة عن البناء على لزوم العقد، ثمّ الأمر بعدم الفسخ، وهو أمر بعيد عن الأذهان، بل لعلّه مستهجن عند العرف لو فسر المقصود لهم، فلا ينبغي الإشكال في الدلالة على اللزوم.

ثمّ إنّ ما ذكرناه: من أنّ وجوب الوفاء، يحمل على ما هو المرتکز العرفي، ليس المراد منه أنّ «العقود» فيها أيضاً محمولة على العقود المعهودة اللاحزة عرفاً، حتى يقال: إنّ لازمه بطلان التمسّك بالأدلة، ولزوم الرجوع في كلّ مورد إلى الحكم العرفي. بل المراد: أنّ خصوص وجوب الوفاء محمول على ذلك، فرفع اليد عن العموم بلا حجّة، لا وجه له، فالعموم على عمومه، ووجوب الوفاء هو اللزوم العقلي، فتدبر^(١١٢).

الشرط الثالث: عدم قيام قرينة صارفة للظهور: وـ"القرينة الصارفة عن الموضوع له، لا بدّ أن تكون معاندة للحقيقة ولو بحسب متقاهم العرف حتى يصح

كونها صارفة للفظ عن معناه الحقيقي في فهم العرف^(١١٣)، وعليه، "فإن مجرد وجود معهود في المقام — مثلاً — لا ينافي إرادة العموم في المقام ولو بحسب العرف، ولذا لا يصح جعله صارفاً للفظ عن معناه الحقيقي"^(١١٤)، بل يجب حمل اللفظ على ظاهره لتجرده عن القرائن الصارفة له إلى غير ظاهره.

وي يكن التمثيل بمثالين:

المثال الأول: **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾**^(١١٥). قال تعالى: "إذا وصلنا إلى مورد ليس في وسعنا استقادة المعنى الذي نريد من هذا اللفظ، ليس لنا أن نطبقه على معقولاتنا إلا إذا كان حكم العقل ضرورياً، بحيث يجب الظهور للفظ، فإذا كان الظهور البدوي من قوله تعالى: **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾**^(١١٦)، على شيء ينكره العقل الضروري، نفهم عن كلمة **﴿اسْتَوَى﴾** معنى آخر، وهو كون معناها استولى بتفسير أهله".^(١١٧)

المثال الثاني: قوله تعالى: **﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**^(١١٨)، فقد نقل تعالى استدلاً، يظهر منه توقفه فيه لتعبيره عنه في طيات دراسته بقوله تعالى: "على تسليم ما ذكر فيه".^(١١٩)

الأمر الأول: "النظر الحكومي كما قد يتفق"^(١٢٠): قال تعالى: "إن تقديم أحد الدليلين على الآخر عرفاً، يكون بواسطة الحكومة، والضابطة فيها: كون الدليل الحاكم متعرضاً للمحكوم نحو تعرض ولو بنحو اللزوم العرف أو العقلي مما لا يرجع إلى التصادم في مرحلة الظهور، أو كون دليل الحاكم متعرضاً لحيثية من حيثيات دليل المحكوم مما لا يتخلله دليل المحكوم توسيعة وتضيقاً".^(١٢١)

وبعبارة أكثر تفصيل - كما قال تعالى -: "الضابط فيها: أن يكون أحد الدليلين متعرضاً لحيثية من حيثيات الدليل الآخر التي لا يكون هذا الدليل متعرضاً لها، وإن حكم العقلاء مع قطع النظر عن الدليل الحاكم بثبوت تلك الحيثية، سواء كان

التعرض بنحو الدلالة اللفظية أو الملازمة العقلية أو العرفية، وسواء كان التصرف في موضوعه أو محموله أو متعلقه إثباتاً أو نفياً، أو كان التعرض للمراحل السابقة أو اللاحقة للحكم، كما لو تعرض لكيفية صدوره، أو أصل صدوره، أو تصوره، أو التصديق بفائدته، أو كونه ذا مصلحة، أو كونه مراداً، أو مجعلولاً، أو غير ذلك. مثلاً :

لو قال: (أكرم العلماء)، فهو مع قطع النظر عن شئ آخر يدل على وجوب إكرام جميع العلماء، ويحكم القلاء على كون هذا الحكم -موضوعاً ومحمولاً- متصوراً للحاكم، ويكون مجعلولاً ومتعلقاً بإرادته استعمالاً، وجداً، لا هزل فيه، ولا تقية، ولا غيرهما، ويكشف عن كونه ذا مصلحة ملزمة، كل ذلك بالأصول اللفظية والعقلائية.

فلو تعرض دليل آخر لأحد هذه الأمور، يكون مقدماً على هذا الدليل بالحكومة، فلو قال: (إن الفساق ليسوا بعلماء)، أو (المتقين من العلماء)، أو (الشئ الفلاني إكرام)، أو (الإكرام الكذائي ليس بإكرام)، أو قال: (ما جعلت وجوب الإكرام للفساق)، أو (ما أردت إكرامهم)، أو (لا يكون إكرامهم منظوري)، أو (لا مصلحة في إكرامهم)، أو صدر هذا الحكم عن هزل أو تقية، يكون مقدماً على الدليل الأول بالحكومة.

وأما لو تعرض لما أثبت الدليل الآخر، مثل أن قال: (لا تكرم الفساق من العلماء)، أو (لا تكرم الفساق)، يكون التعارض بينهما في مرحلة الظهورين، فيقدم الأظهر منهما، ولا يكون تقديم أحد الظاهرين على الآخر بالحكومة، كما لا يكون تقديم قرينة المجاز على ذيها بالحكومة، بل إنما يكون بالأظهرية.

فميزان الحكومة هو نحو من التعرض لدليل المحكوم بما لا يرجع إلى التقادم الظاهوري، ولو كان التعرض بالมلازمة، فأدلة الأمارات التي لسانها الكشف عن الواقع أو ثبوت الواقع مقدمة على أدلة الأصول بالحكومة -بناء علىأخذ الشك في موضوعها- فإن التعبد بالثبوت الواقعي ملازم عرفاً لرفع الشك شرعاً، فيكون تعرضاً لها بالملازمة العرفية، كما أن أدلة الاستصحاب مقدمة على أدلة الأصول، لأن

مفادها إطالة عمر اليقين، فيلازم رفع الشك، بل مفادها حصول غاية الأصول، وهو من أظهر موارد الحكومة، بل حكمة الاستصحاب على الأصول أظهر من حكمة الأمارات عليها ولو لم نلتزم بأمارية الاستصحاب، كما هو المعروف بين المتأخرین.

فتحصل من جميع ما ذكرنا: أن الحكومة ولو كانت متقومة بنحو من التعرض لدليل المحکوم مما لا يتعرض المحکوم له، لكن هذا التعرض لا يلزم أن يكون بنحو الدلالة اللفظية^(١٢٢).

وكيف كان، فالاستدلال نافع في تقریب فکرة نفي الظهور بالقرینة العقلیة.

قال قیثیث: "ذکروا في جواب استدلال القائل بأنّ المشتق حقيقة في الأعمّ بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١٢٣)، ببيان: أنّ الظاهر وحدة ظرف الظلم وعدم النيل، فلا بدّ من صدق الظلّم على من قضي عنه الظلّم.

فأجیب عنه: بأنّ الحكم المستمر إنّ تعلّق بموضع آنی الوجود، لا بدّ وأن يكون تحقق موضوعه آنًا مّا کافیاً لترتب الحكم المستمر عليه، والظلّم آنی الوجود غالباً، وعدم النيل مستمر الوجود، فلا بدّ من رفع اليد عن الظهور المذکور بالقرینة العقلیة^(١٢٤).

القرینة الصارفة:

وصیرورة شيء قرینة على صرف ظهور شيء، يمكن أن يتحقق بأمور أذكر ما وجدت له مثالاً من کلامه تیثیث -بحسب استقراء الناقص:-

الأمر الثاني: الأظهريّة: "فوة الظهور"^(١٢٥)، قال قیثیث: "إن تقديم أحد الدللين على الآخر عرفاً، يكون بواسطة الأظهريّة، وذلك فيما إذا كان التعارض والتصادم في مرتبة ظهور الدللين، كتقديم قرینة المجاز على ذي القرینة، وتقديم الخاص على العام، والمقيّد على المطلق، فإن التصادم بينهما إنما يكون في مرحلة الظهور، والمیزان في التقديم في تلك المرحلة هو الأظهريّة لا غير".

وقال فتى: "والذى يمكن أن يقال: أنه قد نرى أن المقلاء وأرباب المحاورات قد يقدمون دليلاً على دليل من غير ملاحظة النسبة بينهما، ومن غير ملاحظة ظهرية أحدهما من الآخر، وقد يتوقفون في تقديم أحد الدليلين مع كون النسبة بينهما كالسابقة، مثلاً: لو ورد: (يجب إكرام العلماء)، وورد في دليل منفصل: (يحرم إكرام الفساق)، فيعرض الدليلان على أهل المحاورات والعرف، تراهم يتوقفون في الحكم، ولا يحاولون ترجيح أحدهما على الآخر، ولو بدل قوله: (يحرم إكرام الفساق) بقوله: (ما أردت إكرام الفساق)، أو (ما حكمت بإكرامهم)، أو (ما جعلت إكرامهم)، أو (لا خير في إكرامهم)، أو (لا صلاح في إكرامهم)، أو (لا أرى إكرامهم)، أو (ليس منظوري إكرامهم)، أو (ليس الفساق أهلا للإكرام)، أو (إكرامهم خطأ)، أو (لا أقول بإكرامهم)، أو أمثالها، تصير تلك الألسنة قرينة على صرف قوله: (يجب إكرام العلماء)، عن وجوب إكرام الفساق منهم مع أن النسبة بينه وبينها عموم من وجهه ولا فرق بين ما ذكر وبين ما تقدم إلا في كيفية التأدية والتعبير، وكذا الحال في قوله: «لا سهو على من أقر على نفسه بسهو»^(١٢٧)، بالنسبة إلى أدلة الشكوك، وقوله: «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ»^(١٢٨)، أو «لا ضرر ولا ضرار»^(١٢٩)، أو «لَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»^(١٣٠)، بالنسبة إلى أدلة الأحكام مع أن النسبة بينهما عموم من وجهه، وليس هذا النحو من التقديم بلحاظ مقام الظهور، وترجح الأظهر على الظاهر، أو النص على الظاهر.

ومن ذلك يعلم أن غير التقديم الظاهوري الذي يكون معيلاً عليه عند المقلاء، يكون ترجح وتقديم آخر، وهو: أن يكون أحد الدليلين بمدلوله متعرضاً لحيثية من حيثيات الدليل الآخر التي لم يتعرضها ذلك الدليل.

وتوضيح ذلك: أنَّ الدليلين إما أن يكون كل منهما متعرضاً بمدلوله لما يتعرض له الدليل الآخر، ويكون الفرق بينهما بعد اشتراكهما في ذلك في جهات آخر كالإيجاب

والسلب، مثل: (أكرم العلماء)، و(لا تكرم العلماء)، أو مع خصية أحدهما عن الآخر، مثل: (أكرم العلماء)، و(لا تكرم فساقهم)، أو مع كون النسبة عموماً من وجه، مثل: (أكرم العلماء)، و(لا تكرم الفساق)، وكاختلافهما في زيادة قيد مع الاتفاقي في الكيف، مثل: (إن ظهرت أعتق رقبة)، و(إن ظهرت أعتق رقبة مؤمنة)، ففي جميع تلك الموارد ترى أن كلا من الدليلين يتعرض لما يتعرضه الآخر، فكما أن أحدهما تعرض وجوب إكرام العلماء، تعرض الآخر عدم وجوب إكرامهم، وكما أن أحدهما تعرض لعقد رقبة، تعرض الآخر لعدم عتق كافرتها أو لعقد مؤمنتها، فما مدلول اللفظي من أحدهما هو المدلول الآخر، مع اختلاف في الكيف أو في زيادة أو مثيلهما.

وإن شئت قلت: في الأدلة اللفظية أن التصادم بينهما في مرحلة الظهور مع اتحادهما في جميع المراحل، من الأصول العقلائية، فإذا كان الدليلان كذلك، يكون تقديم أحدهما على الآخر تقديمها ظهورياً، ومناطه ظهيرية أحدهما من الآخر، فتقديم: (لا تكرم الفساق من العلماء)، على: (أكرم العلماء)، ليس إلا من جهة تقديم الأظهر على الظاهر.

وجميع الأصول اللفظية: كأصل العوم، وأصلة الإطلاق، وأصلة الحقيقة، ترجع إلى أصل الظهور عند العقلاء، مما هو المعتبر عندم والمحجة لديهم هو الظهور اللفظي، (فأكرم العلماء) حجة، لظهوره في العموم بعد تحقق المقدمات الأخرى من الأصول العقلائية، وليس ظهوره معلقاً على عدم مجئ المخصوص، بل ظهوره منجز، وبناء العقلاء على العمل به من غير تعليقه على شيء، ولكن مع ورود دليل أخص منه يقدم مقتضاه عليه، لقوة ظهوره وأظهريته من ظهور العام في مضمونه.

وكذا الحال في المطلق والمقييد، فإن مناط تقديميه على المطلق ليس إلا أقوائية ظهور القيد في القيدية من المطلق في الإطلاق^(١٣١).

الأمر الثالث: القرينة العقلية: في البداية يمكن القول أنه لا يجوز رفع اليد عن الظهور بعد فرض وجوده إلا بدليل. قال الإمام ثابت: ولو ادعى "قيام الدليل العقلي

الهؤامش:

على خلافه -خلاف الظهور-، فلو أمكن التوجيه بما يدفع به الدليل العقلي بأي وجه ممكناً، لا يجوز رفع اليد عن الحجة، ولو كان الدفع بعيداً عن الأذهان، بنحو لا يصح الالتزام به في مقام الإثبات والاستظهار من الأدلة^(١٣٢)، وإن لم يكن دفع الدليل العقلي، صار صارفاً للظهور.
والحمد لله أولاًً وآخرأً.

- (١) وبسبب هذا التعدد في المحتمل، عدّت دلالة الظاهر ظنية، وأمكن رفع اليد عنها للدليل ظني آخر، ثبتت حجيته بدليل قطعي. وأخذت الدلالة ظنية في بعض التعريفات التي ذُكرت الظاهر، كتعريفه بأنه: «ما كانت دلالته ظنية في العرف» (أصول الاستنباط لنقي الحيدري: ١٧٣)، باعتبار أن المعنى الظاهري معنى راجح، والراجح أمرٌ ظئي.
- (٢) العين للخليل: ٤ / ٣٧.
- (٣) العين للخليل: ٤ / ٣٧.
- (٤) الصحاح للمجوهري: ٢ / ٧٣٢.
- (٥) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ١ / ٤٩.
- (٦) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ٥ / ١٩٦.
- (٧) أنوار الهدایة للسيد الخمینی: ١ / ٢٤١.
- (٨) أنوار الهدایة للسيد الخمینی: ١ / ٢٤١.
- (٩) أنوار الهدایة للسيد الخمینی: ١ / ٢٣٩.
- (١٠) أنوار الهدایة للسيد الخمینی: ١ / ٢٤١.
- (١١) النساء: ٥٨.
- (١٢) الاجتہاد والتقلید للخمینی: ٣٩.
- (١٣) الاجتہاد والتقلید للخمینی: ٣٩.
- (١٤) الاجتہاد والتقلید للخمینی: ٤١.
- (١٥) المائدۃ: ٤٤.



- (٤٥) الملائدة: .٤٥
- (٤٦) الملائدة: .٤٧
- (٤٧) الاجتهاد والتقليد للخميني: .٤٠
- (٤٨) الاجتهاد والتقليد للخميني: .٤١
- (٤٩) الاجتهاد والتقليد للخميني: .٤١
- (٥٠) المكاسب المحرمة للخميني: ١ / ٣٣
- (٥١) الأعراف: .١٥٧
- (٥٢) المكاسب المحرمة للخميني: ١ / ٣٤
- (٥٣) الإسراء: .٧٨
- (٥٤) الإسراء: .٧٨
- (٥٥) الخلل في الصلاة للخميني: .٩٠
- (٥٦) الخلل في الصلاة للخميني: .٩٥
- (٥٧) الخلل في الصلاة للخميني: .٩٤
- (٥٨) الخلل في الصلاة للخميني: .٩٤
- (٥٩) الخلل في الصلاة للخميني: .٩٤
- (٦٠) البقرة: .٢٢٢
- (٦١) كتاب الطهارة للسيد الخميني: ١ / ٢٤٧
- (٦٢) تهذيب الأصول تقرير بحث السيد الخميني للسبهانی: ١ / ٤٠
- (٦٣) تهذيب الأصول تقرير بحث السيد الخميني للسبهانی: ١ / ٤١
- (٦٤) كتاب البيع للسيد الخميني: ١ / ٣١
- (٦٥) كتاب البيع للسيد الخميني: ١ / ٦٩
- (٦٦) تهذيب الأصول تقرير بحث السيد الخميني للسبهانی: ١ / ٥٨
- (٦٧) الملائدة: .٦
- (٦٨) وسائل الشيعة للعاملي: ٣ / ٣٦٠ ح ٣٨٦٩
- (٦٩) الملائدة: .٦
- (٧٠) الأحزاب: .٤

(۴۲) الزمر: ۷۵

(۴۳) کتاب الطهارة للسید الخمینی: ۲ / ۱۴۷.

(۴۴) تہذیب الأصول تقریر بحث السید الخمینی للسبحانی: ۱ / ۴۲.

(۴۵) تہذیب الأصول تقریر بحث السید الخمینی للسبحانی: ۱ / ۵۸.

(۴۶) تہذیب الأصول تقریر بحث السید الخمینی للسبحانی: ۲ / ۱۶۶.

(۴۷) تہذیب الأصول تقریر بحث السید الخمینی للسبحانی: ۲ / ۱۶۶.

(۴۸) قال الإمام قیمیش: "إن اللغة قد دونت في زمن العصومين، فإن أول من دونه هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عده الشيخ من أصحاب الصادق علیه السلام، وبعده ابن دريد صاحب الجمهرة الذي هو من أصحاب الجواد علیه السلام وألف ابن السکیت إصلاح المنطق الذي قتلته المتوكل لتشیعه وهذا يكشف عن كون التدوین والرجوع إلى معاجم اللغة كان أمرا دائرا" (تہذیب الأصول تقریر بحث السید الخمینی للسبحانی: ۲ / ۱۶۶).

(۴۹) تہذیب الأصول تقریر بحث السید الخمینی للسبحانی: ۲ / ۱۶۶.

(۵۰) النساء: ۴۳.

(۵۱) المائدۃ: ۶.

(۵۲) المعتر للحلی: ۱ / ۲۷۳.

(۵۳) کتاب الطهارة للسید الخمینی: ۲ / ۱۴۴.

(۵۴) جواهر الأصول تقریر بحث السید الخمینی للنکرودی: ۲ / ۱۲۰.

(۵۵) الکھف: ۴۰.

(۵۶) يعني قول النبي ﷺ: «يحشر الناس يوم القيمة حفاءً عراً على صعيد واحد».

(۵۷) کتاب الطهارة للسید الخمینی: ۲ / ۱۴۶.

(۵۸) کتاب البيع للسید الخمینی: ۳ / ۴۴۲.

(۵۹) کتاب البيع للسید الخمینی: ۳ / ۴۴۲.

(۶۰) المکاسب الحرمۃ للسید الخمینی: ۱ / ۲۱۴.

(۶۱) جواهر الأصول تقریر اللنکرودی لبحث السید الخمینی: ۲ / ۱۴۳.

(۶۲) المکاسب الحرمۃ للسید الخمینی: ۱ / ۷۰.

(۶۳) المائدۃ: ۶.

- (٦٤) كتاب الطهارة للسيد الخميني: ٢ / ١٤٦.
- (٦٥) الحجرات: ١٢.
- (٦٦) المكاسب المحرمة للسيد الخميني: ١ / ٢٦١.
- (٦٧) آل عمران: ٤٥.
- (٦٨) النساء: ١٦٤.
- (٦٩) هود: ٣٧.
- (٧٠) مجمع الأفكار ومطرح الأنظار تقريرات بحث الآملي للشهرضاوي: ٤ / ٢.
- (٧١) آل عمران: ٧.
- (٧٢) القلم: ١.
- (٧٣) مجمع الأفكار ومطرح الأنظار تقريرات بحث الآملي للشهرضاوي: ٥ / ٢.
- (٧٤) تهذيب الأصول تقرير بحث السيد الخميني للسبحاني: ٢ / ١٦٦.
- (٧٥) جواهر الأصول تقرير بحث السيد الخميني للنكرودي: ١ / ٦٨.
- (٧٦) جواهر الأصول تقرير بحث السيد الخميني للنكرودي: ١ / ٥٣.
- (٧٧) النساء: ٧.
- (٧٨) كتاب البيع للسيد الخميني: ٥ / ٣٩٠.
- (٧٩) المائدة: ٣.
- (٨٠) البقرة: ١٧٣.
- (٨١) البقرة: ١٧٢ - ١٧٣.
- (٨٢) المائدة: ٤.
- (٨٣) المائدة: ٥.
- (٨٤) المكاسب المحرمة للخميني: ١ / ٣٥.
- (٨٥) المائدة: ٩٠.
- (٨٦) المكاسب المحرمة للخميني: ١ / ٣٢.
- (٨٧) المكاسب المحرمة للخميني: ١ / ٣٢.
- (٨٨) المائدة: ٩١.
- (٨٩) المكاسب المحرمة للخميني: ١ / ٣٢.

- (۹۰) البقرة: ۲۲۲.
- (۹۱) الكافي للكليني: ۶ / ۴۲۸ ح ۱..
- (۹۲) كتاب الطهارة للسيد الخميني: ۱ / ۲۴۵.
- (۹۳) كتاب الطهارة للسيد الخميني: ۱ / ۲۴۵.
- (۹۴) هود: ۱۱۳.
- (۹۵) هود: ۱۱۳.
- (۹۶) تفسير مجتمع البيان للطبرسي: ۵ / ۳۴۴.
- (۹۷) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ۴ / ۱۱ ح ۴۹۶۸.
- (۹۸) عيون أخبار الرضا علیہ السلام للصدوق: ۲ / ۱۲۹ ح ۱.
- (۹۹) الخصال للصدوق: ۹ ح ۶۰۳.
- (۱۰۰) كتاب البيع للسيد الخميني: ۲ / ۶۰۰.
- (۱۰۱) الأنفال: ۴۱.
- (۱۰۲) كتاب البيع للسيد الخميني: ۲ / ۶۵۹.
- (۱۰۳) النساء: ۷.
- (۱۰۴) كتاب البيع للسيد الخميني: ۵ / ۳۷۶.
- (۱۰۵) كتاب البيع للسيد الخميني: ۵ / ۳۷۶.
- (۱۰۶) كتاب البيع للخميني: ۵ / ۴۲.
- (۱۰۷) المائدة: ۱.
- (۱۰۸) المائدة: ۱.
- (۱۰۹) المائدة: ۱.
- (۱۱۰) تفسير القمي للقمي: ۱ / ۱۶۰.
- (۱۱۱) وهي رواية عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله علیہ السلام في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُهُودِ﴾ قال: «بالعقود» (تفسير القمي للقمي: ۱ / ۱۶۰).
- (۱۱۲) كتاب البيع للسيد الخميني: ۴ / ۲۸.
- (۱۱۳) هداية المسترشدین لحمد تقی: ۳ / ۱۹۲.
- (۱۱۴) هداية المسترشدین لحمد تقی: ۳ / ۱۹۲.

- .٥) طه: (١١٥)
- .٥) طه: (١١٦)
- .٣٨٢ / ٢) كتاب البيع للسيد الخميني: (١١٧)
- .١٢٨) البقرة: (١١٨)
- .١٩٧ / ١) كتاب البيع للسيد الخميني: (١١٩)
- .٨ / ٢) الرسائل للسيد الخميني: (١٢٠)
- .١٤ / ٢) أنوار الهدایة للسيد الخميني: (١٢١)
- .٣٧٠ / ١) أنوار الهدایة للسيد الخميني: (١٢٢)
- .١٢٨) البقرة: (١٢٣)
- .١٩٧ / ١) كتاب البيع للسيد الخميني: (١٢٤)
- .٨ / ٢) الرسائل للسيد الخميني: (١٢٥)
- .٣٧٠ / ١) أنوار الهدایة للسيد الخميني: (١٢٦)
- .٢٠٧) مستطرفات السرائر لابن إدريس: (١٢٧)
- .١٨) الحج: (١٢٨)
- .٤ ح ٢٨٠ / ٥) الكافي للكليني: (١٢٩)
- .١٨٥) البقرة: (١٣٠)
- .٢٣٦ / ١) الرسائل للسيد الخميني: (١٣١)
- .٣٨٢ / ٢) كتاب البيع للسيد الخميني: (١٣٢)



الإمام الخميني القائد الفقيه

أشيخ عزيز حسن الخنزان

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على محمد وآل محمد.
ربما ينصرف إلى أذهان الكثير من الناس الجانبُ الثوري والجهادي
والشجاعة عند سماع اسم الإمام الخميني تثثُّ، وهذا أمر طبيعي؛ حيث
إنّ الناس تلتفت أكثر إلى الجوانب الأكثُر ظهوراً في الشخصيات،
والسيد الإمام تيّرَّ في هذا العصر بهذه الثورة التي لم يكن لها مثيل في
تارِيخِ العلماء، وحتى الأعداء عندما يسمعون اسم الإمام فإنه ينصرف
إلى أذهانهم ثورته المباركة، فالثورة الإسلامية مرتبطة -إلى الأبد-
باسمِه المبارك.

وهناك مميزات أخرى جمعها الإمام الراحل كالعرفان والزهد
والعبادة وقيام الليل، وهي أيضاً مما تأتي في الأذهان عند سماع اسمه

المبارك.

ولكنْ هناك جانباً آخر لا يقل أهمية -إن لم نقل أنه الأساس في شخصية الإمام- عن الجوانب الأخرى ربياً أُغفل ولم يرَكز عليه بالقدر الكافي، ألا وهو الجانب العلمي والمحوزوي في شخصيته المقدسة.

ونستطيع أن نقول بأنّ انتصار الثورة الإسلامية على يد السيد الإمام، واستمرارها، وتحقيق أهدافها، لم يكن ليتحقق أصلاً -أو لا أقلّ لم يتحقق بالصورة المطلوبة الكاملة- لو لا كونه (رضوان الله عليه) عالماً فقيهاً متبحراً في علوم أهل البيت عليهم السلام.

والهدف من هذه المقالة المختصرة تسليط الضوء على ارتباط الجانب العلمي والفقهي بالجانب القيادي في شخصية الإمام عليه السلام.

محورية العالم في الروايات الشريفة

عند الرجوع إلى النصوص الشريفة نرى التركيز الكبير على مسألة العلم والعلماء، وأنها تعطيهم منصبًا عظيمًا جداً هو استمرار لمنصب الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فإليك بعض هذه النصوص:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ شيئاً منها فقد أخذ حظاً وافراً؛ فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه، فإنّ فيما أهل البيت في كلّ خلف عدو لا ينفعون عنه تحريف الغالين واتصال المبطلين وتأويل الجاهلين»^(١).

٢- عن ابن نباتة قال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، وسلاح على الأعداء، وزين الأخلاء، يرفع الله به أقواماً يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم»^(٢).

٣- وعن رسول الله ﷺ: «لَا خَيْرٌ فِي الْعِيشِ إِلَّا لِرَجُلَيْنِ: عَالِمٌ مُطَاعٌ، أَوْ مُسْتَمْعٌ وَاعٌ»، وَعَنْهُ ﷺ فِي لَفْظٍ آخَرَ: «لَا خَيْرٌ فِي الْعِيشِ إِلَّا لِمُسْتَمْعٌ وَاعٌ أَوْ عَالِمٌ نَاطِقٌ»^(٣).

٤- وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْعَالَمُ بَيْنَ الْجَهَنَّمِ كَالْحَيِّ بَيْنَ الْأَمْوَاتِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى حِيتَانَ الْبَحْرِ وَهَوَامِهِ، وَسَبَاعَ الْبَرِّ وَأَنْعَامِهِ، فَاطْلُبُوا الْعِلْمَ فَإِنَّهُ السَّبَبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ بَيْنَكُمْ، وَإِنَّ طَلْبَ الْعِلْمِ فِرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(٤).

٥- وعن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أنّه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا خَيْرٌ فِي دِينِ لَا تَفَقَّهُ فِيهِ، وَلَا خَيْرٌ فِي دِنْيَا لَا تَدْبِرُ فِيهَا، وَلَا خَيْرٌ فِي نَسْكٍ لَا وَرْعٌ فِيهِ»^(٥).

٦- وفي تحف العقول: عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه - في خطبة له عن العلم - قال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ صَحَّةَ الْعَالَمِ وَاتِّبَاعُهُ دِينٌ يَدَانِ اللَّهُ بِهِ، وَطَاعَتْهُ مَكْسَبَةُ الْحَسَنَاتِ مُحَاجَةً لِلْسَّيِّئَاتِ، وَذَخِيرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَفْعَةً فِي حَيَاتِهِمْ، وَجَمِيلَ الْأَحْدَوْثَةِ عَنْهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ»^(٦).

فلنتأمل في هذه النصوص وغيرها، وما فيها من بيان لمقام العالم، والنزلة التي أعطيت له، والمسؤولية التي ألقاها على عاتقه وهي مسؤولية الأنبياء عليهما السلام، فالروايات اعتبرت العالم، (وارث الأنبياء)، وبعلمه يجعله الله تعالى (إماماً يقتدي به في الخير)، وأن العالم (الحاصل بين الأمم)، وأن اتباعه وصحابته (دين يدان الله به).

الإمام الراحل قده وطلب العلم

وما كان إمام الأمة ليغفل عن هذا الشرف العظيم، والمقام الكبير، الذي لا يمكنه أن يؤدي دور الأنبياء إلا من خلاله، ألا وهو طلب العلم، والتتفقه في دين الله تعالى، ولذلك بدأ السيد الإمام حياته العلمية منذ صغره، ولم يرض بالدرجة الدنيا من العلم التي يحصل عليها غالبية طلاب الموزة بل نال درجة الاجتهاد

وهو في سن الشباب، ووصل إلى مقام المرجعية الكبرى، وإن تأخر في طرح مرجعيته للناس كعادة كثير من الفقهاء لدعم المراجعات السابقة عليها.

الاشغال بالعلم على طول المسيرة

يتصور كثيرون أنّ الفقيه والمرجع يدرس فترة من الزمن وإذا ما وصل إلى درجة الاجتهد تخلى عن طلب العلم والمطالعة ولم يحتاج إليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الطبيب والمهندس وغيرهما من أصحاب العلوم، ولكن هذا التصور خاطئ جداً، فإذا كان الطبيب مثلاً حتى يحافظ على مهنته يحتاج إلى الممارسة الطبيعية فإنّ الفقيه حتى يحافظ على فقاذه واجتهاده يحتاج إلى ممارسة الاستنباط، وهذا لا يكون إلا بالاستمرار في الدرس والتدريس والمطالعة أو الكتابة وما شابه ذلك من الاشتغال بالعلم.

والعلماء يقضون كل عمرهم في ذلك من دون مبالغة، وأهل الخبرة أدرى بذلك الأمر، وعندما نأتي إلى السيد الإمام قطب نرى حياته لا تخلي من ذلك وفي أحلك الظروف التي مر بها الإمام ولد ذلك شواهد سريعة:

١- الشيخ المقدسي يقول: "كان الإمام يقضي أيام فصول الصيف في مدينة محلات، وينهمك في جميع أوقاته بالبحث والمطالعة والتحقيق والتأليف، وقليلًا ما كان يوافق على استقبال أحد، وقد عرفا بعد الثورة أنه كان منشغلًا في تلك الأيام بالدراسة والتحقيق لكتاب وسيلة النجاة للمرحوم السيد أبو الحسن الإصفهاني، دون أن يخبر أحداً إلى ذلك الزمان بذلك، وبأيّه يكتب حاشية على هذا الكتاب".^(٧)

٢- يُنقل عن الشيخ المنظري قوله: "في خضم تصاعد أوار الجهاد ونشاطات النهضة، وعندما كان الأهالي يأتون إلى الإمام في منزله في قم لزيارته ومراجعته بشأن النشاطات الجهادية، في أحد تلك الأيام زرته لأمر ما فوجده مشغولاً بكتابة الدروس التي كان يلقيها فقلت: هل أنتم تشاغلون يا سيدي بكتابة الدروس في خضم

هذه الأوضاع؟ فأجابني: لا ينفي السماح للنشاطات الجهادية أن تضرّ بعملنا الأصلي -نحن طلبة العلم- وهو الدرس والبحث والنشاط العلمي^(٨).

٣- نقل عن السيد أحمد ابن الإمام في حادثة استشهاد السيد مصطفى الحسيني رحمه الله أن الإمام قال: "لقد وهبنا الله نعمة وقد استرجعوا الآن"، ويقول السيد أحمد: كان الإمام في تلك الأيام منشغلًا بمطالعة أحد الكتب التدريسية، فقلت في نفسي: إن هذه المصيبة التي نزلت بنا اليوم ستذهب الإمام عن المطالعة، إذ إنّه فقد مثل هذا الابن العزيز، ولن يتمكن من المطالعة، لكنّي رأيته وقد وضع ذلك الكتاب أمامه! فقلت لعله يتشغل به دون أن يقرأ منه شيئاً، لكنني بعد أن دققت في الأمر لاحظت محل العلامة الموضوعة في داخل الكتاب وجدت أنه قد قرأ في ذلك اليوم ثلاثة صفحات من هذا الكتاب^(٩).

وقد جمع السيد الإمام بين علوم كثيرة وكان متوفقاً فيها، وبالإضافة إلى الفقه والأصول كان قدّم مجتهداً في الفلسفة وفي العرفان النظري فضلاً عن العرفان العملي الذي تميّزت به شخصيته المباركة، وقد ألف في ذلك مجموعة من الكتب وأكثرها كتبها في سنّ الشباب، فألف في الفلسفة والعرفان والأخلاق، وفي الفقه والأصول بالإضافة إلى ما قرر له من دروس.

تقوية الحوزة العلمية

ومن المعروف عن السيد الإمام اهتمامه الشديد بتقوية الحوزة العلمية في قم المقدسة بعد رحيل مؤسسها الشيخ الحائر، فعمل جاداً على حتى السيد البروجري على الجيء إلى حوزة قم لكونه من أكبر العلماء في زمانه ليوحد الحوزة ويقويها، ومن ناحية عملية حضر السيد الإمام دروس السيد البروجري رغم كون الإمام مجتهداً كبيراً في وقته، وكان الهدف من ذلك تقوية مرجعية السيد البروجري، وعندما تحقق هذا الهدف ترك حضور دروسه.

وكان قد يعتقد أن الحوزة العلمية هي أساس الإسلام في عصرنا فبدونها يضيع الإسلام وينمحى، وأن العلماء يقومون بدور الأنبياء عليهما السلام كما تقدم في الرويات الشريفة، يقول قد يرى في هذا الشأن: "لا يوجد شك أن الحوزات العلمية والعلماء الملزمنين كانوا على طول التاريخ الإسلامي الشيعي أهم قاعدة قوية للإسلام في الوقوف أمام الهجمات والانحرافات، وبذل علماء الإسلام جهدهم طوال حياتهم للترويج لمسائل الحلال والحرام الإلهية دون أي تدخل أو تصرف. ولولا الفقهاء الأعزاء لما كنا ندرى ما هي العلوم التي كانت تقدم اليوم لعامة الناس تحت عنوان علوم القرآن والإسلام وأهل البيت عليهما السلام" (١٠).

ويشير بذلك إلى استقلال الحوزة العلمية الشيعية عن السلطات والأنظمة ما ضمن ظهارة هذه الحوزات ونظافة منهجها وعطائها، رغم تعرض العلماء والفقهاء طول التاريخ إلى المضايقات والتهديدات، بل والتشريد والسجن والقتل، وهناك علماء وفقهاء كثروا نالوا مقام الشهادة في سبيل الحفاظ على خط الحوزة العلمية. وحتى بعد انتصار الثورة الإسلامية المباركة على يده (رضوان الله عليه) أصر على أن تبقى الحوزة المباركة على استقلالها، مما يدل على بعد نظره قد يرى بشأن الحوزة العلمية وأهمية استقلالها.

وينقل آية الله كاشاني قوله لأمام يدل على تأكيده على محورية العلماء فيقول: "قال الإمام في إحدى لقاءاتنا معه: اعلموا أن شعبنا من أفضل الشعوب، علينا إصلاح أنفسنا فإن لم نصلحها ننتهي، وسيأتي من هو أفضل منا. الحالة العلمائية لن تزول وإذا زالت فإن كل من عداهم زائل".

إخلاصه واتباعه لغيره من المراجع قبل مرجعيته

وما يرتبط بنظرية الإمام قد يرى تجاه الحوزة هو توافرها للفقهاء والمراجع وتعظيمهم، سواء المتقدمين عليه في السن أم المناظرين له، فقد عرف عنه مثلاً

منعه البت والتام عدم السماح لأحد بذكر أحد من الفقهاء بسوء حتى لو كان يختلف معه في بعض الأمور ووجهات النظر، ونقل عنه أنه سمع مرة أن أحدهم اغتاب أحد المراجع فمرض بسبب ذلك ثلاثة أيام.

وله مواقف عديدة يرکز فيها على أهمية أن يكون للجامعة قائد يرجع إليه، فكان يرجع الناس إلى السيد البروجردي حتى لو كان يخالفه في الرأي، وذلك حفاظاً على المرجعية وقوتها.

ومما يرتبط بهذه المسألة قوله مخاطباً السيد الحكيم: "أنا أحد أتباعك ومن المطيعين لأوامرك، مرنا نطيعك، أصدر أوامرك ونحن تنفذها، فكيف تتصورون أن ليس ثمة من يطيعك في حين أنني أنا أحد مطيعيك".

وفي مورد آخر عندما أراد الرئيس العراقي آنذاك عبد السلام عارف زيارة النجف واللقاء بالراجع دون دعوة السيد الحكيم بهدف إضعافه، وقدّمت دعوة للسيد الإمام عبر أحد الوسطاء فرد عليهم الإمام وقال ضمن كلامه: "إن السيد الحكيم هو رئيس الجامعة العلمية في النجف، وأنا هنا طالب حوزوي لا أكثر، فالقرار بشأن مثل هذه الأمور هو من شأن السيد الحكيم"^(١). هذا والسيد الإمام في وقته كان من الطبقة الأولى من مراجع التقليد.

أسس قيام الجمهورية الإسلامية

كان مشروع السيد الإمام قائمٌ هو نفسه مشروع الأنبياء، وهو إقامة حكم الله في الأرض، وقد بذل كلَّ ما في وسعه من أجل تحقيق هذا الهدف المقدس، وقد ذكر الشيخ الجوادى الأملـى أنَّ رسالـة النبي ﷺ لها ثلاثة واجبات، مستندًا فيها إلى آيات القرآن الكريم، وهي تلاوة الوحي الإلهي، وتزكية القلوب، وتعليم الناس الكتاب والحكمة، وعندما تحدثُ هذه الوظائف الثلاثة في فعلها، يحدث تغيير اجتماعي، وفي غير هذه الحالة فلا... فالتحولات الاجتماعية مرهونة بتحقق

هذه الأركان الثلاثة^(١٢).

وهذا يعني أنَّ القائد قبل القيام بالثورة الاصطلاحية يجب أن يهيء الناس لذلك الأمر؛ وفي الحقيقة إنَّ تأسيس الحكومة الإسلامية مجرد وسيلة وطريق لحفظ الهدف الإلهي، لا أنها غاية تقف عندها الأهداف المقدسة.

وكانت أول خطوة للسيد الإمام للقيام بذلك -كما تقدم- هو اخراطه في الموزة العلمية المباركة منذ صغر سنه، ولبيان ارتباط هذا المشروع الإلهي العظيم بالعلم والفقاهة، لا بدَّ من التعرُّض إلى أسس هذا المشروع بشكل إجمالي:

الأساس الأول: إسلامية المشروع

والمقصود بذلك أنَّ إقامة العدل والقسط وحكم الله في الأرض لا بدَّ من أن يرتكز على الدين وأحكام الإسلام، وإلا لو كان المركز غير ذلك فإِنَّه لن يكون مشروعًا إسلاميًّا كما هو واضح.

الأساس الثاني: وجود قيادة مدركة لتفاصيل هذا المشروع، وعارفة لإمكان تحقيقه من عدمه، ومؤمنة بأهمية تحقيقه على أرض الواقع، وتملِك الحكمة الكبيرة في كيفية تطبيقه.

الأساس الثالث: وجود قاعدة جماهيرية مؤمنة بهذا المشروع الإلهي، ومستعدة لبذل دمائها من أجل تحقيقه.

الأساس الرابع: دعوة القيادة للقاعدة الجماهيرية للمساندة في تطبيق هذا المشروع عبر بيان الخطوات العملية الازمة والحقيقة لأهدافه الإلهية.

بعد ذكر هذه الأسس نقول:

لا يمكن تحقيق هذا المشروع الإلهي إلا من خلال توفر هذه الأسس المذكورة، والأساس الأول والثاني يقتضي معرفة تامة بالأحكام الفقهية الناشئة عن اجتهاد، ولا يقتصر في هذه المعرفة على جانب معين من أبواب الفقه، بل من

اللازم معرفة محمل الأبواب الفقهية، لأنَّ أيَّ باب يحتمل أنَّ له دخالة في تحقيق أهداف المشروع لا بدَّ من معرفته.

وقد يتصور البعض بأنَّ الاجتهداد في باب الولاية والقضاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلاً كافٍ في تحقيق ذلك الهدف الكبير، ولكنه تصورٌ خاطئ؛ لأنَّنا نتكلّم -حسب الفرض- عن مشروع الأنبياء والأئمة عليهما السلام، وهو المشروع الذي يراد منه تحقيق الهدف الذي من أجله خلق الإنسان، وهو العبادة وتوحيد الله تعالى، وبالتالي لا بدَّ من أنْ تكون كلُّ جوانب المشروع واضحةً لدى من يريد تطبيقه.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ المقام يحتاج إلى التعمق في الجانب العقائدي والأخلاقي، ولكن كلامنا فعلاً يرتبط بالجانب الفقهي.

فنعود ونقول بأنَّه يحتاج المنفذ لهذا المشروع أموراً عديدة لتحقيق غرضه أهمها:

أولاً: الاجتهداد في كلِّ باب له مدخلية في تحقيق هذا المشروع.

ثانياً: معرفة الهدف الكبير للمشروع بدقة، ومعرفة الأولويات وتشخيصها تشخيصاً دقيقاً.

ثالثاً: معرفة ما يمكن أن يتنازل عنه شرعاً عند تزاحم الأولويات مما لا يمكن أن يتنازل عنه.

رابعاً: معرفة المحلول الناجعة والمقبولة شرعاً عند مواجهة التحديات التي لا بدَّ منها.

وببناء على ما تقدم يمكن الاستدلال على ضرورة أن يكون ذلك القائد فقيهاً مجتهداً.

السيد الإمام ومشروعه الإلهي

وكان السيد الإمام قد يدرك جيداً الأسس المقدمة، ويدرك ضرورة وجود هذه الشروط التي من أهمها الاجتهاد والفقاهة، وعليه يكن القول بأنَّ سعيه قد ينطوي على طلب العلم والوصول إلى درجة الاجتهاد كان لأداء التكليف الإلهي الذي ينتظره، ولتطبيق هذا المشروع العظيم.

ومما يدلُّ على ذلك، إصرار الإمام على أن يكون شكل النظام إسلامياً بحثاً، (الجمهورية الإسلامية) من دون إضافات، وقد نظر قدسُه لهذا المشروع عندما كان في النجف الأشرف، وألقى دروساً وطبع في كتاب تحت عنوان (الحكومة الإسلامية).

وكان من أهمّ أسس النظام الإسلامي في الجمهورية الإسلامية هو ولاية الفقيه، فالفقيه هو الحاكم الفعلي والشرعى للبلاد، وكلّ شيء من دون إذنه وإمضائه لا قيمة له شرعاً، وهذا الأساس دليل على أنَّ المشروع الإلهي لا يتحقق بالشكل المطلوب إلا من خلال العالم الفقيه.

حكومة غير الفقيه

ولو كانت الدولة الإسلامية معتمدة على غير الفقيه، بمعنى أنَّ كلمة الفصل عند الاختلاف، وعند رسم السياسة العامة للدولة عند غير الفقيه، تترتب على ذلك محذورات كثيرة منها:

المذور الأول: لا يؤمن من الواقع في المذور الشرعي؛ حيث يفترض أنَّ الشخص غير مجتهد، ونعني بغير المجتهد عدم وجود علم لهذا الشخص برأي الشارع المقدس، فقوله وفعله غير حجة شرعية.

المذور الثاني: عدم ثقة الناس بقوله ما دام غير حجَّة شرعية مما يهدّد الاستقرار، ويلزم منه الفوضى؛ لأننا نتكلّم عن حكومة إسلامية يفترض فيها أنَّ

القاعدة الجماهيرية فيها مؤمنة بالشرع فقط، ولا تؤمن بما يخالف الشرع. وأمّا رأي الفقيه وتشخيصه وإن كان يحتمل الخطأ أيضاً، إلا أنَّ قوله حجة شرعية، وهو أقرب إلى الواقع، والناس المتدينة بطبعتها تنقاد لقول الفقيه، لكونه مضى شرعاً، فلا يلزم مذور الفوضى، ولذلك نرى في جميع الحكومات الأرضية، لا تستقر أبداً، وأمّا الحكومة الإلهية فإنها وإن كانت تواجه بعض المشاكل ولكن أغلبها من الخارج، أو بتحريض منه. والبحث طويل في هذه النقطة وليس هنا مجال التعرض له.

ونستطيع أن ندعى بأنَّ أقدر الناس على جمع الناس وحفظ المجتمع من الفوضى هو الحاكم الفقيه إذا توفرت فيه بقية الشروط من الحكمة والشجاعة وغيرها، وفي الجمهورية الإسلامية خير شاهد على ذلك.

المذور الثالث: بما أنَّ فعل غير الفقيه أبعد عن الشرع من فعل الفقيه، وهذا يعني كثرة وقوعه في الخطأ، وبالتالي يحسب ما يصدر منه على الإسلام حيث الكلام عن الحكومة الإسلامية، مما يؤدي إلى تشويه سمعة الإسلام ونسبة ما ليس منه إليه، وهذا ما نجده في زماننا من يلصقون أنفسهم بالإسلام ويدعون أنَّهم يريدون تطبيق الحكومة الإسلامية، مما أدى إلى تشويه الإسلام عند كثير من الشعوب غير المسلمة، بل حتى عند المسلمين أنفسهم، ونحن نرى كثيراً من الشباب المسلم يقف ضدَّ الإسلاميين، وسرت مواقفهم من حرب على المسلمين إلى حرب على الإسلام، لأنَّهم ربطوا بين ما يصدر من أولئك المدعين للإسلام وبين الإسلام نفسه، وقد أشار السيد الإمام تبشير إلى هذا الأمر في بعض كلماته.

وهذا الأمر ربما حصل أيضاً في الدولة الصفوية التي حكمت باسم التشيع وشوّهت التشيع الحقيقي؛ لأنَّ الحاكم لم يكن فقيهاً عالماً، نعم حاول بعض الفقهاء كالحقن الكركي تصحيح بعض الانحرافات، إلا أنَّ النظرة السلبية التي كانت حول

الدولة الصفوية سرت إلى التشيع، ولا زال كثيرون من الناس بقصد وبدون قصد، يحاولون ربط أي حكومة إسلامية تحكم باسم التشيع بالحكومة الصفوية، حتى لو كان منهاجها مختلف تماماً عن دولة الصفوين، مع العلم بأنَّ أغلب الفقهاء لم يتعاونوا ولم يعترفوا بالدولة الصفوية، ومن دخل في سلك الدولة كان يريد من ذلك تخفيف السلبيات التي كانت تحصل فيها، ومحاولة تقويتها.

ومن غير الإنفاق ما نجده من البعض الذين يسبّهون ثورة السيد الإمام ودولته المظفرة بالدولة الصفوية، ويتجاوزون متعمدين عن أنَّ الإمام الراحل قدّس الله عنه ثار على حاكم شيعي وهو الشاه المقتول، وكان يعتبر وجود الشاه ونظامه تهديداً حقيقياً للإسلام.

ولو كان يصح أن ننسب جميع أتباع المذهب الإمامي للدولة الصفوية بسبب حكمها باسم التشيع، فيلزم منه صحة نسبة أتباع المذهب الشيعي إلى الدول التي حكمت باسم التسنن، كالدولة الأموية والدولة العباسية والدولة العثمانية، وهو خلاف الإنفاق.

إشكالات وردود:

قد تطرح عدّة إشكالات على ما تقدم ذكر بعضها:

الإشكال الأول: إنَّ أغلب الأنبياء عليهما السلام لم يؤسسوا في زمانهم حكومات إسلامية، ألا يدل ذلك على أنَّ إقامة الحكومة الإسلامية الذي هو مشروع السيد الإمام قدّس الله عنه لم يكن -على الأقل- ضروريَاً؟

الجواب: إن تأسيس حكومة يحكمها النبي أو الوصي ليست غاية تقف عندها الغايات، وإنما هي وسيلة لإقامة حكم الله في الأرض وتوحيده، وما دام إقامة حكم الله في الأرض هدفاً رئيساً للمشروع الإلهي، فحيث لا يمكن لغير المعصوم والفقير تحقيق ذلك الهدف، فلا بد من أن يكون المعصوم أو الفقيه هو الحاكم،

وهذا يعني ضرورة وجود مثل هذه الحكومات التي يحكمها النبي أو الوصي أو الفقيه.

وأما عدم تحقق هذا الأمر على يد أغلب الأنبياء عليهما السلام فإنه لا يدل على عدم ضرورته وأهميته، وإنما الشروط لم تتوفر لهم، ومن أهمها أنَّ أغلب الناس في زمانهم ليسوا مؤمنين بالله تعالى. ولا شك في أنَّ من أقسام التوحيد هو التوحيد في المحاكمة، فالحاكم الله، وهو وحده سبحانه يختار من يصلح لهذا المنصب الخطير. وعدم تحقق الحكومة الإلهية لا يعني توقف مشروع الأنبياء عليهما السلام، لأنَّه -كما قلنا- مجرد وسيلة، فإذا عدلت هذه الوسيلة يبقى التكليف باستخدام الوسائل المتاحة، وهذا نقل عن السيد الإمام (رضوان الله تعالى عليه) أنه كان يقول بأنه إنما يقوم بالتوكيل، سواء حصل انتصار مادي وأقيمت الدولة الإسلامية أم لا، وهذا هو الحال عند غيره من الفقهاء، فإنهم مستمرون في تحقيق المشروع الإلهي بكل الوسائل المتاحة والمشروعة.

وما نراه من ويلات على الإسلام إنما هو بسبب إبعاد الأئمة عليهما السلام عن هذا المنصب، وبعدهم الفقهاء العدول.

الإشكال الثاني: إذا كان المشروع الإلهي لا يتحقق إلا بقيادة الفقيه، فيلزم منه توقف هذا المشروع في البلدان التي لا يوجد فيها فقيه، وهو خلاف المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين؟

الجواب: باختصار نقول، بأنَّ الضرورة تقدر بقدره، ونعني بذلك: أنَّ القيادة الكبرى هي للأنبياء والأئمة عليهما السلام، فمع وجودهم لا يكون وزن لقول غيرهم، ومع عدم وجودهم يتنزل إلى الفقهاء، والفقهاء يأخذون القرارات على ضوء ما وصلهم من المعصومين عليهما السلام، ولا يجوز لهم التصدي لأي أمر إلا إذا كان مأذوناً فيه شرعاً، وهذا هو مورد الخلاف في سعة ولادة الفقيه بين الفقهاء.

ولو فرض عدم وجود الفقيه، فيتنزل الأمر إلى بقية المؤمنين، لكن على ضوء ما وصلهم من الفقهاء، ولا يجوز لهم التعدى عن ذلك، ولكن في الواقع الفقهاء موجودون في كل زمان، ولو فقد الفقيه في بلدٍ فهذا لا يعني استقلال غير الفقيه بالتصريح، بل يجب عليه الرجوع إلى الفقيه الموجود في بلد آخر في تحديد تكليفه الشرعي.

الإشكال الثالث: بما أثنا فعلاً نتكلّم عن مشروع فيه جانب سياسي واجتماعي فيما يتعلق ويرتبط بأمر الحكومة ومواجهة مشاكلها التي لا تنتهي، فحينئذ نقول الأقدر على إدارة ذلك هو من يتلّك الخبرة والحنكة السياسية كما هو واضح، وأما الفقيه فإنه خبير في المسائل الفقهية النظرية البحتة، ولا قدرة له على إدارة دولة.

وهذا الإشكال من الإشكالات المتكررة، وتصدر من الكثير بقصد سيء، يهدف إلى فصل الدين عن السياسة، وإلى عدم الالتزام بالأحكام الشرعية، ولكن نقول في الجواب باختصار:

إنَّ اشتراط الفقاہة في القيادة اتضحت أهميته ممَّا تقدم؛ وأنَّ تطبيق المشروع الإلهي الذي هو محلُّ الكلام لا يمكن إلا من خلال من يعرف تفاصيل ذلك المشروع وليس هو إلا الفقيه.

فنقول هنا: شرط الفقاہة ليس هو الشرط الوحيد في القيادة، بل هو أحد أهمِّ الشروط، فيشترط فيه الحکمة والخبرة والشجاعة والعدالة وغيرها، وحينئذ يكون الفقيه لديه ما لدى غيره -على فرض كون الغير حكيمًا وخبريراً ومحنكاً- وزيادة، بل حقَّ الصفات المشتركة بين الفقيه وغيرها يكون فيها الفقيه متوفقاً، فإنَّ الحکمة مثلاً مع الفقاہة والعلم بأهداف المشروع بلا شك أشدُّ من الحکمة الحالية عن الفقاہة والعلم، وكذلك الخبرة والشجاعة والعدالة.

ودعوى أنَّ الفقيه لا قدرة له على إدارة دولة فيرده:

أولاً: هل يشترط أن يكون من يدير دولة خالياً من العلم، بحيث يكون العلم والفقاہة مانعاً من ذلك!! أليس من الجهل أن نعتقد بأنَّ الخبر السیاسي وصاحب الحکمة والخبرة قادرٌ على إدارة الدولة فإذا ما صار فقیهاً منعه ذلك من إدارتها!! إنه استخفاف بالعقل.

ثانياً: نكرر ونقول بأننا نتكلم عن مشروع إسلامي، وليس عن مجرد قيام دولة بأيِّ شكل كانت، فكيف يصح القول بأنَّ غير الفقيه قادر على إدارة مشروع إسلامي بينما الفقيه عاجز عن ذلك.

ثالثاً: أثبتت التجارب عبر التاريخ أنَّ غير الفقيه عاجز عن إدارة الدولة، بمعنى أنَّ الأهداف الإسلامية المرجوة من قيام الدولة لا تتحقق، ودائماً تنحرف، هذا إذا افترضنا أنها قامت من الأول على أساس صحيحة.

بينما لدينا في التاريخ -وهذا ما يتتجاهله الكثير عمداً أو غفلة- تجارب الأنبياء والأئمة عليهما السلام، فلدينا حکومة النبي سليمان عليه السلام، وحكومة نبينا محمد عليه وآله وسليمان السلام حيث أوجد تغييراً في كل المقايس وحول حياة الناس من جحيم إلى جنة لو حافظوا على ما أسسه عليه وآله وآله.

ولدينا حکومة الأمير علي عليه السلام حيث لا يستطيع منصف إلا أن يُكْبرها ويعظمها، حيث تحققت العدالة الكاملة.

ومن تجارب الفقهاء في عصرنا الحاضر التجربة الفريدة والنادرة لحكومة الولي الفقيه التي أسسها إمامنا الراحل (رضوان الله عليه)، ولا زالت مستمرة تحت قيادة آية الله العظمى الإمام السيد علي الخامنئي عليه السلام، والتي أثبتت طوال هذه المدة أنَّ الفقيه أقدر من غيره على الحفاظ على مبادئ الدين والإسلام رغم التحديات الكبيرة التي نشهدها جمِيعاً، بحيث لو كان الأمر بيد غير الفقيه لضاعت الجهود

والدماء، وضاعت أهداف الإسلام الكبرى.

النتيجة والخلاصة

أنَّ السيد الإمام قُتِلَّ بدأ حياته العلمية الموزوية ليحققُ من خلاله المشروع الإلهي الكبير، وكان يدركُ أنَّه بغير طريق العلم والفقاهة لا يمكن تحقيق ذلك بالصورة المطلوبة، وقد وصلَ قُتْلُه لأعلى المراتب الموزوية العلمية في سنٍ مبكرة من عمره الشرييف.

ثمَّ سعى قُتْلُه ووظَّف كلَّ ما أعطاه الله تعالى من مميزات وموهاب لتحقيق ذلك المشروع ووَفَقَ لذلك أَيْمًا توفيق، وأثبتت للعالم أجمع بأنَّ الفقيه العالم ليس فقط قادرًا على تحقيق المعجزات بل هو أقدر على ذلك من أيٌّ شخص آخر.

ونختِم الكلام بهذه الأحاديث عن موت الفقيه من كتاب الكافي الشريف:

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَام قال: «إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلماً لا يسلها شيء»^(١٣).

وعن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر عَلَيْهِ الْكَلَام يقول: «إذا مات المؤمن بكت عليه الملائكة وبقاع الأرض التي كان يعبد الله عليها، وأبواب السماء التي كان يصعد فيها بأعماله، وثلم في الإسلام ثلماً لا يسلها شيء؛ لأنَّ المؤمنين الفقهاء حصون الإسلام كحسن سور المدينة لها»^(١٤).

وعن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَام قال: «ما من أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس من موت فقيه»^(١٥).

سلام على روح الله الخميني يوم ولد ويوم رحل إلى ربّه ويوم يبعث حيًّا، وحفظ الله خليفته القائد الإمام الخامنئي، وأطال في عمره، ومتّع المسلمين ببركات أنفاسه الشريفة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

- (١) بصائر الدرجات، للصفار، ص ٣٠-٣١.
- (٢) البحار، ج ١، ص ١٦٦.
- (٣) نفس المصدر، ص ١٦٨.
- (٤) نفس المصدر، ص ١٧٢.
- (٥) نفس المصدر، ص ١٧٤.
- (٦) نفس المصدر، ص ١٧٥.
- (٧) قبسات من سيرة الإمام الخميني - في ميدان التعليم الحوزوي والمرجعية، ص ٩٨.
- (٨) نفس المصدر، ص ٩٦.
- (٩) قبسات من حياة الإمام الخميني - الحياة الشخصية، ص ١٦.
- (١٠) منهجية الثورة الإسلامية، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قائم ص ٢٩٦.
- (١١) قبسات من سيرة الإمام الخميني - في ميدان التعليم الحوزوي والمرجعية، ص ٧٧-٧٩.
- (١٢) الإمام الخميني ثورة العشق الإلهي، ص ٢٣٧-٢٣٨.
- (١٣) الكافي ج ١ ص ٣٨.
- (١٤) نفس المصدر.
- (١٥) الكافي، ج ١، ص ٣٨.



التوحيد وأثره على الموقف السياسي

في فكر الإمام الخميني (رضوان الله تعالى عليه)

السيد مرتضى السيد مجید السندي

لقد جسد الإمام الخميني العظيم الإنسان الذي يريده الله تعالى وجوهه
وجسد الخليفة الإلهية لله في الأرض من خلال بناء إنسان متكامل
الأبعاد في شخصيته الإسلامية، فهو لم يبن جهة ويفعل عن جهة في
بناء لشخصيته الإسلامية المتكاملة، وهذه من الصفات التي تميز بها
الإمام رضوان الله تعالى عليه.

فقد تجد فقيهاً من الطراز الأول ولكنك لا تجده في ميدان العرفان
والأخلاق، أو الفلسفة وعلم الكلام، أو تجده فقيهاً عارفاً إلا أنك تفتقده
في ميدان السياسة والمجتمع، وهكذا دواليك.

الإمام الخميني العظيم قد كان البارع في الفقه والسياسة والأخلاق

والعرفان الفلسفية وعلم الكلام وفي شتى الميادين.

يقول علماء علم الكلام إنَّ العقيدة تقتلُ الأساس والقاعدة لكل عمل الإنسان وسلوكه الخارجي^(١)، فالسلوكيات حاكية ومعبرة عن عقيدة الإنسان، فالشخص المؤمن والمعتقد بوجود آخرة وجنة ونار وعقاب وثواب لا يجرؤ على ارتكاب المعاصي والذنوب وكثير من الناس يؤمن بهذه الأمور على المستوى النظري ولكنه لا يؤمن بها على المستوى العملي، فمن ادعى الإيمان وخالف سلوكه إيمانه فهذا دليل على أنَّ الإيمان بقي في الذهن ولم يستقر على صفحة القلب.

يقول الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه في وصيته لابنه السيد أحمد في ذكره للآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتَرُ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لَغَدِيرٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

"...يمكن أن تكون الآية خطاباً للأشخاص الذين أوصلوا الإيمان إلى قلوبهم، فكثيراً ما يكون الإنسان مؤمناً بحسب الظاهر مؤمناً معتقداً بالشهادتين لكن قلبه لا علم له بذلك، ويكون غالباً معتقداً بالأصول الخمسة إلا أنَّ هذا العلم لم يصل إلى قلبه. ولعل غير خواص المؤمنين هم جميعاً كذلك.

المعاصي التي تصدر من بعض المؤمنين منشؤها هو هذا، إذا كان القلب مطلاً على يوم الجزاء والعقاب الكذائي (المرعب) وقد آمن بذلك، فإن صدور المعصية والتمرد منه بعيد جداً.

الشخص الذي آمن قلبه بعدم وجود إله إلا الله لن يميل إلى غير الحق تعالى ومدح الآخرين، ولن يخاف ويحذر غيره^(٣).

الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه بنى فكره وموافقه السياسية على أساس عقدي انطلق من توحيد الله تعالى وبنى موافقه الشجاعة والقوية من هذا الفهم وهذا المنطلق العقدي.

يقول الإمام في موقع آخر من وصيته لابنه السيد أحمد: "...وثانياً يجب أن تعلم أن الإيمان بوحدة الإله ووحدة المعبود ووحدة المؤثر لم يصل -كما ينبغي- إلى قلبك.

ابذل الجهد لتصل كلمة التوحيد -التي هي أعظم كلمة وأسمى جملة- إلى عقلك وقلبك. فإن حظ العقل هو ذلك الاعتقاد البرهاني الجازم.. وإذا لم يصل حاصل هذا البرهان بالمجاهدة والتلقين إلى القلب فإن فائدته وأثره لا يكادان يذكران.

بني عليك بالمجاهدة لتودع القلب عند الله، ولا ترى مؤثراً غيره. اوليس عامة المسلمين المتعبدين يصلون في اليوم والليلة -والصلاحة زاخرة بالتوحيد والمعارف الإلهية— يقولون عدة مرات في اليوم والليلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ويتألفظون أن العبادة والإعانة مختصتان بالله، إلا أنهم يتذلّلون ويتزلفون لكل عالم وقوى وثري، إلا المؤمنون بحق وخواص الحق سبحانه، وأحياناً يأتون بأكثر مما يأتون به للمعبود، ويستمدون العون من كل شخص ويتمسكون بكل قشة من أجل آمالهم الشيطانية وهم خالقون عن قدرة الحق^(٤).

وفي وصية أخرى يقول لابنه:

"ولدي العزيز أحمد..."

اعلم أنّ ليس لأي موجود من الموجودات. بدءاً من غيب عالم الجبروت وإلى ما فوقها أو تحتها -شيء من القدرة أو العلم أو الفضيلة، وكل ما فيها من ذلك إنما هو منه جَلَّ وَعَلَّ، فهو الممسك بزمام الأمور من الأزل إلى الأبد، وهو الأحد الصمد.

فلا تخشى من هذه المخلوقات الجوفاء الخاوية الخالية، ولا تُلْقِ آمالك عليها أبداً، لأن التعليل على غيره تعالى شرك، والخوف من غيره جلت عظمته كفر^(٥).

ويقول في موضع آخر بشكل أكثر صراحة ووضوح:

"إنّ معتقداتي أنا وجميع المسلمين هي نفس تلك المسائل المطروحة في القرآن"

ال الكريم والتي بيّنها الرسول الأكرم عليه السلام وأئمّة الحق عليهما السلام الذين جاؤا من بعده وأنّ أساس جميع تلك الاعتقادات وأهم وأغلى عقائدها هو أصل التوحيد. وطبقاً لهذا المبدأ فإننا نعتقد بأنّ الذات الإلهية المقدسة وحدها هي التي خلقت هذا العالم وكلّ عوالم الوجود والإنسان، وإنها مطلعة على جميع الحقائق وقدرة على كل شيء، وملائكة لكل شيء، وبعلمنا هذا المبدأ أنه يجب على الإنسان أن يخضع للذات الإلهية الحقة فقط، وإن لا يطيع أي إنسان إلا أن تكون طاعته طاعة للخالق.

وطبقاً لهذا الأساس فلا يحق لأي إنسان أيضاً أن يفرض على الآخرين أن يخضعوا له، وإننا نتعلم من هذا الأصل العقائدي مبدأ حرية الإنسان وأنه لا يحق لأي إنسان أن يسلب حرية إنسان آخر أو مجتمع معين، فيوضع له القانون، أو ينظم علاقاته وسلوكه بموجب علمه وإدراكه الناقص جداً، أو ميوله ورغباته. وإننا نعتقد - انطلاقاً من هذا المبدأ أيضاً - أن وضع القوانين من أجل التكامل هو من صلاحية الخالق حَلْقَلَ كـما كانت قوانين الوجود والخلق من وضعه عز وجل، ولا يصل الإنسان ولا المجتمعات إلى السعادة والكمال إلا في ظل إطاعة القوانين الإلهية التي بلغنا إليها الأنبياء، وأنّ انحطاط الإنسان وسقوطه إنما هو بسبب سلب الحرية منه لسائر الناس.

ولذا يجب على الإنسان أن يثور ضد سلاسل وقيود الأسر هذه، ويقف بوجه الآخرين الذين يدعونه إلى الأسر ويحرر نفسه ومجتمعه حتى يكون المجتمع عباداً لله وخاضعين له، ولهذا السبب تتطلق قراراتنا الاجتماعية ضد قوى الاستبداد والاستعمار، وأيضاً فإننا نستلزم من مبدأ التوحيد الاعتقادي هذا أن جميع الناس متساوون أمام الخالق، فهو خالقهم جميعاً والكل عبيد له^(٦).

وحين يتحدث عن دور الأنبياء فإنه يشير إلى أنهم جاؤوا ليحرروا البشرية من أسر النفس والطواحيت فيذكر في أكثر من موضوع هذه النقطة فيقول:

”إنّ الهدف الذي بُعث من أجله الأنبياء وجميع الأعمال الأخرى هي مقدمة له هو

نشر التوحيد...”^(٧).

ويشير إلى أنّ هناك هدفان أساسيان للأنبياء عليهما السلام فيقول:

”لقد بُعث الأنبياء من أجل تربية معنويات الناس واستعداداتهم حتى يفهموا -من خلال تلك الاستعدادات- بأننا لا شيء، وإضافة إلى ذلك إنقاذ الناس، وإنقاد الضعفاء من نير الاستكبار وكانت للأنبياء منذ البداية هاتين الوظيفتين، الوظيفة المعنوية لإنقاذ الناس من أسر النفس، ومن أسر ذاتها (لأن الذات شيطان كبير) وإنقاذ الناس والضعفاء من سلطة المستكبارين”^(٨).

ويقول في موضع آخر:

”لقد جاءت النبوة وبعث النبي من أجل تحطيم معامل الظالمين الذين يظلمون الناس. وإن معامل الظلم هذه قد قامت أساسها على كدح هؤلاء الضعفاء، وعلى دمائهم واستثمارهم، وأصبحت قصوراً عالية، وكان مجىء النبي عليهما السلام لتحطيم هذه المعامل وقطع جذور الظلم هذه، ومن جانب آخر فلأن الهدف أيضاً بسط التوحيد، فقد قام بهدم مراكز عبادة غير الخالق جهنم والنار وأطفأ نيرانهم”^(٩).

من هذه الرؤية التوحيدية تخوض من حركة الإمام الخميني شعاران يجسدان التوحيد العملي:

- شعار لا شرقية لا غربية:

يقول الإمام رضوان الله تعالى عليه:

”إن الذي يتبع الدين الإسلامي يجب عليه أن يعارض القوى العظمى ويخلص المظلومين من مخالبها”^(١٠).

يشير الإمام الخميني إلى حقيقة وتبعات شعار لا شرقية ولا غربية فيقول:

”عندما أقول إن لدى إيران مسؤولية أكبر من سائر البلاد، فلأن إيران موضع الألطاف الإلهية أكثر من غيرها. أي بلد في العالم يعلن عن انتهاجه نهجاً مستقلاً لا

شرقية ولا غريبة؟ إنه بلدكم. إنكم تعلمون أن من تبعات الثورة الفوضى وشحة السلع. فإذا أراد الإنسان أن يحافظ على إنسانيته فلا بد له من أن يتحمل ويصبر وإذا أردتم حفظ قيمكم الإنسانية فلا بد من دفع الثمن. لا يمكن للإنسان أن يجلس في منزله وتتصان قيمه الإنسانية فمن يجلس في منزله ويعزل العالم فإنه سيتلقى الإساءات ولا يشعر بفقدان إنسانيته. فإذا كنتم تتطلعون للإنسانية ونيل العزة والسؤدد في العالم فإنه مكلف لا يأتي بالمجان. إذا كنتم تتطلعون للتحرر من هيمنة الآخرين ونيل الاستقلال فلا بد من التضحية. لا بد من تحمل تبعاته الفلاء والنقص والجهاد والدفاع والاستشهاد. هذه كلها قيم إنسانية عمل من أجلها الأنبياء وقتل بسببها الإمام الحسين عليه السلام، فإذا كان هو وأصحابه القلة يفكرون في الصعوبات ما استطاعوا تحقيق ثورة ما زالت آثارها حالية^(١).

يقول سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الأصفي في كتابه خط الإمام:

”ثم تبنت الثورة من خلال توجيهات وخطابات الإمام ورجالات الثورة وشعارات وهنافات الأمة شعار اللا شرقية واللا غريبة.

وما ادرك ما قيمة هذا الشعار، وعمقه وزنه السياسي؟

فلقد كانت ولا تزال الحكومات والأنظمة في هذه المنطقة تدور حول تلك إحدى القوتين العالميتين، فإذا انفلت النظام من دائرة النفوذ السياسي لأمريكا، فلكي يرتمي في أحضان النفوذ السوفييتي وإذا تخلص نظام من تلك السوفييت، فلكي يتراوح بينهما، أو يلعب على الحبلين جمياً.

ولأول مرة تستطيع الثورة الإسلامية أن ترفع في وجه القوتين الكبار شعار لا شرقية ولا غريبة، وتمارس العمل السياسي، بموجب هذا الشعار، وتتخلص من دوائر النفوذ الأجنبية بصورة حقيقة...”.

ويقول السيد القائد الخامنئي حفظه في الذكرى السنوية الأولى لرحيل الإمام الحميني العظيم عليه السلام:

”من بين المزايا التي تميز بها العهد الجديد الذي بناء إمامنا العظيم وثورتنا على الصعيد العالمي عبارة عن أصل التحرر من سلطة وهيمنة ونفوذ القوى الكبرى، وهو ما عرف في ثورتنا بمبدأ (لا شرقية ولا غربية) ففي كافة الثورات الكبرى التي حصلت خلال القرن العشرين -تقريباً- كانت الشعوب أو الأحزاب الثورية إذا ما انطلقت في عملها وحققت تقدماً ملحوظاً في مناهضتها لأي سلطة أو قوة ربطت نفسها بقوة أخرى: إنما أن ينبرى شعب لمواجهة سلطة جائرة معتمداً على نفسه ومتوكلاً على الله دون الاعتماد أو الاتكال على أي أحد أو آية قوّة، فهو السبيل الذي انطلق به الشعب الإيراني بقيادة الإمام العظيم“^(١٢).

فشعار لا شرقية ولا غربية هو تجسيد عملي سياسي لعقيدة التوحيد الربوبي، فكان الاتكال على الله والصبر والصمود في وجه قوى الاستكبار حينذاك هو الذي يحدد سياسة الإمام وموافق الإمام رضوان الله تعالى عليه.

- شعار الإسلام المحمدي الأصيل:

لقد طرح الإمام الخميني العظيم عنوان الإسلام المحمدي في قبال الإسلام الأمريكي وقد بيّن مراده من الإسلامي المحمدي الأصيل في عدة خطابات وبين مراده من الإسلام الأمريكي.

إن طرح مفردة (الإسلام المحمدي الأصيل) يتناسب مع الفهم والعقيدة التوحيدية والرؤوية والفهم لوظيفة الأنبياء عليهما السلام لذلك فالإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه حين يقول: (الإسلام المحمدي الأصيل) فهو يقصد الفهم الصحيح للإسلام والذي ينحاز إلى المستضعفين في قبال المستكبرين، الإسلام الذي يرفض الظلم والاستبداد وفرض الإرادة على الآخرين وهو في قبال الإسلام الأمريكي الذي يفرغ الإسلام من قيمه ومحنته ويبعده عن نصرة المستضعفين ويبرر سلوك وظلم السلطات الظللة وينحاز لها ويبرر طغيانها وجبروتها ويبرر للمستضعفين

الرکون والخضوع للظلم.

نذكر في السطور القادمة بعض معالم الإسلام الحمدي وبعض معالم الإسلام الأمريكي في نظر الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه:

١- الإسلام الأصيل، الإسلام المدافع عن المظلومين والمستضعفين والناهض للمرفهين ودعاة الراحة والدعة.

يقول ساحة الإمام: "سوف يدل الشعب الإيراني الشجاع -وبدقة تامة- بصوته إلى المرشحين المتمسكون بالإسلام والأوفقاء للشعب، الذين يشعرون بالمسؤولية تجاه شعبهم، وتجربوا مراراة الفقر، ودافعوا عن إسلام الحفاة بالقول والفعل، إسلام المستضعفين، إسلام المعذبين على مرّ التاريخ، إسلام العرفاء المجاهدين، إسلام العرفاء ذوي الأصول الطاهرة. وبكلمة واحدة سيدلي بصوته إلى المدافعين عن الإسلام الحمدي عليه وآله وسيعمل على طرد كل الذين يدافعون عن الإسلام الرأسمالي، إسلام المستكبرين، إسلام المرفهين الذين لا يعرفون معنى للألم، إسلام المنافقين، إسلام دعاة الدعوة، إسلام الانتهازيين، وبكلمة واحدة الإسلام الأميركي، ويفضحهم".^(١٣)

٢- محاربة الاستكبار والدفاع عن العقيدة، من الأركان المهمة للإسلام الأصيل.

يقول ساحة الإمام: "على مسؤولي النظام الإيراني الثوري أن يعلموا بأن عدّة من الذين لا يعرفون الله، ويدافعون القضاء على الثورة، تسعى إلى اتهام كل من يعمل من أجل القراء والمحروميين ويمضي في طريق الإسلام والثورة، بالشيوعية والانتقامية على الفور. فيجب أن لا تخيفهم مثل هذه الاتهامات، ويجب أن لا يفكروا بغير الله تعالى، وأن نركز كل جهودنا واهتمامنا من أجل نيل رضا الله ومساعدة المحروميين ولا نخشى اتهاماتهم. إن لدى أمريكا والاستكبار عموماً أشخاصاً يمارسون

تحركاتهم في مختلف المجالات لإلهاق الهزيمة بالثورة الإسلامية. ففي العozات والجامعات ثمة من يتظاهر بالقدسية وقد نبهت إلى خطر أمثال هؤلاء مراراً وتكراراً. إذ إنهم ومن خلال تزويرهم للحقائق يعملون على تأكيل الثورة والإسلام من الداخل. كما أنهم ومن خلال التظاهر بمناصرة الحق والدفاع عن الدين والولاية، يحاولون أن ينعتوا الآخرين بأنهم عديمو الدين. ويجب أن نعود بالله تعالى من شرّهم كما أن هناك من يحاول أن يشن هجوماً ضد كل روحاني وعالم دين بدون استثناء، ويعزفون إسلامهم بالإسلام الأميركي، وهم بذلك ينهجون نهجاً خطيراً من الممكن أن يقود -لا سمح الله- إلى هزيمة الإسلام الحمدي الأصيل. وعلينا أن ندافع عن إحقاق حقوق القراء في المجتمعات البشرية حتى آخر قطرة دم. إن العالم اليوم متغطش لثقافة الإسلام الحمدي الأصيل. وإن المسلمين وعبر إقامتهم لهيئات ومنظمات إسلامية عظيمة، سيتمكنون من مصادرة نعيم ورخاء القصور البيضاء والعمراء. وقد فتح الخميني اليوم أحضانه وكشف عن صدره لاستقبال سهام البلايا والمواقف الصعبة وقد اتت الأعداء وصواريختهم، وبعد الأيام لنيل الشهادة مثما هم جميع عشاق الشهادة.

إن حربنا حرب العقيدة لا تعرف الجغرافيا والحدود. وفي حربنا هذه علينا أن نكريّس جهودنا للتبيئة الكبرى لجند الإسلام في العالم بأسره. وأن الشعب الإيراني العظيم، ومن خلال دعمه المادي والمعنوي للثورة، سيغوض -إن شاء الله- صعوبات الحرب ليتدوّق حلاوة هزيمة أعداء الله في الدنيا، وأية حلاوة أللّه من أن يشاهد الشعب الإيراني تداعي وسقوط أركان وقواعد النظام الشاهنشاهي الظالم وتحطم زجاج الوجود الأميركي في هذا البلد.. أية حلاوة أسمى من أن يقوم شعبنا العزيز باجتثاث جذور النفاق والالتقاط والنزعات القومية^(١٤).

٣- الإسلام الحمدي يناهض الإسلام الأميركي ويتعارض معه ولن يلتقيا. يقول ساحة الإمام: "إن الاستكبار العالمي الشرقي والغربي، ونظراً لبقاءه عاجزاً

عن المواجهة المباشرة مع العالم الإسلامي، لجأ اليوم إلى أسلوب الاغتيالات وتصفية الشخصيات الدينية والسياسية من جهة، وإلى إشاعة ونشر ثقافة الإسلام الأميركي من جهة أخرى. وليت كانت كل اعتداءات الناخبين الدوليين علنية ووجهاً لوجه، مثلاً هو اعتداء الاتحاد السوفييتي على البلد المسلم والمنجب للشهداء أفغانستان، كي يتتسنى للمسلمين تحطيم أبهة الغاصبين واقتدارهم الوهمي. ولكن طريق النضال ضد الإسلام الأميركي يتسم بالتعقيد ولا بد من العمل على الكشف عن كل أبعاده للمسلمين الحفاة. ومما يؤسف له أن الحد الفاصل بين (الإسلام الأميركي) و(الإسلام المحمدي) لم يتضح بعد للكثير من الشعوب الإسلامية.. لم يتضح بعد الفارق بين إسلام الحفاة والمحروميين، وبين إسلام المتظاهرين بالقداسة المتحجرين والرأسماليين الذين لا يعرفون الله والمرفهين الذين لا يعرفون معنى للألم. وإن اتضاح حقيقة استحالة وجود متضادين ومتناقضين في مذهب واحد ودين واحد، يعتبر واجباً سياسياً مهماً للغاية... لذا فمن واجب علماء الدين العمل على إنقاذ الإسلام العزيز من أيدي الشرق والغرب، من خلال إيضاح أبعاد هذين الفكرين^(١٥).

٤- خطر التحجر والظهور بالقداسة لتضييف الإسلام الأصيل خطر حقيقي. يقول ساحة الإمام: "لا بد لنا من السعي جمياً لسيادة روح الوحدة والطهارة في محيط عملنا كي يتتسنى لنا إركاع القوى والقوى العظمى.. يجب أن نعمل على التمييز بين زهد وقداسة الإسلام المحمدي وإبعاده عن صداً المتظاهرين بالقداسة والتحجرين من أتباع الإسلام الأميركي، وفضحهم إلى الجماهير المستضعفة. فإذا استطعنا إقامة نظام على الأسس الواقعية لـ (لا شرقية ولا غربية)، والتعريف بالإسلام المنزه من الرياء والخداع والخدع، تكون الثورة قد حققت أهدافها"^(١٦).

ويضيف ساحتة: "إن كتاب (الأيات الشيطانية) عمل مدروس لاستئصال جذور الدين والتدين وفي طليعته الإسلام وعلمائه. ومما لا شك فيه لو كان بوسع الناخبين الدوليين لعملوا على اجتثاث جذور علماء الدين واسمائهم، ولكن الله تعالى كان دائمًا

حافظاً وحارساً لهذا المشعل المقدس، وسيبقى كذلك من الآن فصاعداً أيضاً بعونه تعالى، شرط أن نعي حيل ومكر وخداع الناهبين الدوليين. وبطبيعة الحال لا يعني هذا إنتا ندافع عن جميع علماء الدين، ذلك أن رجال الدين المرتبطين والمتظاهرين بالقدسية والمحجرة لم ولن يكونوا قلة. ففي الحوزات العلمية ثمة أفراد ينشطون ضد الثورة والإسلام الحمدي الأصيل. فالاليوم نرى عدّة من هؤلاء، ومن خلال التظاهر بالقدسية، توجّه سهامها إلى قواعد الدين والثورة والنظام وكأنه ليس لديها هماً غير ذلك. إن خطر المحجرة والمتظاهرين بالقدسية الحمقى غير بسيط في الحوزات العلمية. وعلى طلبة العلوم الدينية الأعزاء أن لا يغفلوا لحظة واحدة عن هذه الأفاعي الرقطاء، إذ إنها تروج للإسلام الأميركي وأعداء رسول الله، ولا بد للطلبة الأعزاء المحافظة على وحدتهم أمام مثل هذه الأفاعي. إن الاستكبار العالمي وبعد ما يأس من القضاء على علماء الدين وتدمير كيان الحوزات العلمية، لجأ في عصرنا العاشر إلى أسلوبين لتنفيذ مخططه، الأول أسلوب القوة والإرعاب، والثاني أسلوب الخداع والتضليل. وما فشلت حربته في الإرعاب والتهديد بتحقيق أهدافه، سعى الاستكبار إلى أسلوب الخداع والتضليل وقوية نفوذه في الأوساط الدينية. ولعل من أولى تحركاته وأهمها الترويج لشعار الفصل بين الدين والسياسة. ومع الأسف استطاعت هذه العربة أن تترك تأثيرها -إلى حد ما- في الحوزات العلمية وفي أوساط الروحانية إلى درجة أصبح التدخل في السياسة دون شأن الفقيه، وكان الغوض في معرك السياسة مقرئوناً بتهمة التبعية للأجانب^(١٧).

٥- هدف الثورة رفع لواء الإسلام الأصيل وانتصار الصالحين.

يقول ساحة الإمام: "إن الشعب الإيراني البطل سيحافظ -إن شاء الله- على حماسه وغضبه الثوري المقدس، ولن يتوانى عن إضرام النار الحارقة للظلم ضد روسيا المجرمة وأميركا الناهبة للعالم وأذنابهم حتى ترفرف -بعون الله العظيم- راية الإسلام الحمدي عليه وآله عالياً في أنحاء العالم ويرث المستضعفون والحفاة والصالحون

الأرض^(١٨).

٦ - ضرورة التحلي بالحيطة والحذر في مقابل العدو، وتشكيل خلايا المقاومة في العالم الإسلامي.

يقول سماحة الإمام: "إنني أقول مرة أخرى لأبناء الشعب الإيراني العظيم ولكلّة المسؤولين، بأنه من السذاجة حقاً أن تتصور بأن نهبة العالم لا سيما أميركا والاتحاد السوفياتي، كفوا أيديهم عننا وعن الإسلام العزيز... يجب أن لا نغفل لحظة واحدة عن كيد الأعداء. فالحقّ والعداء للإسلام محمدي عليهما السلام يموج في كيان وطبع أميركا والاتحاد السوفياتي... لابد من التسلح بسلاح الصبر والإيمان الفولاذي لتحطيم أمواج الأعاصير والفتن، والتصدي لسيل الآفات. إن الشعب الذي يتحمّل الخطى على نهج الإسلام محمدي عليهما السلام ويناهض الاستكبار وعبادة المال والتجّار والقداسة الزائفة، يجب أن يكون جميع أبنائه من التعبويين، وأن يحرصوا على تعلم فنون القتال، فالشعب العزيز والخالد هو الذي تتحلى الفالبية من أبنائه بالاستعداد العسكري المناسب لمواجهة المخاطر في اللحظات العصيبة... ينبعي للجامعة العلمية والجامعة وضع الأطر الأصلية للإسلام محمدي الأصيل تحت تصرف البسيجيين كافة. كما يجب على بسيجيي العالم الإسلامي التفكير بتشكيل الحكومة الإسلامية الكبرى وهو أمر ممكن، لأنّ البسيج لا يقتصر وجوده على إيران الإسلامية. فلا بد من تشكيل خلايا المقاومة في مختلف أنحاء العالم والتصدي للشرق والغرب".^(١٩)

٧- علماء الدين الحلقة الرئيسيّة في نشر الإسلام الأصيل.

يقول سماحة الإمام: "واليوم أيضاً -وكما في السابق- انطلق صيادوا الاستعمار في مختلف أنحاء العالم، سواء في مصر وباكستان وأفغانستان ولبنان والعراق والجهاز وإيران والأراضي المحتلة، للتربص بأبطال الروحانية المعارضين للشرق والغرب، والمؤمنين بمبادئ الإسلام محمدي عليهما السلام ها نحن نشهد بين الفينة والأخرى في العالم

الإسلامي انفجار غضب الناهبين الدوليين ضد أحد علماء الدين المخلصين. لأن علماء الإسلام الحقيقيين لم يخضعوا مطلقاً للرأسماليين والخونة وعبدة المال، وحافظوا على هذا الشرف على الدوام. ومن الظلم الفاحش أن يرى البعض بأن علماء الدين الأصيلين، أنصار الإسلام المحمدي الأصيل، يضعون أيديهم في إماء واحد مع الرأسماليين... إن علماء الدين الملتزمين متعطشون لدماء الرأسماлиين الطفيليين ولم ولن يتصالحوا معهم... إن نشر الفقاهة والروحانية لم يكن بقوة العراب، ولا ب فعل ثروة عبدة المال والأثرياء، بل أن جدّهم ومثابرتهم وإخلاصهم والتزامهم كان وراء اتباع الناس لهم^(٢٠).

-٨- الغرب والشرق يناهضان الإسلام الأصيل في جبهة متحدة.

يقول ساحة الإمام: "إن عالم الاستكبار، لا سيما الغرب، قد أدرك اليوم تسامي خطر الإسلام المحمدي عليهما الله على مصالحه غير المشروعة... إن الغرب والشرق يدركان اليوم جيداً بأن القوة الوحيدة التي بإمكانها أن تتصدى لهما وتخرجهما من الساحة هي الإسلام، وقد تلقى هؤلاء خلال السنوات العشر الماضية من عمر الثورة الإسلامية الإيرانية، ضربات قاسية من الإسلام، وقد عقدوا العزم للقضاء على الإسلام بأية وسيلة ممكنة، في إيران موطن الإسلام المحمدي الأصيل، فإن تيسير لهم وبالقوة العسكرية، وإن فمن خلال نشر ثقافتهم المبتذلة وجعل الشعب غريباً عن الإسلام وعن ثقافته القومية. وإذا ما عجزوا عن ذلك، فمن الممكن أن تتحقق لهم أهدافهم المشؤومة الأيدي المأجورة من المنافقين والليبراليين وعديمي الدين، الذين يعتبرون بالنسبة إليهم قتلة محترفين في تصفيية علماء الدين والأبراء والتسلل إلى مؤسسات الدولة ودوائرها، وقد أعلن هؤلاء المتسللون مراراً بأنهم يستدلون على ادعاءاتهم بما ينطق به السُّدُّج^(٢١).

ويقول في موضع آخر:

"الإمام يتحدث عن الإسلام الأصيل في مقابل الإسلام الأميركي. الإسلام الأميركي ليس الإسلام الذي تريده أميركا فحسب، وإنما كل شيء لا يمت للإسلام الأصيل بصلة. والشيء نفسه بالنسبة لإسلام السلاطين، وكذلك الإسلام الالتفاطي، وإسلام الرأسمالية، وإسلام الاشتراكية.. (الislams) التي تعرض بأشكال وألوان من دون النظام السياسي".^(٢٢)

"الإمام يتحدث عن الإسلام الأصيل في مقابل الإسلام الأميركي. الإسلام الأميركي ليس الإسلام الذي تريده أميركا فحسب، وإنما كل شيء لا يمت للإسلام الأصيل بصلة. والشيء نفسه بالنسبة لإسلام السلاطين، وكذلك الإسلام الالتفاطي، وإسلام الرأسمالية، وإسلام الاشتراكية.. (الislams) التي تعرض بأشكال وألوان

مختلفة وتفتقر للعناصر الأصيلة. وفي الحقيقة أن الإسلام الأميركي هو الذي يقف في مواجهة الإسلام الأصيل على الدوام. ويرى المرء أن هذه الإسلامات المتفرعة كانت حاضرة طوال السنوات الثلاثين الماضية من معارضته لنظام الإسلام السياسي. فالإسلام التقاطي كان موجوداً، وإسلام السلاطين وكذلك الإسلام الاشتراكي.. جميع أنواع وأقسام هذه (الإسلامات) كانت حاضرة في مواجهة الجمهورية الإسلامية... حسناً ففي ظل هذه النظرة إلى الإسلام وهذا الوعي والفهم للإسلام، يأخذ بنظر الاعتبار كل من الفرد والمجتمع، ينظر إلى المعنويات والمعدالة معاً، يأخذ بنظر الاعتبار الشريعة والعقلانية جنباً إلى جنب، وينظر إلى العاطفة والحزن إلى جوار بعض، لا بد من وجود كل ذلك. القاطعية والحزن في محلها، والعواطف في موقعها، والشريعة في مكانها، والعقلانية - التي هي ليست بمعزل عن الشريعة بطبيعة الحال - في محلها. كل ذلك ينبغي الاستفادة منه إلى جوار بعض. لأن الانحراف عن هذه المنظومة المتراسة سوف يؤدي إلى الانحراف عن النظام الإسلامي".

الهوماش:

- (١) دروس في العقيدة الإسلامية الشيخ المصباح اليزدي ج ١ ص ٢٨.
- (٢) الحشر: ١٨.
- (٣) وصايا عرفانية ص ٦١-٦٢.
- (٤) وصايا عرفانية ص ٦٤.
- (٥) وصايا عرفانية ١٠٣-١٠٢.
- (٦) منهاجية الثورة الإسلامية ٣-٤.
- (٧) منهاجية الثورة الإسلامية ٤٨.
- (٨) منهاجية الثورة الإسلامية ٥١.
- (٩) منهاجية الثورة الإسلامية ٥٢.
- (١٠) منهاجية الثورة الإسلامية ٤٢٢.

- (١١) صحیفة الإمام، ج ١٨، ص ٢٥٤.
- (١٢) نهج الإمام الخمینی فی كلمات القائد الخامنئی ص ٩-٨.
- (١٣) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ١٦.
- (١٤) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ٨٢ - ٨٣.
- (١٥) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ١١٢.
- (١٦) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ١٣٠.
- (١٧) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.
- (١٨) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ١٤١.
- (١٩) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ١٧٨ - ١٧٩.
- (٢٠) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ٢٥٢.
- (٢١) صحیفة الإمام، الجزء ٢١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
- (٢٢) مقتطفات من خطاب ساحة القائد آیة الله الخامنئی ألقاه بتاريخ ١٤٨٩/٣/١٤ شمسی.



اتباع الهوى

في فكر الإمام الخميني قدس سره

الشيخ محمد علي خاتم

تمهيد

إن النفس البشرية عند ولادتها تحمل ميلات نفسية وشهوات حيوانية فلا يعدو هذا الطفل في إدراكه أول أمره عن شريعة الحيوان فيدير يومه بين الشهوة والغضب، وتتجلى هذه في نوم الطفل وأكله ولعبه وكذا حرصه على تملك كلّ ما يمكن أن يقع في يده... هذه الميلات النفسية التي يحتوي عليها الطفل تكبر معه كلّما تقادم به العمر، وهذه في الواقع هي أصل المفاسد فتحتاج إلى مربٌّ ومعلم يقوم بتهذيب هذه الميلات ويوجهها في محلّها وإن لم يحصل هذا الطفل على

خطورة اتباع الهوى

وعلى هذا لا بد من التركيز على خطورة اتباع الهوى في كل مفاسيل الحياة وعلى كل الأفراد في المجتمع بدءاً من رأس الدولة... من هنا يأتي قول الإمام الراحل فتىش: "إنني أقول للسيد رئيس الجمهورية: إن أربع سنوات ونصف وأربع سنوات أخرى تنتهي بها كلها هكذا تنتهي. أمّا ما لا ينتهي فهي الأعمال التي نؤديها حيث إنها ثابتة في سجلات الله، فما نعمل من خير فمردّه علينا وما نعمل من سوء فمردّه علينا، فكل شيء من عند أنفسنا عوده علينا، وهذا هو ردّ الفعل، فعلى الجميع أن يعلموا أن آفة الإنسان هي هو النفس وهذا الهوى موجود لدى الجميع وهو مستمدٌ من فطرة التوحيد التي هي فطرة طلب الكمال، فالإنسان يطلب الكمال المطلق من حيث لا يدرى، إنه يطلب منصباً وعندما يحصل عليه يرى أنه ليس هو مطلوبه، فلو جمع العالم كله وأودع بيد الإنسان فلن يقنع به، إنكم تلاحظون أن العجابرة الذين يتمتعون بقدرات كبيرة يسعون إلى بسط نفوذهم وازدياد قدرتهم أكثر فأكثر، ولا يقنعون بالسلط على الفضاء والأرض والبحار وحتى السماء، فإن لم يستطع الإنسان أن يحدّ من أهوائه ورغباته فإنّ هذا الجمود الذي لا تحدّه حدود سيؤدي به إلى الفناء، فيجب الحدّ من هذا الجمود وتوجّب السيطرة على النفس في كل الأمور، فعلى الإنسان أن يلاحظ مصلحة الإسلام في تمثيلية الأمور كـها وعلى المسؤولين أن يأخذوا

المربي فإنه يتنفس مع الحيوانات في الإنغمس في هذه الميولات.
وإذا استمر على ذلك لن يكون قادرًا على أداء الأعمال الصالحة، ولن يستطيع أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة، ولن يكون باستطاعته أن ينفتح على المعارف الإلهية الحقة.

وإذا سيطرت الأهواء النفسية كان في ذلك اطفاء لنور العقل والإيمان ولن يتمكّن هذا الإنسان بعد ذلك أن يكون إنساناً لأنّه سيكون حيواناً بل أضلّ.

ما فيه مصلحة الإسلام والشعب المسلم بنظر الاعتبار ويحدّوا من أهواء أنفسهم التي هي منبع الفساد كله، وعليهم أن لا يتصرّروا أتنا ما دمنا نريد هذا فلنكتف به، كلاً، فلا شيء كافٍ للإنسان. فقلب الإنسان يطلب القدرة المطلقة، يعني قدرة الله، ويريد أن يفني فيها وهذه لا حدود لها، ولسنا نفهمها لأننا غير مطّلين عليها، ولذلك نظن أننا نريد هذه الأشياء، وأكثر أنواع العذاب التي يعاني منها الإنسان هو أنه لا يدري ما يريد، فهذه الأيام المعدودة زائلة، وهذه الرئاسات زائلة، وأنَّ ما يبقى هو ماذا عملنا وما هو موقفنا في محضر القدس الإلهي، فإن أصلحنا موقفنا هذا فقد أصلحنا كل شيء، وإنني لأتممُ للجميع وخصوصاً للذين في أيديهم مقاليد الأمور أن تحلُّ هذه المسألة، فإن حُلِّتْ فستُحلُّ كل المسائل الأخرى.^(١)

ولكن قبل أن ننطلق إلى الآخرين ونرشدهم ونبهّهم عن الانصياع إلى هذا العدو الخطير لا بد من أن نشرع بأنفسنا ونلقّها الكفُّ والإحجام عن اتّباع الهوى في أيّ مستوى من المستويات وفي أيّ موقع من الواقع ... يقول الإمام قتّش في هذا الصدد: "ولكن علينا أن نبدأ من أنفسنا، فإذا ما أصلحنا أنفسنا فستنتقل الأهداف التي نتطلع إليها إلى العالم مثلما هو حاصل الآن. وإذا ما أصبحت أهواونا النفعانية - لا سمح الله - سبباً في أن يتحول العتاب إلى شكوى والشكوى إلى معارض، ففي ذلك اليوم يجب أن نقيم مأتماً على البلد، وأنّ ذنب ذلك يقع على رقابنا لأننا لم نسحق أهواونا النفسية".^(٢)

ما هو هوى النفس الذي يرجى منّا أن نبتعد عنه؟

هوى النفس: هو ميل النفس إلى الشيء الذي تريده من دون أن يكون متعلق الميل أمراً مدوحاً أو قبيحاً مذموماً.

فبهذا التعريف يتضح أن ميولات النفس التي نتحدث عنها هي تلك الميولات التي تتعلق بالشهوات والغضب، وإذا ذكرت الشهوة فهي أعم من الأكل

والجنس والرئاسة وغيرها...

هذه كلها:

منها ما هو مذموم اتباعه من رأس كحب الرئاسة، وحب الدنيا وأمثالها...

ومنها ما هو مذموم الإكثار منه كالأكل والجنس وأمثالها...

لذا يحتاج الإنسان إلى المذهب والمعلم الصالح -كما عرفت- من العلماء وعلى رأسهم الأنبياء والأئمة عليهما السلام؛ حتى يجعل نفسه طيّعة لعقله فيسأله في كبح كل الشهوات التي يحتوي عليها ويوجهها باتجاهها الصحيح حتى يسير في طريق تكامله الذي أراده الله إليه، ويكون صاحب قوّة مؤثرة في مجتمعه هادياً لهم، دافعاً نحو طريق الحق والصلاح، وإلا فإنّ عقله سيكون طيّعاً لشهوته وغضبه وهذا ما لا يراد تحققه للإنسان، لأن ذلك يؤهّله لارتكاب المعاصي بأنواعها وهذا ما يجرّه إلى المزلقات ويهوي به إلى نار جهنم والعياذ بالله.

فمن اتبع هواه ضلّ وأضل ومن خالف هواه اهتدى وهدى الآخرين، واتضح إلى هنا أن ميزان بعد عن الحق هو اتباع الهوى وكلما اشتد اتباع الإنسان هواه اشتد بعده عن الحق، لأن اتباع الهوى ييشّل سلسلة أوهامها بيد الإنسان تبدأ حلقاتها بأهواء في المباحثات ثم تليها حلقة تلوّ حلقة حتى يصل إلى آخر الحلقات التي قد اتصلت بقعر جهنّم.

يقول الإمام الخميني^{قدس}: "اعلم أيّها العزيز، إنّ رغبات النفس وأعمالها لا تنتهي ولا تصل إلى حدّ أو غاية، فإذا اتبّعها الإنسان ولو بخطوة واحدة، فسوف يضطر إلى أن يتبع تلك الخطوة بخطوات، وإذا رضي بهوى واحد من أهوائها، أجبر على الرضى بالكثير منها. ولئن فتحت باباً واحداً لهوى نفسه، فإنّ عليك أن تفتح أبواباً عديدة له. إنّك بمتابعتك هوى واحداً من أهواء النفس توقعها في عدد من المفاسد، ومن ثم سوف تُبتلى بآلاف المهالك، حتى تنغلق -لا سمع الله- جميع طرق الحقّ بوجهك في

آخر لحظات حياتك^(٣).

اتباع الهوى أساس مشاكلنا:

إنّ اتباع الهوى أساس كل انحراف ومعصية تصدر من هذا الإنسان، "فعلى الجميع أن يعلموا أنّ آفة الإنسان هي هو النفس"^(٤)، فلا بد من النفس أولاً، فهي المطلق لإصلاح العالم، فإن صلحت استطاع صاحبها أن يكون من المصلحين. وإلا فسيكون من يثيرون الفتنة شعر بذلك أم لم يشعر، فقد يكون انحرافه عن خبث سريرة وهذه مشكلة، وقد يكون انحرافه لنقص في وعيه وما يدور حوله وهذه مشكلة أعظم؛ ففي القسم الأول لا ينخدع الناس بثليهم فلا يشكّلون خطراً كبيراً على الأمة^(٥) لتشحّصهم في الغالب وابتعاد الناس عنهم، لكن الخطرا الناجم من أصحاب القسم الثاني خطراً أكبر وأشد. والإمام قدس سره يركّز على القسم الأخطر فيقول في حديث: "ما سبب اختلافكم؟ وأي ميراث تختلفون عليه؟ تريثوا قليلاً وانتبهوا لما يدور حولكم. لا تتكلموا عن بعضكم البعض بسوء فهو مخالف للآداب الإسلامية والإنسانية كلّ، ويناقض سلوك الأنبياء والأولياء. امتنعوا عن ذلك إذاً اتركوا هو النفس جانباً، فكل مشاكلنا تنبثق عن أهواء النفس وشهواتها.

فالنفس هي أكثر أعداء الإنسان شراسة، إذاً فحاولوا السيطرة والتغلب عليها وكبح جماحها^(٦).

ولو غالبتها الإنسان وسيطر عليها لا يعني ذلك أنها ستبقى مُهذبة طوال الوقت فلا بد من تعاهدها والوقوف معها بصدق على مواطن النقص وعلاجه، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَتَعَاوَدْ النَّفْسَ مِنْ نَفْسِهِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْهَوَى، وَمَنْ كَانَ فِي نَفْسٍ فَلَمْ يَوْمُتْ خَيْرٌ لَهُ»^(٧).

مفتاح القلب

من يسلم أمره إلى هواه فقد تردى؛ لأنه بذلك يضع مفتاح قلبه في طبق من ذهب ويقدمه للشيطان وهذا الأخير يدخل إلى ساحة القلب ويحول هذا القلب من حرم الله إلى حرم للشيطان^(٨)، فيأنس بذلك الشيطان ويسعد فهو يغوي الآخرين بنفس الأسلوب الذي أغوى نفسه به عندما اتبع هواه وامتنع عن إطاعة أمر الله المتمثل بالسجود لآدم عليه السلام، فتجرأ على الله ليدعى انتفاء الحكمة من السجود... فإبليس بعد أن اتبَّع هواه وصل إلى مستوى تحدي الله عزوجل، وليس غير هذه النتيجة يريدها الشيطان لبني الإنسان عندما يتبعون أهوائهم.

التحذير من اتباع الهوى:

وهذه بعض من النصوص الواردة من القرآن والسنّة الشريفة في ذم اتباع الهوى والتحذير من ذلك:

١- قوله عزوجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعُ الْهَوَى فَيُضْلِلُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٩)، وهذا الضلال عن سبيل الله لا يحصل لو لم يحصل نسيان يوم الحساب - أي عدم الاعتناء بأمره- الذي هو لازم لاتباع الهوى^(١٠)؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضْلُلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١١). ومن هنا يوصي الإمام تقي جمیع من يوكالهم بالوكالة الشرعية بضرورة مخالفة الهوى وتجنبه: " وأوصيه-أیده الله تعالى- بما أوصي به السلف الصالح من ملازمة التقوى والتجنب عن الهوى والتمسك بعروة الاحتياط في الدين والدنيا"^(١٢).

٢- قوله عزوجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(١٣)، ومن لم يخف ربّه الذي هو الله عزوجل، فإنه يتذكر للخصوص والخنوع والخشوع إلى الله العزيز العظيم الجبار... وفي هذا إنكار للعبودية لله تعالى، ومن يخرج نفسه عن دائرة العبودية لله تعالى فإنه بذلك قد دخل في

دائرة عبودية الشيطان حتى تكون النار له هي المأوى، بخلاف من تتحدث عنهم الآية وهم أهل الجنة الذين خافوا مقام ربّهم فتواضعوا إليه ونزعوا أنفسهم عن اتباع الهوى، أقرّوا بعبوديّتهم إليه فكانت الجنة لهم هي المأوى.

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أيّها النّاسُ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْتَنَانُ: اتّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمْلِ، فَأَمّا اتّبَاعُ الْهَوَى فَيَصِدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمّا طُولُ الْأَمْلِ فَيُنْسِيُ الْآخِرَةَ»^(١٤).

إنه لأمر خطير أن يكون الحق ظاهراً بيّناً للغير ولكن بسبب اتباع الهوى يخفى، فاتّباع الهوى حجاب عن الحق. وهو طريق سهل للتفرق والتمزق بين المؤمنين يقول الإمام قتيل في هذا الجانب: "اعلموا أن الأنبياء عليهم السلام لو اجتمعوا في عصر واحد لما اختلفوا أبداً، تنشأ جميع الخلافات من هو النفس..."^(١٥).

٤- عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائرهم^{(١٦) ألسنتهم}»^(١٧).

الليست غلبة العدو تحتاج إلى عتاد، وتدريب، وتحصين للشغور ومراقبة شديدة، وعدم الغفلة عنه ولو للحظة وما إلى ذلك من أساليب الدفاع والهجوم... ولنا أن نقف عند أنفسنا ونعدّ عتادها وندرّبها لمواجهة الهوى، ونحسن شعورها التي ينفذ منها العدو وشعور النفس عينها وأذنها وفوهتها، فلا نترك للعين فرصة للتمتع بما حرم الله من النظر الحرام، ولا نترك للأذن فرصة لاستماع ما يبغضه الله من الغيبة وغيرها، ولا نترك لأفواهنا أن يدخل فيها الحرام من الطعام أو يخرج منها النتن من الكلام. وإن تركناها لما تهوى أنفسنا فإن الهاك والخسران في انتظارنا وهذه حقيقة يؤكّد عليها الإمام الراحل قتيل: "ما يلقي بالإنسان إلى التهلكة في كافة شؤونه ما هو إلا هو النفس"^(١٨).

٥- عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليهما السلام قال: «قال رسول الله عليهما السلام: يقول

الله عزّ وجلّ: وعزّتي، وجلاي، وعظمتي، وكرياتي ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتت عليه أمره^(١٩)، ولبسه عليه دنياه، وشغلت قلبه بها ولم أؤته منها إلا ما قدرت له. وعزّتي، وجلاي، وعظمتي ونوري، وعلوي، وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا استحفظته ملاتكتي، وكفلت السماوات والأرضين رزقه، و كنت له من وراء تجارة كل تاجر، وأنته الدنيا وهي راغمة»^(٢٠).

وهنا وقفة

إنَّ الله عزّ وجلّ قد صدرَ هذا الحديث القدسِي بسبعة أقسامٍ وقد نسب جميع الأقسام إلى ذاته المقدّسة، وهذا الأسلوب من القسم لم نره في القرآن في حال أراد أن يقسم بذاته^(٢١).

فالقسم في هذا الحديث الشريف بلحاظ الكلم والنوع يبيّن خطورة المقسم عليه، فتأمّل.

بعد كل هذا التحذير نضيف هذا التقريب المستمد من الارتباط الروحي بيننا وبين المعصوم^(٢٢) لبيان حجم الإيذاء الذي يتسبب به من يتبع هواه.

إنَّ في اتباع الهوى إيذاء لرسول الله عليه وآله، ولأنّمتنا عليه ذلك لقوله عليه وآله في الحديث المشهور: «شيئي سورة هود» لمكان الآية المباركة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

وليس بسبب هذا المقطع بل المقطع الذي يليه لأن هذا المقطع موجود في سورة الشورى ولم يقل النبي عليه وآله هذه المقوله، والمقطع هو ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾، فقلب الرسول عليه وآله - والأئمه عليهما - يعيش حالة الاضطراب كلما أسودت صحائف أعمالنا... فانظر أيها المسلم كيف تكافئ من وهب لك روحه وجوده وتحمّل أشد المصائب وأفظعها من أجل إرشادك ونجاتك، ولا تننس بأنك كلما فعلت فعلاً سيئاً ولم تتعاجله بالتوبة فإنك تؤذيهما ... تصور أنَّ ابنك يرتكب قبيحاً في

المجتمع أو أحد أقاربك أو من ينتهي إليك فإنك تخجل من نفسك وتتأذى بشدة وقد تتبرأ من هذا القريب - حتى لو كان ولداً - لشدة فعله هذا...

فما بالك بأبيك المعنوي رسول الله ﷺ «يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة»^(٢٤)

ويقول رسول الله ﷺ: «تکثروا تناسلاوا فإني أباهم بكم الأمم»^(٢٥)، كيف يباهي بنا الأمم ونحن لا ننفك عن اتباع شهواتنا واتباع أهوائنا غير مكترثين لما نفعل ولا نشعر أماننا السيئة بتوبة خالصة؟ خصوصاً مع تقادم العمر وانحسار سنوات البقاء في هذه الدنيا، فينبغي التنبّه إلى هذه الخطورة -خطورة اتباع الهوى- من أول العمر حتى يتمكّن الإنسان من الاحتراز عن هذا الداء الخطير، والإمام الحسين قدّس سرّه كان متنبّهاً -كعادته- إلى ضرورة تنبيه اليافعين من الشباب فيخاطبهم ويقول: "على الشباب أن يتبعوا إلى أن يوسع المرء إصلاح نفسه في فترة الشباب، فكلما يتقدّم العمر بالإنسان يزداد إقباله على الدنيا... إن كل هذه المفاسد التي تحصل في العالم هي لأنهم لم يدخلوا في هذه الضيافة -يقصد بها شهر رمضان- وإذا مادخلوا فيها لم يستفیدوا منها... فإذا كانت هناك ذرة واحدة من هوی النفس لدى الإنسان لم يدخل الضيافة وإذا دخلها لم يستفید منها".^(٢٦)

ولخطورة اتباع الهوى صدر الإمام قدّس سرّه وصيّبه الخالدة تحذيره من اتباع الهوى، وأشار فيها إلى شيء من آثاره الخطيرة في الدنيا والآخرة: "ووصيتي إلى القائد ومجلس القيادة في هذا العصر -الذي هو عصر هجمة القوى الكبرى وعملائها في داخل البلد وخارجها ضد الجمهورية الإسلامية، وفي الحقيقة ضد الإسلام تحت ستار الهجمة على الجمهورية الإسلامية- وفي العصور القادمة هي أن يجعلوا أنفسهم وقفأ على خدمة الإسلام والجمهورية الإسلامية والمحروميين والمستضعفين، ولا يطنوا القيادة في نفسها هدية ومقام سام، بل هي واجب ثقيل وخطير، إذ إنّ الزلة فيه إذا كانت - لا سمع الله - اتباعاً لهوي النفس تستتبع العار الأبدى في هذه الدنيا، ونار

غضب الله القهار في العالم الآخر. أسل الله المثان الهادي بتضرع وابتهاج أن يستقبلنا وإياكم، وقد اجتنزا هذا الامتحان الخطير بوجوه مبيضة وأن ينجينا. وهذا الخطر أقل بعض الشيء بالنسبة لرؤساء الجمهورية في الحال وفي المستقبل، وكذلك الحكومات والمعنيين بحسب الدرجات في المسؤوليات، فيجب أن يتبعوا إلى أن الله تعالى حاضر وناظر، ويعتبروا أنفسهم في محضره المبارك. هداهم الله إلى سواعي السبيل^(٢٧).

هل نحن من يتابع هواه؟

في كل عنوان نبحثه لا بد من أن نسقطه على واقعنا العملي حتى يتحقق ثماره المرجوة وإن فقد يكون من الترف الفكري الذي لا يخرج عن دائرة التنظير ولو بعد حين، والعنوان المبحوث أمثلته كثيرة جداً في سلوكياتنا، فلذا نذكر مستويات ثلاثة لا لجمع الأمثلة واستيعابها ولكن لبيان بعض النماذج منها:

المستوى الأول:

اتباع الهوى في الجائز:

منها: اتباع الهوى في المباحثات إذ يكن لأي مكلف أن يأتي بها -المباحثات- أو يتركها ولكن إذا أكثر منها متبعاً بذلك شهوته فإنها تؤدي أحياناً إلى محروم أو إلى التقصير والتکاسل في الطاعة، فالإفراط في الأكل ضرب من ضروب اتباع الهوى فتراه يأكل كثيراً -مثلاً- حتى يتناقل عن القيام لصلاة الليل، بل قد لا يقوم لصلاة الصبح!.

منها: تتبع رخص العلماء لإرضاء الشهوة في نيل ما أمكن من حطام دنيا لا تدوم ولذائذها سرعان ما تزول، فقد يبحث عن الرخصة -ويستسيغها- في موارد الشبهات وهذا النوع لا يأمن على نفسه من المزلقات.

المستوى الثاني:

اتباع الهوى في موارد لها أثرها على نفسه وعلى غيره:

وهذا أشدّ من الأول وله أمثلة عديدة:

منها: عدم الالتزام بلباس العفة من الرجال والنساء - وإن كثر في النساء - بل اتباع موضة العصر مما يكون خالياً عن الحشمة وعدم لحاظ للتکلیف الشرعي.

منها: اتخاذ الآراء والأفكار الاجتماعية حسب ما يرضي الهوى، ومن دون اللجوء إلى مرجحات عقلية معترضة أو شرعية... وأمثلتها كثيرة تجمعها بعض العناوين البراقة الخداعية التي اخترعها الشيطان كالانفتاح والحرية ومواكبة العصر والحضارة - المتخلفة في الواقع من دون مراعاة للضوابط الإسلامية مثلاً، ودعوى الاختلاط بين الجنسين - في المجالس وفي البيوت وفي وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها فيقع الحرام بينهما من مفاكهة ومزاح وضحك وهذه أقل المستويات في هذا الطريق. فيتغافل عن ما ورد عن رسول الله ﷺ: «ومن صافح امرأة حراماً جاء يوم القيمة مغلولاً ثم يؤمر به إلى النار، ومن فاكه امرأة لا يملكتها حبسه الله بكل كلمة كلّمها في الدنيا ألف عام»^(٢٨).

المستوى الثالث:

اتباع الهوى في المعتقدات:

وهذا القسم أشدّ من الأولين لأنّه يؤدي في بعض الموارد إلى الخروج عن الدين والكفر بالله والعياذ بالله.

منها: عدم اتباع الحق من أيٍ كان فيجعل هواه قائده في اتباع من أراد وما أراد سواء وافق الحق أم خالفه... ومن أمثلة ذلك ما كان في صدر الإسلام عندما صدح الرسول ﷺ بنبوته فآمن به قومٌ وكفر به آخرون ومنهم أبو جهل -

الهوامش:

(١) صحيفـة الإمام ج ١٩ ص: ٣٢٣.

(٢) صحيفـة الإمام ج ١٧ ص: ٤٢٤.

(٣) الأربعون حديثاً، الإمام الخميني، فصل في ذم اتباع الهوى، الحديث العاشر.

(٤) صحيفـة الإمام ج ١٩ ص: ٣٢٣.

وحقاً كان أباً للجهل - ففي ذات ليلة طاف بالبيت - زاده الله شرفاً - ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي ﷺ .

فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه صادق.

فقال له: مه، وما ذلك على ذلك؟

قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباح الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكم رشده نسميه الكذاب الخائن! والله إني لأعلم أنه صادق.

قال: فما يمنعك من أن تصدقه وتؤمن به؟

قال: تتحدث عنّي بنات قريش أئّي اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة! واللات والعزى لن أتبعه أبداً^(٢٩).

منها: رفض ما ورد بالطريق المعتبر من أحاديث أهل البيت ع في تأويل القرآن أو في فضائل أهل البيت ع بدعوى الغلو أو عدم القبول العقلي لها... هذا في الواقع ليس لأنّها لم يقبلها العقل بل لأنّ الهوى لم يقبلها، وكل إنسان على نفسه أبصر، وبها أعرف.

وغيرها.

نعود بالله تعالى من اتباع الهوى وشره،

"وادعوه أن يعيننا على ان نتخلق بالأخلاق الحسنة والأعمال المحمودة

. ويقمع أهواءنا النفسانية برحمته وفضله وقدرته إن شاء الله"^(٣٠).



- (٥) وإن كانوا يؤثرون سلباً عليها ولكن بالقياس إلى القسم الثاني يكون تأثيرهم السلبي أقل.
- (٦) صحيفه الإمام ج ١٣ ص: ٦١.
- (٧) أمالی الصدوق: ص: ٣٢٢ ح ٤.
- (٨) ورد في الحديث عن الإمام الصادق ع: «القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله».
- (٩) سورة ص / ٢٦.
- (١٠) تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٧ - الصفحة ١٩٥ (بتصرف).
- (١١) سورة ص / ٢٦.
- (١٢) في توكييل للسيد مهدي بيش نمازي الصادر من السيد الإمام الخميني بتاريخ ٢٧ جمادى الثاني ١٤٠٧هـ، وكذا عند توكييل غيره.
- (١٣) النازعات / ٤٠.
- (١٤) نهج البلاغة خ ٤٢.
- (١٥) صحيفه الإمام ج ٢٠ ص ٧١.
- (١٦) حصد الزرع: قطعه: حصائد أستنتهم ما يقطعونه من الكلام الذي لا خير فيه (في).
- (١٧) الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - الصفحة ٣٣٥.
- (١٨) صحيفه الإمام ج ٢٠ ص ١٩٤.
- (١٩) تشتت أمره إما كنایة عن تحیره في أمر دینه، فإن الذين يتبعون الأهواء الباطلة في سبيل الضلاله يتبعون وفي طرق الغواية يهيمون أو كنایة عن عدم انتظام أمور دنياهم فإن من اتبع الشهوات لا ينظر في العواقب فيختل عليه أمور معاشة ويسلب الله البركة عما في يده أو الأعم منهما وعلى الثاني الفقرة الثانية تأكيد وعلى الثالث تخصيص بعد التع溟 وقوله: "لبيست عليه دنياه" أي خلطتها أو أشكلتها وضيقـت عليه المخرج منها. وقوله: " شغلـت قلـبه بـها" أي هو دائمـاً في ذكرـها وفـكرـها غافـلاً عن الآخرـة وتحـصـيلـها ولا يصلـ من الدـنيـا غـاـيـةـ منـةـ فيـخـسـرـ الدـنيـا وـالـآخـرـةـ وـذـلـكـ هوـ الـخـسـرـانـ المـبـينـ.
- (٢٠) أي أنتهـ علىـ كـرهـ مـنـهـ أوـ أـتـهـ وـهـيـ ذـلـيـلـةـ عـنـدـهـ. منـ رـغـمـ أـنـفـهـ مـنـ بـابـ قـتـلـ وـعـلـمـ إـذـاـ ذـلـكـ كـأنـهـ لـصـقـ بـالـرـغـامـ وـهـوـ بـالـفـتـحـ: التـرابـ.
- (٢١) الكـافـيـ - الشـيخـ الـكـلـيـنـيـ - جـ ٢ـ - الصـفـحةـ ٣٣٥ـ.

- (٢٢) القسم في القرآن جاء بصور مختلفة فقد ذكر القسم بالتين والزيتون، والبلد، والعصر، وغيرها أما القسم بذاته العليّة فقد جاء في مثل قوله تعالى: ﴿فُورِبُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِنَّهُ لِحَقٍّ مِّثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْتَظِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] وقوله: ﴿فُورِبُكُ لَنْسَلَتِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، ونلاحظ هنا أنّ القسم كان بتنزيل المقسم به منزلة الغائب، أما في الحديث المشار إليه فالقسم فيه بالحاضر.
- (٢٣) أي: النبي ﷺ والأئمة علیهم السلام.
- (٢٤) أمال الصدوق ص ٧٥٥.
- (٢٥) عوالي اللثالي - ابن أبي جمهور الأحسائي - ج ٢ - الصفحة ٢٦١.
- (٢٦) صحيفه الإمام ج ٢١ ص ٤٩. في حديث في يوم عيد الفطر.
- (٢٧) من وصية الإمام الخميني التي كتبها في ٢٦ بهمن ١٣٦١ هـ ش. ١٤٠٦ هـ طبعت باللغة العربية في كتاب النداء الأخير ص ٣٥.
- (٢٨) وسائل الشيعة (الإسلامية)، الحز العاملی ج ١٤ ص: ١٤٣.
- (٢٩) تفسیر القرطبي - القرطبي - ج ١٦ - الصفحة ١٧٠.
- (٣٠) صحيفه الإمام، ج ١٦ ص: ١٢٨.



عوامل خلود كربلاء

(القسم الثاني)^(١)

الشيخ حسين كنجي

ترجمة وتحقيق: الشيخ رائد عبدالكريم الحسني

الحرارة الحسينية

قال الله الكريـم في كتابه الكـريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُ حُبًا لِّلَّهِ﴾^(٢).
وقال رسول الله عليه وآله: «إِنَّ لِقْتَلِ الْحُسَيْنِ حَرَاءً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَبْرُدُ أَبَدًا»^(٣).

جاءت على مدى التاريخ دول كثيرة وذهبـت ولم يبقـ من هذه الدول اسم ولا عـلمـةـ فقد حـكمـ بنـوـ أمـيـةـ علىـ النـاسـ أـلـفـ شـهـرـ وبنـوـ العـباسـ خـمـسـمـائـةـ سـنـةـ وـلـمـ تـبـقـ مـنـهـمـ عـلـامـةـ وـلـاـ جـمـاعـةـ تـذـكـرـهـمـ،ـ لـكـنـ

أهل بيت العصمة الأطهار عليهم السلام اسمهم ودينهم حي، وبقي خالداً ولقد حكموا الناس أربعة عشر قرناً على أنّ الأعداء كثراً من الذين ي يريدون أنْ يحوا اسمهم وذِكرهم، لكن لماذا لم يستطعوا؟

حرارة لا تميل إلى البرودة:

يقول الرسول الأكرم عليه السلام: «إِنَّ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ حَرَارَةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَبْرُدُ أَبَدًا»^(٤).

لأجل أن يتضح مكان هذه الحرارة لا بدّ من أن نرى ماذا تفعل الحرارة الطبيعية والمحسوسة المادية في العالم. حقاً لو توْخذ الحرارة من الإنسان والعالم لسوف يموت الإنسان ويصبح العالم كرة باردة ومظلمة. لو أنّ الشمس لا تستطع بحرارتها على الأرض لم يبقَ فيها دابة ولا حياة ولا حرارة توجد فوق الأرض، وتصبح الأرض كرة ترابية متجمّدة! هنا سوف نتحقق في خصوصيات الحرارة ونقيسها بالحرارة الحسينية.

١_ عامل الحياة:

كما أشير إلى أن حرارة الشمس هي عامل حياة الموجودات فوق الكره الأرضية، على ذلك فإنّ حرارة مزاج بني الإنسان توجب طول العمر. يقول الرسول الأكرم عليه السلام: «بَشِّرُوا الْمَحْرُورِينَ بِطُولِ الْعُمُرِ»^(٥). ولأنّ الحرارة توجِّد النشاط فأولئك الذين مزاجهم حارٌ يكونون مع المؤمنين متألفين مُتحابين.

يقول الرسول الأكرم عليه السلام: «لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُؤْلِفُ وَلَا يَأْلِفُ»^(٦).

أفضل الأشخاص أصحاب المزاج الحار حيث يكونون رفقاء وأحباء مع المؤمنين سريعاً. إحدى الصور الجميلة التي في الحرارة الحسينية هي هذه، بمعنى أنّها عامل حياة الدين والأصول والقيم العالية.

لو لم تكن الحرارة الحسينية في وجود الشيعة والمؤمنين لَمَات شهر رمضان والأيام الأخرى أيضاً، ولما ت الأصول والقيم أيضاً. دليله هو هذا: عندما ننظر إلى المجتمع الإسلامي بدون الإمام الحسين عليه السلام سنرى أنه بسهولة جداً ذاك المجتمع الأصولي والقيمي سيُضنهما (الأصول والقيم) أسفل رجله وسوف يوْدِعُها ويقول لها (في أمان الله).

لديكم الإمام الحسين عليه السلام وليس لدينا:

كان آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي عليه السلام قد أُبعد إلى مهاباد. وكما إنّ قم مركز الحوزة العلمية للشيعة كذلك مهاباد مركز الحوزة العلمية لأهل السنة. رأى هناك فجائع وأنّ خلاف الأخلاق كثیر. رأى النساء بدون حجاب وأنّ دور السكر والقمار و... كثيرة جداً فتعجب كثيراً. جاء علماء أهل السنة لزيارة آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي عليه السلام في تلك المنطقة وقال لهم: أنا لديّ سؤال. نحن لدينا بحث في الإمامة والولاية معًا لكن ليس لدينا اختلاف في مواجهة المفاسد الأخلاقية والثقافية. كيف مدینتكم لديها هذه المشاكل لكن ليس مدینتنا -يقصد قم- هذه الأمور؟

أجابوا: الفرق بيننا وبينكم أنّ لديكم الإمام الحسين عليه السلام وليس لدينا. أنت بكلمة واحدة (يا حسين) يجتمع الكل في المساجد والحسينيات ويكون قلبهم وعقلهم تحت تصرفكم، لكن نحن ليس لدينا كل هذه الجاذبية والمناسبات.

هنا أشير إلى نكتة: نقرأ في زيارة عاشوراء: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ثَارَ اللَّهِ»^(٧)، سلام على دم الله^(٨). ليس الله دم إذاً ماذا تعني هذه الجملة؟ يعني مثلما أنّ الدم هو عامل للحياة في البدن وإذا اتسخ هذا الدم سوف يتفسخ هذا العضو وسيوجد مرض وإذا لم يصل إلى مكان في البدن سوف يموت هذا العضو، الإمام الحسين عليه السلام أيضاً دم التوحيد والتبوية والإمامية، دم في عروق كل آية قرآنية، دم في كل عرق دقيق

في الأصول والقيم العقائدية والأخلاقية والعبادية والسياسية والعسكرية ومجموع الدين. لو يرفع هذا الدم سوف لن يكون لها حياة!

هذه الحرارة التي لن تبرد أبداً هي هذا الدم والثار الإلهي ودم الله الذي هو عامل حياة التوحيد وكل أغصان وورق التوحيد. ألسنا نقول في زيارة عاشوراء: «طَلَبَ ثارِي مَعَ إِمامٍ مَهْدِيٍّ ظَاهِرٍ نَاطِقٍ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ»^(٩)? هنا نقول: لأجل طلب ثار نفسي كيف يكون الإمام الحسين عليه السلام هو دمي؟ معنى أن الإمام الحسين عليه السلام موجود في ديني وتفكيرني وأخلاقي وعقائدي وحياتي الفردية والإجتماعية، وهو الذي يعطيني الحياة.

أو عندما نقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْدُ الشَّاكِرِينَ لَكَ عَلَى مُصَابِهِمُ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَظِيمِ رَزْنِيقِي»^(١٠).

كيف نشكر الله على هذه المصيبة العظيمة؟ وكيف ننسب هذه المصيبة إلى أنفسنا؟ الجواب هو أن مصيبة الإمام الحسين عليه السلام هي مصيبةنا نحن أبناء الحسين عليه السلام، ألم يقولوا: الشيعة والمحبون هم أبناءنا؟^(١١) إذاً صاحب مصيبيته هم أبناءه يعني الشيعة، وأبو الشيعة قد استشهد.

٢ _ عامل الحرارة:

المخصوصية الثانية للحرارة إيجاد الحرارة حيث عندما تنعدم الحرارة سوف لن يكون لدينا حرارة أيضاً. نرى أن الطفل أو الشاب لديه حرارة كثيرة لكن الإنسان كبير السن ليس لديه كل هذه الحرارة؛ لأن أولئك لديهم حرارة وطاقة زائدة وهؤلاء هم سيارة ليس لديها طاقة وحرارة ولا تستطيع الحرارة.

كل هذه النهضات والثورات في المجتمعات الإسلامية نشأت من الحرارة الحسينية. عندما نرى اليوم أيضاً أنه توجد مقاومة في لبنان وفلسطين علتها هي أنها أخذت الدرس من كربلاء وليس من مكان آخر.

ظن الأعداء بواسطة شهادة الإمام الحسين عليه السلام أنه سوف تطفأ الحرارة الحسينية وسوف يصبح الوضع مستقرًا وأمنًا وهادئًا لبني أمية، لكننا نرى أنه لم يطل الأمر أكثر من ثلاثة إلى أربع سنوات، حيث مات يزيد وقام المختار وأعطى ابن زياد وحرملة وعمر بن سعد واليزيديين الآخرين جزاء أعمالهم. هذا إعجاز النبي الأكرم عليه السلام حيث قال: «إن هذه الحرارة لن تطفأ أبداً»^(١٢)، ونرى أنها إلى الآن موجودة. هذه الحرارة فهمها الإنجليز لذلك حاربوا وبارزوا هذه الحرارة في زمان رضا خان وقالوا: ليس لأحد الحق أن يقرأ المصيبة ويعقد مجلساً للمصيبة.

يقول المرحوم السيد عباس الحسيني تسلّل: «في زمان رضا خان في طهران عندما كان نريد قراءة المصيبة كنا نضع صندوق القرآن ونفتح فوقه القرآن حتى إذا دخل مأمور الشرطة يقول: هؤلاء يقرأون القرآن. في أحد الأيام وضعنا صندوق القرآن ووضع القرآن مفتوحاً فوقه. وكان أحد الأشخاص يقرأ المصيبة والبقية يكون، قلت: سأذهب لأرى إذا ما أتى العارس. ذهبت إلى الخارج فرأيت أن العارس في الخارج وقد وضع رأسه على جدار البيت، وكان يبكي بصوت عالٍ على الإمام الحسين عليه السلام.

العجب أن البعض يقول: ما هذا العمل أن تجتمعوا حول بعضكم وتباكون؟ الإنجليز فهموا أن هذا البكاء يسحق أيام الشياطين؛ لأن قراءة المصيبة تُوجِدُ حرارة وأن هذه الحرارة منشأ الحركة في المجتمع؛ لذلك هم يخافون من هذه المجالس!

كتب في خاطرات الشاه أنه في إحدى السنوات صادف عيد النيلوز في أيام محرم، قال الشاه لوزيره علم: يصادف هذه السنة عيد النيلوز شهر محرم، ماذا نفعل؟ قال علم: أصبح محرم شيئاً باليه، وهو يصلح لأجل ألف سنة الفائدة! أنتم اجعلوه عيداً حتى يأتي كل الناس لتقبيل الأيادي. قال الشاه: لا بد أن أسأل والدتي لأن لديها تجربة. عندما قال لوالدته اتجهت إلى علم وقالت: فلان...»^(١٣) أرسلتنا إلى حرب

٣_ إيجاد النور:

اليوم نعلم أن الحرارة والطاقة (القوة) تولّد النور، ولو لم تكن هذه الحرارة

كل شيء وكل شخص، والآن صمّمت على أن ترسلنا إلى حرب الإمام الحسين عليه السلام. واتجهت إلى محمد رضا وقالت: ذلك الرجل (رضا خان) حارب الإمام الحسين عليه السلام وعمل وفق أوامر الإنجليز وحارب قراءة، المصيبة والمحالس الحسينية، وفي آخر الأمر رأيت ماذا نزل به من بلاء!

بعد ذلك قالت والدته: هذه السنة اذهب في عشرة محرم إلى مشهد وابق عشرة أيام هناك وأعلن أنه ليس لدينا هذه السنة عيد. عندما ينتهي عملك ارجع إلى مكانك، الشاه من أجل أن لا تضرب سلطنته ببعضها عمل بهذا الأمر. يقول العارف آية الله السيد رضا بهاء الدين قده: إنّ رضا خان في آخر عمره كان في جزيرة مورييس في حجرة، وقد تعفن بدنـه وكان الأكل يرمى أمامه مثل الحيوان حتى يأكل.

بدأت حرارة العشق الحسيني بدون أي فاصل بعد حادثة كربلاء. أحد أمثلة الحرارة الحسينية عبدالله بن عفيف الأزدي. هذا الشخص كان أعمى عندما دخلت قافلة أهل البيت عليهما السلام المنورة مجلس ابن زياد. كان عبدالله بن عفيف هناك عندما تحدّث ابن زياد ونسب إلى أهل البيت عليهما السلام أموراً فاسدة، فقام وذكر مفاسد ابن زياد ويزيد ودافع عن أهل البيت عليهما السلام. ظن ابن زياد أن قضية كربلاء انتهت. عندما تعرض لعبد الله بن عفيف رأى أن سبعمائة شخص قاموا دفاعاً عنه؛ لذلك توقف عن أي شيء لأنّه عرف أنّ مدينة الكوفة سوف تقوم عليه. لكنه أمر في الليل بأن يُقبض على عبدالله وأن يُؤتى به إلى مجلسه وقال له: سوف أعطيك نتيجة عملك. قال عبدالله: الشهادة افتخارنا والجنيات هي من أعمالك. وهنا أخذ السيف وقاتل حتى استشهد^(١٤).

والطاقة (القوة) موجودة سوف يضي العالم في ظلمة.

حرارة الإمام الحسين عليه السلام أضاءت وتضيء القلوب، ولو نرفع الحرارة الحسينية عن الشيعة لن يكون للمجتمع نور ولن نستطيع معرفة البئر من غير البئر ولا الحق من الباطل. هو نور الإمام الحسين عليه السلام بعنوان: «مصباح المدى»^(١٥) الذي شق ظلمات الفجر وعمل من الدنيا مثل صبح منير ومضيء.

ما دام لديكم الحسين عليه السلام لا خطر أبداً:

كان المرحوم ميرزا أحمد الأشتياياني قتيل قبل الثورة قد خرج في أحد الأيام من منزله ورأى أنّ صور المعول والمطرقة -وهما شعار الشيوعيين- في كل مكان من طهران، فتأذى كثيراً وقال: طهران التي هي عاصمة ومركز الشيعة سقطت في يد الشيوعيين. رجع إلى المنزل وعندما نام في الليل رأى في عالم الرؤيا خيمة في منطقة مني وفيها أهل البيت عليهم السلام. دخل إلى الخيمة وسلم: (السلام عليك يا رسول الله!) وقال: هل تحيزونني أن أدخل الخيمة؟ أجازه عليهما الله في الدخول. نظر فرأى أن أهل البيت عليهم السلام جالسون في صف واحد. وفي الأثناء مدّ رسول الله عليه السلام يده وربّت على كتف الإمام الحسين عليه السلام وقال هذه الجملة: (يا سيد ميرزا أحمد! ما دام رجال إيران لديهم حسيفي لا يهدّهم خطر أبداً).

يقول المرحوم الأشتياياني قتيل: استيقظت من النوم وكانت سعيداً حيث التفت بأنّ محرم قريب. وبعد عدة أيام خرج من المنزل فرأى أنه رُفعت كل صور المعول والمطرقة وقد وضع الأعلام السوداء والأقمصة التي كتبت فوقها كلمات حول الإمام الحسين عليه السلام.

المحبة الحسينية

قال الله الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(١٦).
وقال رسول الله عليه وآله: «إِنَّ لِلْحُسَينِ عَلَيْهِ الْكَلَافَةَ فِي بَوَاطِنِ الْمُؤْمِنِينَ مَعْرِفَةً مُكْتُومَةً»^(١٧).

كلنا نعلم أن الإمام الحسين ع عليه السلام بكل وجوده دخل إلى الميدان حتى يدافع عن التوحيد والدين والرسالة والإمامية وقدّم كل شيء لديه لرب العالمين. أجمل أبعاد كربلاء هو بعدها العرفاني حيث إلى الآن لم يستطع شخص أن يصور البعد العرفاني لكرباء.

نحن لدينا نوعان من الأشربة: أحدهما نجس حيث يأخذ العقل والإرادة من الإنسان ويجعل من الإنسان سكراناً مجnounاً، والشراب الآخر شراب طاهر عرفاني. هذا الشراب شراب ساقى الكوثر، الإمام علي ع عليه السلام يعطيه لمحبيه كما نقرأ في سورة الإنسان: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(١٨).

يقول الإمام جعفر الصادق ع عليه السلام في تفسير هذه الرواية: «يُطَهِّرُهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ»^(١٩) يعني أن هذا الشراب الذي يعطيه الله للإنسان ليس الشراب النجس الدنيوي بل شراب يطهر الإنسان عن أي شيء غير الله. يقول الله في قرآنـه الكريم: ﴿أَوْفُوا بِعِهْدِكُمْ﴾^(٢٠).

أخذ الله المتنان العهد والميثاق من كل الأنبياء ع عليهم السلام في عالم أللست (الذر) - الذي جاء ذكره في بداية دعاء الندبـةـ وقد عملوا بعهدهم وميثاقهم^(٢١). وقد أخذ الله الميثاق والعهد من الإمام الحسين ع عليه السلام وقال: لا بد من أن تكون عبدي الصالح الكامل، وهو ع عليه السلام قد عمل بكل مواثيقه وعهوده بصورة كاملة.

جاء في رواية عن الرسول عليه وآله: «أَجْوَدُ النَّاسِ مَنْ جَادَ بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢٢). الإمام الحسين ع عليه السلام قدّم كل شيء يملكه في طريق الله. وكأنه يقول ع عليه السلام:

«ليس فقط كل ما أملك قدّمه بل عملت من كل الخلق عبيدك أيضاً لو لم تكن عبادي وشهادتي وقيامي لن تجد عبداً واحداً لله. ولذلك نقول: السلام عليك يا أبا عبد الله».

الإمام الحسين عليه استشهد كل أصحابه والدم يجري من بدنه المبارك وغلب عليه العطش وهو يقول أيضاً: «صبراً على قضائك، يا رب! لا إله سواك يا غياث المستغيثين».^(٢٣)

عندما أخبروا الإمام الحسين بشهادة مسلم بن عقيل عليه تلا الإمام الحسين هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر﴾^(٢٤).

مقصود الإمام الحسين عليه هو هذا: أن مسلماً عليه عمل بعده وموافقه، ونحن أيضاً لا بد أن نعمل بميثاقنا وعهدنا بمعنى أن نستعد للشهادة.

كما قلنا عمل الله المنان بقوله ووعده الذي أعطاه للإمام الحسين عليه وأصحابه أيضاً. أحد وعود الله هو ماورد: «مَنْ كَانَ لِلَّهِ كَانَ اللَّهُ لَهُ»^(٢٥) وقد تجلّى هذا الوعد في رواية جميلة عن الإمام جعفر الصادق عليه حيث يقول: «إِنَّ اللَّهَ أُوْحَى إِلَى دَاوُودَ يَا دَاوُودُ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ، وَجَنِّي لِلْمُطَبِّعِينَ وَزِيَارَتِي لِلْمُسْتَاقِفِينَ وَأَنَا خَاصَّةٌ لِلْمُحِبِّينَ»^(٢٦).

تحت نظر الله:

يقول الله: أذكروني عند المعصية. عندما تذكرونني ستعرفون بأن العالم محضر الله وأن الله ينظر؛ ولذلك تحصلون على القوة ولا تعصون.

استهزأوا بالنبي نوح عليه وقالوا: ماذا تعمل بهذه القطع الخشبية؟ هل استعففتم وتتركتم عمل النبوة وتعملون بخاراً؟ لكن الله واساه وسلامه: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنَنَا وَوَحْيِنَا﴾^(٢٧). يعلم نوح بأن الله يرى أيضاً وأن العالم في محضر الله

فأصبح استهزاء الناس بالنسبة له سهلاً ولم يكن لديه غمٌ من شيء.
نعلم أن إحدى المصائب الكبيرة للإمام الحسين عليهما شهادة عبدالله الرضيع عليهما، لأن عبدالله الرضيع عليهما خلاف بقية أنصار الإمام الحسين عليهما حيث لم يكن لديه مقدرة على الحرب، وظهور مظلوميته أشد، ولذلك قال الإمام الحسين عليهما في خطابه:

لَيَتَّكُمْ فِي يَوْمٍ عَاشُوراءَ جَمِيعاً كَيْفَ أَسْتَسْقِي لِطِفْلٍ فَابْوًا أَنْ يَرْحَمُونِي^(٢٨)

سكينة! قولي للناس ولشيعتنا: يا ليتكم كنتم في يوم عاشوراء ورأيتموني وأنا أطلب الماء لأجل عبدالله الرضيع عليهما، وبدل أن يسقوه شربة ماء كان جوابهم السهم المثلث المسموم!

لكن الإمام الحسين عليهما يقول في مورد هذه المصيبة الصعبة الشديدة: «هُونَ عَلَيَّ مَا نَزَّلَ بِي أَنَّهُ بِعِينِ اللَّهِ»^(٢٩).

الاشتياق للزيارة:

قال الثاني: «وزيارتي للمشتاقين» بمعنى أن كل من لديه شوق لقاءي ورؤيتي سيكون من نصبيه. كيف أعرف أن لدى شوقاً للقاء الله؟ أحد علاماته وقت الصلاة: إذا كنت أصلي أول الوقت، وعند الصلاة أكون بنشاط وحيوية، وفي آخر الصلاة لدى غمٌ وغصة فأنا إنسان مشتاق. قال الرسول عليهما السلام لبلال: «أرِخنا يا بلال»^(٣٠) أنا لست مرتاحاً لأنه جاء وقت الصلاة، إذهب وأذن حتى أنس بصلاتي لعشوقي. هذه عالمة المشتاق!

وفي رواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق عليهما: «المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا يتذمُّ بشرابٍ ولا يستطيبُ رقاداً ولا يأنسُ حميماً ولا يأوي داراً ولا يسكنُ عمراناً ولا يلبسُ ليناً ولا يقرُّ قراراً»^(٣١).

هذه علامات المشتاق، بعد ذلك قال: «إن الله قال لموسى عليهما: يا موسى لدينا

لقاء لمدة ثلاثين ليلة. وعندما عرف النبي موسى عليه السلام أنها أربعون يوماً لا أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهر شيئاً^(٣٢).

معنى أن الإنسان المشتاق يصبح من شدة شوقه هكذا.

نار المحبة:

في رواية أخرى يقول الله لداود: «وأنا خاصة للمحبين»^(٣٣).

أيضاً يوجد في رواية عن الإمام علي عليه السلام: «حُبُّ اللهِ نَارٌ لَا يَمْرُّ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا احْتَرَقَ»^(٣٤).

كيف تحرق النار الخشب وتبدلها إلى رماد؟ إذا جاءت محبة الله في وجود إنسان تذهب أدرج الرياح كل الأمور المحبوبة له من قلبه والمتعلق بها، ويحرق كل شيء غير الله، تذهب الشهوة والغضب والدرهم والدينار!

الإمام جعفر الصادق عليه السلام يعرّف الحب هكذا: «المُحِبُّ أَخْلَصُ النَّاسِ، سِرُّ اللهِ، وَأَصْدَقُهُمْ قَوْلًا، وَأَوْفَاهُمْ عَهْدًا، وَأَزْكَاهُمْ عَمَلاً، وَ...»^(٣٥).

إذا كنت تريد أن تجد أخلص إنسان في العالم، أن تجد الإنسان صاحب العمل والنفس المالصين فهو الإنسان الحب، حب الله. ومحب أهل البيت عليهما السلام، هو أخلص وأوفي بني الإنسان، كلامه أصدق كلام. وعندما ترى ملائكة الله المحبين تفترخ لأنهم نالوا زيارته.

إذا الإنسان لم يجلس في فصل الحبة فإن له نواقص كثيرة. لا عارف ولا واصل ولا مؤمن كامل.

المحبة مخفية في باطن المؤمنين:

وفى الله بوعده للإمام الحسين عليه السلام، وغرس الحبة الفطرية العالية في قلب أنصاره وفي كل بني الإنسان المؤمنين. يقول الرسول الأكرم عليهما السلام: «إإن للحسين عليه السلام في باطن المؤمنين معرفة مكتومة»^(٣٦).

محبّة الرسول ﷺ:

معنى أنَّ الله تعالى جعل في قلوب المؤمنين والشيعة معرفة ومحبة ذاتية للإمام الحسين عليهما السلام، ومن الممكن أن يقال إنها أشدُّ من محبته وأعلى منها.

نحن لو نظرنا إلى صفات حرم وشهر رمضان أو صفات العبادات والجهاد والمحج ومعطي الخامس والزكاة، وقسناه بصفات الذين يشاركون بأموالهم لأجل الإمام الحسين عليهما السلام سترى أنَّ محبّي الإمام الحسين عليهما السلام كانوا دائمًا أكثر. هل الموضوع أنَّ التبليغ لعشوراء أكثر من التبليغ للأمور الأخرى؟ لا، الموضوع شيء آخر وهي الحبّة. غرس الله المنان الحبّة لشخصٍ واحدٍ وهو الإمام الحسين عليهما السلام في قلوب المؤمنين بحيث أخذت السيطرة من يدهم ويعطون أموالهم في هذا الطريق، يعطون الأرواح ويلطمون الرأس والوجه والصدر، يبقون متيقظين، وهم في كل الأحوال سعداء.

هكذا جاء في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليهما السلام في بيان محبّي الإمام الحسين عليهما السلام في يوم القيمة: «في يوم القيمة سيكون أبو عبدالله الإمام الحسين عليهما السلام موجوداً في العرش والمحبون والبكاؤون حوله. الكل مجتمع في العرش. خلق الله المثان الحور العين من أجل محبي الإمام الحسين عليهما السلام وجعلهم تحت اختيارهم وهم حُدّاثُ الحُسين عليهما السلام، لكن هؤلاء الأشخاص يتحدون مع الإمام الحسين عليهما السلام ولا يلقو نظرة على أزواجهم من أهل الجنة، فيشتكي حور الجنة ويقولون: إهنا! منذ أن خلقتنا لم ينظروا لنا نظرة واحدة. يقول لهم الله: أرسلوا شخصاً حتى يصل لهم خبركم. وهم يرسلون شخصاً أيضاً. وعندما يصل المرسل من أجل إيصال الرسالة، محبو حضرته عليهما السلام هذه الدرجة كانوا فانين في جمال الإمام الحسين عليهما السلام بحيث أنهم لا يرتفعون رؤوسهم لكي يروا المرسل ماذا يقول»^(٣٧).

هذه الحبّة منحصرة بشخص واحد، وهذه الحبّة لمحبّي وعشاق الإمام

الحسين عليهما السلام فقط، حتى الرسول الأكرم عليهما السلام ليس مستثنى من هذه الحبة. في أحد الأيام كان الرسول الأكرم عليهما السلام فوق المنبر يخطب ويعظ، فجأة دخل الإمام الحسين عليهما السلام المسجد. النبي الأكرم عليهما السلام نزل مسرعاً إلى جهة الإمام الحسين عليهما السلام وأخذه إلى حضنه. جاء إلى ذهن الأصحاب سؤال: كيف عمل النبي الأكرم عليهما السلام هكذا مع كل هذه الكلمات؟ جاؤوا إلى الرسول الأكرم عليهما السلام وقالوا: يا رسول الله ما هذا العمل الذي فعلته؟ قال النبي الأكرم عليهما السلام: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا دَرَيْتُ أَنِّي نَزَّلْتُ عَنْ مِنْبَرِي»^(٣٨).

معنى أن الله غرس في قلبي أنا النبي محبة خاصة للإمام الحسين عليهما السلام أيضاً.

كما جاء في الرواية: عند رحيل الرسول الأكرم عليهما السلام رأوا أن الإمام الحسين عليهما السلام جاء وجلس على صدر الرسول الأكرم عليهما السلام، وأنه يقال لا تضع شيئاً على صدر المحتضر حتى لا يكون ثقيلاً عليه، أرادوا رفعه لكن الرسول عليهما السلام فتح عينيه وقال: «مالي ولزيذ لا بارك الله فيه»^(٣٩).

معنى أن الرسول الأكرم عليهما السلام ذكر أن الشمر في لحظة يجلس على صدر الإمام الحسين عليهما السلام.

يقول المقداد: عندما أتم الرسول عليهما السلام صلاته سرنا معه إلى جهة المنزل. في ذلك الوقت أخبرت فاطمة الزهراء عليهما السلام الرسول بأن الحسن والحسين عليهما السلام موجودين وليس معلوماً أين ذهبا. نحن ذهبنا مع الأصحاب لإيجاد قرطي العرش الإلهي -أي الحسن والحسين-. ذهبنا حتى وصلنا إلى مكان. رأيناهم نائمين. ذهب الرسول الأكرم عليهما السلام بصورة هادئة إلى قرب رأس الإمام الحسين عليهما السلام وجلس على رجليه، وبرفق رفع رأس الإمام الحسين عليهما السلام عن الأرض وجعله فوق رجليه المباركتين. وبعد ذلك رأيته قد انحنى ثم جعل برخي لسانه في فم الحسين.

فقلت: كَانَ الْحُسَيْنَ أَكْبَرُ.

وما إن سمع النبي الأكرم ﷺ هذه الجملة حتى قال «إِنَّ لِلْحُسَيْنِ فِي بَاطِنِ الْمُؤْمِنِ مَعْرِفَةً مُكْتَوَمَةً»^(٤٠).

يعني أن الله جعل محبة وعشقاً خاصاً في قلوب المؤمنين للحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ وأنا من المؤمنين، وقد جعل الله هذه المحبة والمعرفة في وجودي أيضاً. نفهم من خلال هذه القضية أن الله المنان أودع في قلوب المؤمنين محبته؛ يعني أنه أودع في قلوب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وقلوب الأولياء وقلوب الأوصياء وقلوب الملائكة وقلب كل الوجود محبة الإمام أبي عبدالله الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ. لذلك الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ يبقى خالداً، كربلاء الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ تبقى خالدة، هدفه وكلامه يبقيان خالدين؛ لأن الله المنان جعل محبته في قلوب المؤمنين.

مقططفات

رفع الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ السيف لحماية الولاية:

يقول العارف الواعظ الشيخ حسين خوش لهجة عَلَيْهِ الْكَلَامُ: بعد معاوية أصبح ابنه يزيد الخليفة. أرسل رسالة إلى والي المدينة وقال له: خذ البيعة من الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ، وفي حال امتناعه أقتله. ذهب الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ مع شباب بني هاشم إلى دار الخليفة، ولأنه لم يعط البيعة عزماً على قتله لكن عندما عرفوا أن بني هاشم في الخارج تركوا أمر قتله. عزم الإمام الحسين عَلَيْهِ الْكَلَامُ في الليل مع عائلته على أن يخرجوا من المدينة، لماذا؟ لأن روحه في خطر. وعندما سأله الأقرباء عن علة خروجه قال إن النبي الأكرم ﷺ قال: «أُخْرُجْ إِلَى الْعَرَاقِ فَإِنَّ اللَّهَ شَاءَ أَنْ يَرَاكَ قَتِيلًا...»^(٤١).

يحب الله أن يراك شهيداً وآل الله أسراء. تحركت القافلة إلى مكة، لماذا؟ لأن مكة حرم أمن الله، وعلى الظاهر هو وعائلته في أمان. وصار الثامن من ذي الحجة

وجاء المسلمين لتأدية مناسك الحج.

جاء مأموروا يزيد بلباس الإحرام مسلحّين حتى يقتلوا الإمام الحسين عليه السلام في زحام الحج؛ لذلك بعد الزيارة حول الإمام الحسين عليه السلام الحج إلى عمرة وخرج من مكة، لماذا؟ لأن الله أَنْ يَقْرِئُ الْحَرَمَ آمِنًا، وإذا قتل الإمام الحسين عليه السلام في مناسك الحج سوف تحدث أمنية بيت الله. فاتجه الإمام الحسين عليه السلام نحو الكوفة، لماذا؟ لأن أهل الكوفة دعوا الإمام الحسين عليه السلام إليها للإمامية. قرب الكوفة اعترضهم الحُرُّ بجيشه ومنع الإمام الحسين عليه السلام من المركبة نحو الكوفة. أرى الإمام الحسين عليه السلام الحُرُّ رسائل أهل الكوفة لكن الحُرُّ قال: ليس لدى علم بهذه الرسائل ولم أدعك للمجيء. قال الإمام الحسين عليه السلام: الآن ما دمت تتعني من الذهاب إلى الكوفة دعني أرجع إلى المدينة أو أخذ طريقاً آخر. لكن أمير الجيش لم يعط الإمام إجازة الذهاب وقال: انتظر أمر ابن زياد.

(لا بدّ من الالتفات إلى أنه لو أعطاه الإجازة بالذهاب واقعاً فسيأخذ الإمام الحسين عليه السلام أحد الطريقين للذهاب). يوم عاشوراء عندما اصطف الجيشان (جيش يتكون من ثلاثين ألف شخص وآخر من اثنين وسبعين شخصاً) لم يُعطِ الإمام الحسين عليه السلام لجيشه الإذن ببدء الحرب حتى قُتلت مجموعة من الاثنين والسبعين واستشهدوا بسبب رميهم بالسهام. هنا أعطى الإمام الإذن بالدفاع ومقابلة جيشه.

معركة ليست متكافئة القدرات. الأصحاب ذهبوا واحداً بعد واحد بإجازة الإمام الحسين عليه السلام إلى الميدان واستشهدوا، حتى علي الأكبر عليه السلام الذي هو «أشبه الناس خلقاً وخلقها ومنظماً برسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه»^(٤٢) استشهد. الإمام الحسين عليه السلام بمساعدة شباب بني هاشم أخذ إلى الخيمة لكنه لم يحمل على القوم أو يحمل السيف حتى استشهد القاسم عليه السلام أبي الفضل عليه السلام حامل الراية بالغيلة. جاء الإمام

الحسين عليه السلام قرب جسد أبي الفضل عليه السلام وودعه. لم يُر الإمام الحسين عليه السلام أيضاً في حال قتال مع الأعداء. الكل استشهد حتى آخرهم. أخذ الإمام الحسين عليه السلام رضيعه عبدالله الرضيع إلى الميدان وطلب له الماء فقتلوه برمي سهم المثلث بعنقه واستشهد. أخذ الإمام الحسين عليه السلام جسده المقدس ودفنه بهذا الوقار والهيبة حتى جاء الإمام الحسين عليه السلام وحيداً إلى الميدان وخاطب الجيش ونصحه، وجدير هنا أن نقول: «وأشهدُ أنَّكُمْ الائِمَّةُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدُونُ...»^(٤٣).

حتى قال: هل حلت حراماً أو حرمت حلاً حتى تقتلوني؟ عندها أجابه الجيش: نقتلك بغضنا مثلك على الله! تأثر الإمام الحسين عليه السلام من جوابهم وبدأ القتال معهم ورفع السيف على الأعداء حتى وصل الجيش إلى أن يتتحقق قرب الكوفة، لماذا؟ لأن هداية الجيش هي هدف الإمام الحسين عليه السلام ولم يتحقق بل تجاسروا على مقام الولاية الشامخ وعلم هداية الله الإمام علي عليه السلام، وأظهروا ارتدادهم عن الدين. وبعد أن أظهروا ارتقادهم حمل عليهم. وهذه الحملة من الإمام الحسين عليه السلام التي استغلت غفلة الجيش أدت إلى تراجع جيش عمر بن سعد، وهي (أي الشجاعة) شاعر صغير من إظهار عظمة الولاية، لماذا؟ لأن الإمام الحسين عليه السلام رفع السيف من أجل حماية هدف الله ومقصده وهي (الولاية).

على أنه بالتحقيق بصورة إجمالية في حركة الإمام الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى كربلاء وكلماته طيلة هذا السفر ومرافقته كل العائلة حتى طفله الرضيع و مقابلته مع الحُر ونصحه له وكيفية بدء الحرب في يوم عاشوراء، أين يوجد (في كل هذا) رسالة تحكي عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام؟! ومن المستحسن أن نشير هنا إلى أننا نعتقد بأن الإمام صاحب الزمان عليه السلام سيقوم بالسيف.

هل بواسطة أدوات الحرب المتقدمة من الأسلحة الذرية والبيولوجية والجنود

سوف ينتصر الإمام صاحب الزمان عليه السلام أم لا؟!

نعم، لأن الإمام ولي الله عليه السلام ولأن كل الوجود مسلم له، الأرض والسماء والذرة وكل الوجود في خدمته، وإرادته إرادة الله، وكما يقول حافظ ماترجمته: السهام التي من سمائه من فيضه يأخذ كل العالم بدون منة جيش نعم، إذا أراد ولي الله عليه السلام وإذا قام سيكون كل الوجود في كفه الكافية وفي خدمته. قيام ولي الله عليه السلام وخسارته خلاف للسنة الإلهية، وهو (القول بأن أبا عبد الله الحسين عليه السلام قام وغلب) ناشيء عن عدم المعرفة حيث قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إرادتنا إرادة الله»^(٤٤)، وقال الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء: «إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيف خذيني»^(٤٥).

السيف والسهم ليسا بشيء، الوجود مسلم لولي الله وبدون إذنه لا يعمل شيئاً. وهذه سيرة وطريقة الأئمة الموصومين عليهم السلام لأجل هداية الخلق، ونافذة ابتلاء واختبار المخلوق لأجل الرشد والتكامل، والسير إلى الله مترافق بالاختيار. لماذا؟ لأن سنته الله أن لا يسلب الإنسان الاختيار والإرادة حيث قالت السيدة الزهراء عليها السلام نقلأً عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه: «مَثُلَّ عَلَيْيِّ مَثَلُّ الْكَعْبَةِ»^(٤٦)، ولا بد على الناس أن تذهب (للرشد والتكامل وتتصبح من أهل الغيب) للطواف حول الكعبة.

لو يرى السالكون العاشقون زاوية من كربلاء لـ...:

يقول آية الحق السيد هاشم الموسوي الحداد رض: بالرغم من أنه يوجد إلى حد الآن كثير من القراءات لثقافة عاشوراء لكن الغالب في قراءات محالف عزائنا هو القراءة العاطفية والمأنيّة. القراءة العرفانية لهذه الثقافة هي المخالدة، والقيمة حيث يوجد في هذه الثقافة أمور جاذبة لا توجد في القراءات الأخرى. في القراءة العرفانية صورت الصبغة الإلهية والعالم السابق لعالم (الست) عاشوراء في غاية الجمال. وأصل الواقعية العميقه في كربلاء ليس في المدينة والشام بل تصورت في



عالم الذر عندما أخذ الله العهد من الإنسان وسؤاله. لأجل معرفة السر المستور في كلمة السيدة زينب عليها السلام، من التفكير والتحقيق والتأمل كيف أن هذه السيدة العظيمة وهي في وسط الطوفان المهيّب في مركز غطرسة وتسليط حكومة بني أمية حيث قالت: «ما رأيت إلا جيلاً»^(٤٧) جعلت الأعداء في حيرة؟!

في القراءة العرفانية يصل إلى مشامنا عطر ورد نفس المعرفة والمحبة، ونعرف سر العشق العظيم والشهادة العظيمة وفتلى من اليقين الزلال بأن الإمام الحسين عليه السلام عاشق الله الأبدي وأنه محبوب الله السرمدي. والشهادة هي الوسيلة الوحيدة التي جعلت في اختيار عاشق الله لأجل وصوله إلى محبوبه في مشهد عاشوراء. يوجد في ساحة عاشوراء أفضل منظر لتبادل العشق وأجمل مظاهر الجمال والخلال الإلهي وأحسن مظاهر أسماء الرحمة والغضب بالنسبة لأهل البيت عليهم السلام. لم يكن يوجد غير العبور من الدرجات والمراتب والوصول إلى أعلى ذروة في الحياة الخالدة، والابتعاد عن المظاهر، والتحقق في أصل الظاهر، والفناء المطلق في الذات الأبدية. يوم الانتصار والظفر وقبول الدخول في الحرم الإلهي وحرم الأمن والأمان، يوم العبور من الجزئية والدخول في عالم الكلية، يوم النصر والنجاح، يوم الوصول إلى المطلوب والغاية والهدف الأصلي هو يوم لو يرى السالكون والعاشقون لطريق الله زاوية منه لأصبحوا في كل عمرهم في حالة دهشة من شدة وفترط السعادة ولسجدوا مرة واحدة سجدة تطول إلى يوم القيمة. هكذا أغفلت حبّة الدنيا عيون وآذان الناس الغافلين بحيث إنهم سوف يتأسفون على أن القتل لم يكن موتاً بل هو عين الحياة الأبدية ولم يكن انقطاع عمر بل هي حياة سرمدية.

- (١) هذا هو القسم الثاني لموضوع (عوامل خلود كربلاء)، وقد تقدّم القسم الأول منه في العدد (٣٧) من هذه المجلة.
- (٢) سورة البقرة، الآية ١٦٥.
- (٣) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي ج ١٢ ص ٥٥٦.
- (٤) المصدر السابق.
- (٥) بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٥٩ ص ٢٩٠.
- (٦) بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٧٢ ص ٢٦٥.
- (٧) زيارة عاشوراء، بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٩٨ ص ٢٩١.
- (٨) جاء في لسان العرب: الثأر: الطلب بالدم، وقيل: الدم نفسه. وفي مجمع البحرين: الثأر والثؤرة: الذحل، يقال ثارت القتيل ثأرًا وثؤرة أي قتلت قاتله، وقوفهم بالشارات فلان أي قتلة فلان. والثائر: الذي لا يقي على شيء حتى يدرك ثأره. وفي مخاطبة الإمام حين الزيارة أشهد أنك ثار الله وابن ثاره، ولعله مصحف من ياثير الله وابن ثائره، والله أعلم.
- (٩) زيارة عاشوراء، بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٩٨ ص ٢٩٥.
- (١٠) زيارة عاشوراء، بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٩٨ ص ٢٩٣.
- (١١) خاتمة المستدرك، الميرزا النوري ج ٥ ص ١٤.
- (١٢) جامع أحاديث الشيعة، السيد البروجردي ج ١٢ ص ٥٥٦.
- (١٣) كناية عن سببه وشمته.
- (١٤) بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٤٥ ص ١١٩ - ١٢١.
- (١٥) مدينة العاجز، السيد هاشم البحريني ج ٤ ص ٥٢.
- (١٦) سورة الإنسان، الآية ٢١.
- (١٧) بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٤٣ ص ٢٧٢.
- (١٨) سورة الإنسان، الآية ٢١.
- (١٩) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني ج ٥ ص ٢٦٥.
- (٢٠) سورة البقرة، الآية ٤٠.
- (٢١) بحار الأنوار، العالمة الجلسي ج ٩٩ ص ١٠٤: «بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا وزخرفها وزبرجها فشرطوا لك ذلك، وعلمت منهم الوفاء به».

- (٢٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٤١ ص ٤١ .٢٤
- (٢٣) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام ص ٦١٥ .
- (٢٤) سورة الأحزاب، الآية ٢٣ .
- (٢٥) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧٩ ص ١٩٧ .
- (٢٦) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ١٤ ص ٤٠ .
- (٢٧) سورة هود، الآية ٣٧ .
- (٢٨) موسوعة شهادة الموصومين عليهما السلام، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام ج ٢ ص ٣٢٥ .
- (٢٩) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٤٥ ص ٤٦ .
- (٣٠) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧٩ ص ١٩٣ .
- (٣١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٦٧ ص ٢٤ .
- (٣٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٦٧ ص ٢٤ .
- (٣٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٧٤ ص ٤٢ .
- (٣٤) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٦٧ ص ٢٣ .
- (٣٥) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٦٧ ص ٢٣ .
- (٣٦) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٤٣ ص ٢٧٢ .
- (٣٧) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج ٤٥ ص ٤٥ - ٢٠٦ : "...والخلق يعرضون وهم حداث الحسين عليه السلام تحت العرش وفي ظل العرش لا يخافون سوء الحساب يقال لهم: أدخلوا الجنة، فيأبون ويختارون مجلسه وحديثه. وإن المحور لترسل إليهم أنا قد اشتقتكم مع الولدان المخلدين فما يرتفعون رؤوسهم إليهم لما يرون في مجلسهم من السرور والكرامة. وإن أعداءهم من بين مسحوب بناصيته إلى النار ومن قائل: "ما لنا من شافعين ولا صديق حميم"، وإنهم ليرون منزلهم وما يقدرون أن يدنو إليهم ولا يصلون إليهم. وإن الملائكة لتأتيهم بالرسالة من أزواجهم ومن خزانهم على ما أعطوا من الكرامة فيقولون نأتيكم إن شاء الله فيرجعون إلى أزواجهم بفقلاتهم فيزدادون إليهم شوقاً إذا هم خبروهم بما هم فيه من الكرامة وقربهم من الحسين عليه السلام فيقولون: الحمد لله الذي كفانا الفزع الأكبر وأهواه القيامة ونجانا مما كنا نخاف. ويعتون بالمرأكب والرحال على النجائب فيستوتون عليها وهم في الثناء على الله والحمد لله والصلوة على محمد وعلى آله حتى ينتهوا إلى منازلهم".

- (٣٨) بحار الأنوار، العلامة الجلسي ج ٤٣ ص ٢٩٥.
- (٣٩) بحار الأنوار، العلامة الجلسي ج ٤٤ ص ٢٦٦.
- (٤٠) بحار الأنوار، العلامة الجلسي ج ٤٣ ص ٢٧٢.
- (٤١) العوالم، الإمام الحسين، الشيخ عبدالله البحريني ص ٢١٤.
- (٤٢) بحار الأنوار، العلامة الجلسي ج ٤٥ ص ٤٣.
- (٤٣) بحار الأنوار، العلامة الجلسي ج ٩٩ ص ١٢٨.
- (٤٤) الكافي، الشيخ الكليني ج ٤ ص ٥٧٧: «إرادة الرب في مقدار أمره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم والصادر عما فصل من أحكام العباد».
- (٤٥) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، السيد جعفر مرتضى ج ٣ ص ١١٢.
- (٤٦) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشبي ج ٢٢ ص ٥٢٥.
- (٤٧) بحار الأنوار، العلامة الجلسي ج ٤٥ ص ١١٦.



فاطمة الزهراء صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهَا موجودة في أرض قم

(القسم الثاني)^(١)

الشيخ محمد صالح مهدي

الشباهة التاسعة: المواقف في الدفاع عن الإمامة

من أسمى المواقف التي ترفع من قيمة الإنسان هي دفاعه عن دينه وعقيدته وعن إمام زمانه الذي يمثل محور عقيدته التي يعتقد بها، وحجة الله على خلقه وهو سبب بقاء وديومة الحياة، فبذلك العمل يكون الدين مستمراً دائماً قائماً.

ومن أبرز المواقف التي جرت في الإسلام وذكرها التاريخ لنا هو جهاد المرأة وتضحياتها على مر العصور، فهي الركن الثاني المكمل لدور الرجل ولها القدرة على التأثير في القضايا لشأنيتها الخاصة التي تؤهلها للاختصاص بذلك، ومن بين تاريخ تلك التضحيات فاقت السيدة

الزهراء عليها السلام في ذلك الجهد كل النساء براتبه ووصلت لأعلاها، وهو الذي قتل في دفاعها عن إمام زمانها علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يمثل بقية الدين وحلقة الوصل بين الإمامة والنبوة، وهي في ذلك سارت على نهج أمها خديجة التي جاهدت قريش وساندت زوجها رسول الله عليه السلام وهو إمام ذلك الزمان، وما كل ذلك إلا لكون الزهراء أعرف الناس بن يكون علي عليها السلام وأنه الحق الذي يدور معه حيث دار، والمهم في الأمر هو أنها لم تعتبر جهادها من ضربها ولامن مسألة فدك أيضاً مسألة شخصية، ولم تكن إيجابتها القوم من وراء الباب تصرفًا شخصياً، بل كان كل ذلك تصرفًا ربانياً ودفاعاً عن الإمامة والخلافة التي يراد اغتصابها فهي تدرك أي مقام هذا الذي يريدون اغتصابه، فكانت تريد منع تشريع هذا الاغتصاب، ثم التخلص والتملص من تبعات سلبياته.

نعم، خرجت الزهراء لهم ومانعتهم ووقفت الموقف العظيم الذي كان هو قطب المواقف، فهي التي صبرت على الهجوم على منزها وحرق دارها وضررها ولطمها إلا أنها لم تقبل بقود الإمامة وقتلها وأخذ الخلافة الإلهية، حتى أنها جاءت إلى قبر الرسول عليه السلام وهمت بالدعاء على الغاصبين لو لا أن أمير المؤمنين قد رفض ذلك وأنقد برفضه القوم الذين لا يستحقون ذلك الإنقاد هلكوا وابيدوا، وكان ذلك من أعظم المواقف التي وقفتها عليها السلام. تقول الرواية: «قال علي عليها السلام لسلمان: أدرك ابنة محمد عليه السلام، فإني أرى جنبي المدينة تكشفان، والله إن نشرت شعرها، وشققت جيبيها، وأتت قبر أبيها وصاحت إلى ربها، لا يناظر بالمدينة أن يخسف بها وعن فيها... فأدركها سلمان عليه السلام»، فقال: يا بنت محمد! إن الله بعث أباك رحمة فارجعي. قالت: ياسلمان! يريدون قتل علي، ما على علي صبر، فقال سلمان: إني أخاف أن يخسف بالمدينة، وعلى عليها السلام بعضك يأمرك أن ترجع إلى بيتك. قالت: إذاً أرجع وأصبر وأسمع له وأطيع»^(٢). وفي ذلك يقول إمامنا الباقر عليها السلام: «والله لو نشرت شعرها لما توا طرا»^(٣).

وكذلك سارت على هذا الخط ابنتها السيدة فاطمة الموصومة عليها السلام، تلك التي اعتصر قلبها من الألم ولوحة الفراق لما علمت بأن إمام زمانها وأخيها الإمام الرضا عليه السلام سيغادر من المدينة بالرغم لا بالرضا مقهوراً تاركاً عياله وأخواته وابنه الصغير الإمام الجواد عليه السلام، وكل ذلك بطلب من عدو الله وعدو رسوله المأمون لعنة الله عليه الذي اغتال والده -هارون الرشيد- والدتها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

وقد علمت من خلال ما جرى من تصرفات الإمام الرضا عليه السلام قبل سفره وإقامته مجلس العزاء على نفسه قبل رحيله بأنه لن يعود، فكانت في جملة الباكين عليه في ذلك المجلس، ولذا لم تكتف بوداعه بل بقيت تنظر إلى شخصه حتى فقدت خياله، يقول الحقن الشيخ محمد علي المعلم رحمه الله: "حدثني أحد أساتذتي الأجلاء بأنه سمع أوقرأ في كتاب أنه لما سار ركب الإمام عليه السلام من المدينة صعدت السيدة فاطمة الموصومة عليها السلام على السطح، وبقيت تنظر إلى أخيها وهو يمشي حتى غاب عن عينيه".^(٤)

وهذا الموقف يحمل من الدلالات شيئاً كثيراً، ويبين مدى قوة الصلة بين الأخ وشقيقته، كما يدل على مدى آثار لوعتها بفراقه وحزنها عليه. وليس هذه الصلة الوثيقة بين الشقيقين مجرد الرابطة النسبية وأنهما يلتقيان في أب واحد وأم واحدة كما قد يتصور، وإنما هي لعلهما ومعرفتها عليها السلام بقامة الإمام ومعناها، المتمثلة في أخيها الإمام الرضا عليه السلام وإدراكها الخطر البالغ الذي سيواجه الدين ويقصم ظهر الإسلام إن فقد أو استشهد حجة الله في أرضه.

ثم إنه بعد أن هاجها غيابه وخوف اغتياله من قبل المأمون، قررت السفر إليه، وتحمل جميع أعباء السفر بقطع تلك المسافة العظيمة جداً والخطرة من المدينة حتى خراسان من أجل معرفة أحوال إمامها والدفاع عنه من ظلم الأرجاس، حتى

عانت ما عانت في الطريق -من قتل العباسين لإخوتها- الأمرّين، وتعرضت قافتلها للماسي والويلات وكل ذلك احتسبته في سبيل الله والدفاع عن الإمامة، فأشاع بعض ولة المؤمن فيهم خبر موت أخيها الرضا عليه السلام، وقدم لها السم على بعض النقولات، فحال ذلك بينها وبينه.

الشباهة العاشرة: الابتلاءات

من أهم الأمور التي تؤكّد عليها الروايات في رفع مقام الإنسان المعنوي هو تحمله للابتلاءات والمصائب واجتيازه لهذا الاختبار العظيم، فإن الله إذا أراد أن يرفع مقام إنسان امتحنه وصب عليه صنوف وأنواع الابتلاءات ليعرف قوة مناعته الإيمانية ومدى صبره وتحمله فيرقى به بذلك درجات.

ويقول التاريخ إن أقسى وأعظم أنواع الابتلاءات التي مرت في البشرية هي التي مرت على أهل بيت العصمة عليه السلام في تاريخهم الحافل بالماسي والآلام، ومن أقسى تلك المصائب عليهم عليه السلام أن الأيدي الآثمة قد تجاوزت الحد في خصومتها وعدوانها عليهم، لتجاوز الأعراف والعادات، فتمتد لتهتك حرماتهم، وتكشف أستارهم، وتعتدى على نسائهم بالضرب والسلب والنهب والأسر والتشهير. فإنه ليس بعد قتل المعصوم ما هو أفظع وأفعع مما جرى على بنات الرسالة وعقالئ الوحي ابتداءً من ما جرى على جدتهم عليها السلام الزهراء وحتى آخرهم، فإذا كان المتآمرون في السقيفة قد وضعوا الأساس حين استطالت أيديهم فضربوا الزهراء عليها السلام، وهي بضعة النبي صلوات الله عليه وآله بالسيف ولطموها على خدها ووكروها بالسيف وأسقطوا جملها في وحشية لم يوجد لها مثيل، فإن بنى أمية وبني العباس جاؤوا ليكملاوا ما تبقى من حلقات هذا المسلسل، فجرى ما جرى في كربلاء والشام على نساء الحسين عليه السلام ما يندى له الجبين، ويعتصر له القلب من عظام لا يسع المقام لذكرها، واستمر ذلك على حرمهم بعد استلام العباسين الحكم حتى

زمان سيدتنا العصومة عليها السلام، فقد خرج محمد بن جعفر في زمان الرشيد أو المأمون (كما هو متافق عليه بين الرواية)، وأعلن الدعوة إلى نفسه، وقد حذر الإمام الرضا عليه السلام من مغبة ذلك وأخبره بأنه أمر لا يتم وأن حركته فاشلة، فأرسل العباسيون جيشاً بقيادة عيسى بن يزيد الجلودي لعمدة وأمروه إن ظفر به أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل أبي طالب، وأن يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهم إلا ثوباً واحداً، ففعل الجلودي ذلك، وقد كان [ذلك بعد] مضي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، فصار الجلودي إلى باب دار أبي الحسن الرضا عليه السلام [و] هجم على داره مع خيله، فلما نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلهن في بيت ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن عليه السلام: لا بد من أن أدخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين، فقال الرضا عليه السلام: أنا أسلبهن لك، وأحلف أن لا أدع لهن شيئاً إلا أخذته، فلم يزل يطلب إليه ويحلف له حتى سكن، فدخل أبوالحسن الرضا عليه السلام فلم يدع عليهن شيئاً حتى أقراطهن وخلالخيلهن وأزرهن إلا أخذه منها، وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير^(٥). فكيف تتصور حال الإمام الرضا عليه السلام وهو يرى بنات رسول الله قد سلن من كل شيء، وما حال تلك النساء المروعات. فهذا شيء يسير ورد لنا من معاناة السيدة العصومة عليها السلام وأخواتها وأهل بيتها من ظلم وترويع وسيبي منذ صغر سنها، وهو الذي جعل أيام حياتها قصيرة ممتزجة بالآلام والماسي.

فقد فتحت السيدة العصومة عينيها على الدنيا في أيام مهنة أبيها الكاظم عليه السلام، وقد أحاطت به البلايا والسجون وهي في صغر سنها، حتى سمعت بخبر شهادة أبيها عليه السلام مسموماً غريباً محمولاً على نعش تحوطه السلال والأغلال وهو الذي أفعنها، وما تلا ذلك من أحداث مريرة تعتصر لها الأفئدة تحرقاً، فرأى تلك الأخطار التي تحدق بأهل هذا البيت عليهم السلام، ولكنها تدرك بأن

هذه القضايا جذوراً تتدلى إلى زمان جدتها الزهراء علیها السلام، فمن ذلك اليوم الذي عانت فيه أمها فاطمة علیها السلام آلام الظلم والعدوان، ومن ذلك اليوم الذي نحي فيه جدها أمير المؤمنين علیه السلام عن منصب الإمامة أصبح أهل هذا البيت عرضة لظلم الظالمين وتعدي الغاشيين.

وبعد شهادة أبيها ينتقل أخيها إلى خراسان حيث الغربة والعنااء وفرق الأهل، وهو الذي جعل قلبها يعتصر الألم ولوحة الفراق، لكونه لن يعود لها بعد ذلك اليوم، فقامت وأعدت العدة للسفر له بعد عام من غيابه في ركب قوامه اثنان وعشرون شخصاً ضم بعض إخواتها وفي طليعتهم السيد أحمد ومحمد والحسين أبناء الإمام الكاظم علیه السلام (كما في بعض المصادر)، وبعض أبنائهم وغلمانهم، فساروا يقطعون القفار واتخذوا من الطريق المؤدي إلى قم مساراً لهم إلى طوس.

ولكن ما إن وصل ركبهم لساوة - وهي بلدة لا تبعد كثيراً عن قم - حتى حاصر الركب من قبل ولاة المؤمنون، ودخل الطرفان في معركة دامية مؤلمة، وذكر أنهم أشعروا فيهم أنه إذا كان الغرض الوصول إلى لقاء الرضا فإن الرضا قد مات، الأمر الذي قد أدى إلى زعزعة أفراد هذا الركب وتشتت شمله وتفرقه في أطراف البلاد، فقتل وشرد كل من فيه وكان ذلك كله برأي من السيدة فاطمة المعصومة علیها السلام حين شاهدت مقتل إخواتها وأبنائهم صرعاً قد قطعت أجسادهم، ورأت تشرد من بقي منهم، حتى أصابها الحزن الشديد وضعفت قواها وعلى أثر ذلك اشتد بها المرض، وزاد بعض المؤرخين المصيبة عظماً حينما قال: بأنها قد سُمت أثناء ذلك لكي يتخلص الأعداء من شخصيتها وتأثيراتها على بلادهم، وهي الوسيلة السريعة التي استخدمها العباسيون في القضاء على الكثير من أهل بيتها علیها السلام وهو أمر غير مستبعد فما منهم إلا مقتول أو مسموم، وأن للسم طرائق متعددة أيسرها أن يوضع على سرج الحصان وأحداج الإبل فيفتك

صاحبها.

حتى سألت السيدة عَلَيْهَا عن المسافة بينها وبين قم فقيل لها عشرة فراسخ، فأمرت خادماً لها لم يصبه القتل أن يحملها إلى قم، ومكثت في قم في منزل موسى بن خزرج الأشعري سبعة عشر يوماً حتى استشهدت غريبة مظلومة بعد طيلة معاناة ومحن مريرة لتموت كما ماتت جدتها شهيدة مظلومة صابرة محتسبة وهي تحمل الآلام الجسدية والروحية من أعداء أهل البيت لعنهم الله وأخراهم^(٦).

الشباهة الحادية عشر: التجهيز

من الخصائص العظيمة المخصوصة التي اشتهرت فيها كريمة أهل البيت عَلَيْهَا معاً مع جدتها الزهراء عَلَيْهَا ومع سائر المخصوصين عَلَيْهِمْ، بأن الذي قام بتجهيز الاثنين حين الدفن والمواراة هو الإمام المعصوم، الأمر المنبع عن مكانة عالية حازتها السيدتان الجليلتان، فإن تلك الخصوصية التي كانت للمخصوص حصلت نفسها للسيدة المخصوصة. فكان أمير المؤمنين عَلَيْهِمْ هو متولى تجهيز الزهراء عَلَيْهَا مع حضور خادمتها أسماء، ومتولي دفنهما وإنزالها في القبر كما في مشهور الأخبار. وكان الذي جهز السيدة المخصوصة عَلَيْهَا هو الإمام المعصوم، مع صحة تفسير الخبر الوارد في ذلك بكونه المخصوص لما حصل في الأمر من خوارق، فقد ذكر بعض الرواية أنها عَلَيْهَا لما توفيت أمر موسى [بن خزرج الأشعري] بتغسيلها وتكفينها، وصلى عليها ودفنتها في أرض كانت له، وهي الآن روضتها^(٧).

بينما ذكر آخرون أنه لما توفيت فاطمة [عَلَيْهَا] وغسلت وكفت جملوها إلى مقبرة (بابلان) ووضعوها على سرداد حفر لها، فاختلف [عندها] آل سعد في من ينزلها إلى السرداد، ثم اتفقوا على خادم لهم صالح كبير السن، يقال له (قادر). فلما بعثوا إليه رأوا راكبين مقلبين من جانب الرملة وعليهما لثام، فلما قربا من الجنائز نزلوا وصليا عليها ثم نزلوا السرداد وأنزلوا الجنائز ودفناها فيه ثم خرجا،

ولم يكلما أحداً وركبا ولم يدر أحد من هما...^(٨).

والاحتمال المرجح عند المحققين في أن هذين الراكبين هما الإمامان الموصومان الرضا والجواد عليهما السلام، جاءا ليتوليا أمر الصلاة عليها وإنزالها في قبرها ودفنها، وكان حضورهما عن طريق الإعجاز، بعد أن طويت لهما الأرض من خراسان حيث كان الإمام الرضا عليهما السلام، ومن المدينة حيث كان الإمام الجواد عليهما السلام.

الشابة الثانية عشر: العمر

عرفت الزهراء سلام الله عليها مع ما تحمل من عظمة بصغر سنها وقلة مدة حياتها ولما كان موتها ليس طبيعياً يعرف سبب صغر عمرها، فالغالب أن الإنسان لا يموت في ذلك العمر، وعلى هذا المنوال شاهدت السيدة الموصومة عليهما السلام جدتها الزهراء عليهما السلام في ذلك فقد قضت نحبها في عمر الشباب وكان عمرها قريباً من عمر جدتها فتشابهت الاثنتان في صغرهما، ولم تنهي من هذه الحياة الزائلة.

فبالنسبة إلى عمر الزهراء عليهما السلام فإن المشهور بين الشيعة أنها ولدت بعكة ليلة الجمعة في الساعة الأخيرة منها بخمس سنين بعدبعثة النبي عليهما السلام وأقامت مع أبيها ثمان سنين بعكة، ثم هاجرت عليهما السلام إلى المدينة، وأقامت فيها مع أبيها أيضاً عشر سنين، ومع علي عليهما السلام بعد وفاة أبيها مدة قليلة اختلف في تعين قدرها وعليه اختلف في مقدار عمرها.

وبحسب الأقوال أنه قبض النبي عليهما السلام ولها ثانية عشر سنة بلا زيادة ونقيصة، أو مع نقىصة سبعة عشر يوماً، أو ثلاثة وثمانين يوماً، أو مع زيادة سبعة أشهر، أو ما دونها. واختلف في مدة عمرها بعد النبي عليهما السلام أنها ثانية أشهر، أو سبعة أشهر، أو أربعة أشهر، أو ثلاثة أشهر، أو مائة يوم، أو خمسة وسبعون يوماً، أو اثنان وسبعون، أو شهراً، أو خمسة وأربعون، أوأربعون. وقال جماعة: عمرها عليهما السلام على التحقيق ثانية عشر سنة وأربعون يوماً، منها ثمان سنوات قبل الهجرة وعشرة بعد

الهجرة، والباقي بعد وفاة رسول الله ﷺ.

وقال آخرون: الأصح أن عمرها ثانية عشر سنة إلا سبعة عشر يوماً، فسبعين سنين وتسعة أشهر في مكة قبل الهجرة، وعشرين سنين إلا يومين بعد الهجرة، وخمسة وسبعون يوماً بعد وفاة أبيها، وبالجملة يكون عمرها عليهما ثانية عشر سنة بزيادة أشهر في الجملة أو نقية كذلك^(٩).

وأما عن عمر السيدة المعصومة عليها السلام فقد اتفقوا على أن وفاتها كانت عام ٢٠١هـ بينما اختلفوا في سنة ولادتها، والماخوذ به أنها سلام الله عليها قد ولدت في المدينة المنورة في غرة ذي القعدة سنة ١٧٣هـ^(١٠) وهو وإن كان كاتبه لم يشر إلى مستنده في تحديد هذا التاريخ إلا أنه الأقرب فلا يمكن أن يتصور أن عمرها الشريف كان أقل من اثنين وعشرين عاماً -كثانية عشر عاماً الذي قال به البعض - أي لا يتصور أن تكون ولادتها بعد عام ١٧٩هـ وذلك لأن الإمام الكاظم عليه السلام قد فارق بيته ومدينه جده إلى بغداد في شوال سنة ١٧٩هـ وعليه فولادة السيدة المعصومة كان قبل هذا التاريخ، وليس كما ذكر بعضهم بأنه كان سنة ١٨٣هـ فإنهما سنة شهادة أبيها الإمام الكاظم عليه السلام ويستبعد ولادتها فيه، وذلك لأن الإمام عليه السلام على أقل التقادير كان في السجن في الأربع السنوات الأخيرة مما لا يمكنه الإنجاب في تلك الفترة، وعليه فيكون عمر السيدة المعصومة عليهما السلام على أقل التقادير حين وفاتها اثنين وعشرين سنة، ولكن الأقرب أن سنها كان أكثر من ذلك إذ إنها كانت كبرى أخواتها الفواطم المنتسبين لها من طرف الأب فلا يمكن ولادتها قبلهم إلا قبل أن يدخل الإمام السجن وقبل استشهاده.

لذا فأقرب الأقوال تقاصياً مع الصحة هو القول الذي ذكره صاحب سفيته البحار في أن سنة ولادتها كانت عام ١٧٣هـ وبناء عليه تكون السيدة فاطمة قد عاصرت من حياة أبيها عشر سنوات، غير أن السنين الأربع الأخيرة من

عمره عليها السلام كان فيها رهين السجون، فلم تحظ منه إلا بست سنوات، ويكون عمرها حين وفاتها عندئذ هو ثمان وعشرين سنة أي في ريعان شبابها كعمر جدتها الزهراء عليها السلام.

الشباهة الثالثة عشر: الاختصاص بزيارة مأثورة

وهي من المصادص الجليلة التي شاهدت فيها السيدة الموصومة أنها الزهراء عليها السلام، حينما حظيت بزيارة مأثورة من المعصومين عليهم السلام من بين الكثير من نظيراتها من أبناء المعصومين وذراريهم مع بلوغهم المراتب، وكما خصت جدتها الزهراء عليها السلام بزيارة عن المعصوم، خصت هي كذلك بذلك الشرف والوسام الكبير. فذكر في زيارة السيدة الزهراء عليها السلام أنه قال محمد بن أحمد بن داود، عن محمد بن وهب البصري، عن الحسن بن محمد بن الحسن السيرافي، عن العباس بن الوليد المنصوري، عن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن محمد العريضي قال: حدثنا أبو جعفر -الإمام الباقر عليه السلام- ذات يوم فقال: «إذا صرت إلى قبر جدتك فاطمة عليها السلام فقل: (يا متحنة امتحنك الله الذي خلقك قبل أن يخلقك... الزيارة)»^(١١)، وهناك بعض الزيارات الأخرى للزهراء عليها السلام يذكرها العلماء في كتبهم.

وبالنسبة للسيدة الموصومة عليها السلام فقد روى العلامة المجلسي قىش فى البحار، قال: رأيت في بعض كتب الزيارات: حدث علي بن إبراهيم عن أبيه، عن سعد، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال: «يا سعد عندكم لنا قبر، قلت: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليها السلام، قال: نعم، من زارها عارفاً بحقها فله الجنة، فإذا أتيت القبر فقم عند رأسها مستقبل القبلة، وكبر أربعًا وثلاثين تكبيرة، وسبع ثلاثة وثلاثين تسبيحة، وأحمد الله ثلاثة وثلاثين تحميدة، ثم قل: السلام على آدم صفوة الله... الزيارة»^(١٢).

وهناك زيارة ثانية للسيدة فاطمة الموصومة ذكرها الشيخ محمد علي حسن الكاتوزيان في كتابه (أنوار المشععين) وقال إنه نقل الزيارة من كتب معتبرة

وبإسناد صحيح^(١٣).

كما أن هناك زيارة ثالثة للمعصومة عليها ذكرها المولى حيدر الخوانساري في كتابه زبدة التصانيف^(١٤).

وهما زيارة رابعة ذكرها أبو القاسم الكرماني عن أبيه الآقا محمد خان الكرماني في كتابه (وادي السلام)^(١٥).

وما هو جدير بالذكر أنه ورد عن المعصوم في كيفية زيارة المعصومة أن يسبح الزائر لها قبل الزيارة بتسبیح جدتها الزهراء عليها السلام، وهذه الكيفية لم ترد وتتأتی في الكثير من زيارات الموصومين عليها السلام، وفي ذلك ما فيه من السر الذي لا يمكن لهذا العقل البشري من إدراكه وتصور معناه، ولعله ينبغي عن إحدى العلامات للعلاقة والخصوصية بين شبهاتها بجدها الزهراء عليها السلام.

الشباهة الرابعة عشر: استحباب الزيارة ووجوب الجنة لفاعلها

بيّنت لنا روایات أهل العصمة استحباب زيارة فاطمة الزهراء عليها السلام جاعلة الجنة ثواباً من زارها، وعلى ذلك كانت زيارة حفيتها السيدة فاطمة الموصومة عليها السلام فإن لزيارتها مثل خصائص الأولى، فقد ورد أيضاً من الأحاديث الصحيحة في وجوب الجنة من زار قبرها، وإن لم يكن هناك ملازمة بين العصمة ووجوب الجنة في الزيارة، إلا أنه لم يعهد ورود ذلك وصدوره من إمام معصوم في شأن غير المعصوم، حتى أن ثلاثة من الأئمة الموصومين عليها السلام يؤكدون على ذلك من وجوب الجنة لزيارتها!

فجاء في حق سيدة نساء العالمين عليها السلام أنه يستحب زيارتها استحباباً مؤكداً إجماعاً، بل هو من ضروريات المذهب كما يقول به الفقهاء، وذلك في بيتهما والروضة والبقيع لجهل موضع قبرها، فروي عن يزيد بن عبد الملك عن أبيه عن جده قال: دخلت على فاطمة عليها السلام فبدأتني بالسلام، ثم قالت: (ما غدا بك؟) قلت:

طلب البركة، فقالت الزهراء علیها السلام: «أخبرني أبي وهو ذا، أنه من سلم عليه وعلى ثلاثة أيام، أوجب الله له الجنة». قلت: في حياته وحياتك؟ قالت علیها السلام: «نعم، وبعد موتنا»^(١٦).

وفي المقابل ورد الترغيب في زيارة السيدة المعصومة علیها السلام من قبل المعصومين، والتحفيز بالجنة عند زيارتها وهي أقصى درجة يتمناها المؤمن في جزائه، ومن تلك الروايات ما تقدم ذكره عن عدة من أهل الري أنهم دخلوا على أبي عبد الله جعفر الصادق علیه السلام وقد قال علیه السلام لهم: «... وإن لنا حرماً وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمى فاطمة، فمن زارها وجبت له الجنة»، قال الراوي: وكان هذا الكلام منه -الإمام الصادق علیه السلام- قبل أن يولد ابنه الكاظم^(١٧).

ومنها: ما روي عنه أيضاً -الإمام الصادق علیه السلام- أنه قال: «إن زيارتها تعذر الجنة»^(١٨).

ومنها: ما رواه الصدوق بسنده عن سعد بن سعد، قال: سألت أبي الحسن الرضا علیه السلام عن فاطمة بنت موسى بن جعفر علیه السلام، فقال علیه السلام: «من زارها فله الجنة»^(١٩).

ومنها: ما روي عن علي بن موسى الرضا علیه السلام قال: قال: «يا سعد عندكم لنا قبر، قلت: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى علیها السلام، قال: نعم، من زارها عارفاً بحقها فله الجنة»^(٢٠).

ومنها: ما روي عنه أيضاً -الإمام الرضا علیه السلام- أنه قال: «من زار المعصومة بقم كمن زارني»^(٢١).

ومنها: ما روي عن أبي جعفر محمد بن علي الجواد علیه السلام أنه قال: «من زار قبر عمتي بقم فله الجنة»^(٢٢).

وغيرها من الروايات الدالة على فضل زيارتها، وما أعدد الله تعالى ثواباً

لزائرها وهو الجنة.

الشباهة الخامسة عشر: زيارة الإمام المهدى عليهما السلام

من الأمور المقطوع بها عندنا هي زيارة الإمام الحجة عليهما السلام لمشاهد أهل البيت عليهما السلام وعلى رأسهم جدته المعصومة الكبرى عليها السلام في عصر غيبته لوجود الدلائل العديدة على ذلك، فإن إمامانا عليهما السلام يعيش في هذه الدنيا التي نعيش بها وبذلك لا تسقط عنه أعمال وأحكام الأحياء، غاية الأمر أن أنظارنا محجوبة عن رؤية أنواره، وأنه عليهما السلام ليس كبقية البشر في مسألة خفاء قبر الزهراء عليها السلام بكونه يجهل موضع قبرها عليهما السلام المخفي فلا يعرف أين يتوجه إليه فيقصده، وإنما هو علام الغيوب وخزانة الأسرار. بل إن زيارة الزهراء عليها السلام وبقية المعصومين عليهما السلام من المستحبات المؤكدة الثابتة في المذهب، ومن الثابت أن المعصوم لا يترك المستحبات وهو الذي يأمر الناس بها، فهو بزيارة قبر أمه أولى من غيره في ذلك، وليس لكونها مستحبة فحسب كما ذكرنا وإنما لكونها جدته المنفرع منها، ففي زيارته لقبرها صلة لرحمه ومن المعلوم ان صلة الرحم لا تقطع في الحياة ولا بعد الممات كما دلت الروايات على ذلك، فكيف بصلة المعصومين الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون. ولذا كانت سيرة المعصومين قائمة على زيارة قبر الزهراء عليها السلام وقبر الرسول عليهما السلام والحسن والحسين عليهما السلام وغيرهم عليهما السلام، كأمير المؤمنين عليهما السلام مثلاً الذي لم ينقطع عن زيارة قبر الزهراء عليها السلام، وإمامانا الحجة عليهما السلام أولى بأن يتأسى بجده الأمير في ذلك.

فهذه الخصوصية ثابتة لمراند الأئمة المعصومين عليهما السلام ولكن السؤال هو كيف

في زيارته لغيرهم كالسيدة المعصومة التي هي محل البحث؟

نقول: بما أن للسيدة المعصومة شأنًا خاصًا من الشأن عند أهل البيت عليهما السلام كما بينه قول المعصوم في زيارتها، فلا يستغرب في أن يأتي الإمام الحجة عليهما السلام

لزيارة قبرها الشريف في قم المقدسة، كيف لا وهي عمته التي لا بد له أن يصلها، وأن زيارتها قد ثبت استحبابها بقول أكثر من معصوم في ذلك، لذا فإنه لا استبعاد في زيارته لها.

وهناك ما يؤيد ذلك وهو ما ذكر في مذكرات آية الله الشيخ مرتضى الحائري نجل مؤسس الحوزة العلمية بقم المقدسة آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائري، فقد نقل فيها قيئن ما مضمونه:

انه لم يكن يرتضى ما يقوم به بعض العلماء والفقهاء، وأهل التحقيق والتدقيق عند زيارة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام من الوقوف عند رأسها واستقبال القبلة، ثم البدء في السلام والتحية، وقراءة المأثور من زيارتها عليها السلام. وذلك لأن السلام عادة وعرفاً يكون عند استقبال ومواجهة من يريد الإنسان السلام عليه، لا أن يقف على رأسه مستقبلاً القبلة، حيث يكون الجسد الظاهر على يسار الإنسان.

مضافاً إلى أن الصندوق المبارك الموضوع على القبر الشريف يكون منحرفاً باتجاه اليمين، وليس بحسب وضع الشباك المنير، مما يؤدي إلى أن يكون الرأس الشريف خلف ظهر الزائر الواقف في هذا الاتجاه حين الاشتغال بالسلام وقراءة الزيارة.

لذلك كله لم يرتضى الشيخ ما يقوم به بعض المخواص من زوارها عليها السلام، لكنه يرى ذات ليلة في المنام أنه قد تشرف بزيارة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام وإذا به يرى قدوم ثلاثة رجال عليهم الهيبة والوقار، يتوسطهم من يشار إليه بإنه الإمام المهدي صاحب العصر والزمان عليه السلام، ثم يأتون حتى يقفوا خلف الشباك المبارك مما يلي الرأس مستقبلي القبلة ويبدؤون بزيارة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، لكنه لم يسمع عبارة الزيارة وألفاظها.

وعند انتباهه من النوم يراجع أسناد الزيارة المأثورة عن الإمام الرضا عليهما السلام والتي تزار بها السيدة فاطمة المعصومة عليهما السلام فيرى أن الإمام يوصي سعداً بأن يقف للزيارة عند رأسها مستقبل القبلة. وذلك على نحو ما رأه في المنام من زيارة الإمام المهدي عليهما السلام لها^(٢٣)، وعلى النهج المأثور عند أهل البيت عليهما السلام في آداب زيارة مراقدهم من استقبال مراقد خصوص المعصومين عند زيارتهم -وهم وجه الله الذي منه يؤتى-، واستقبال القبلة عند زيارة مراقد غيرهم -غير المعصومين-، فانضحت له بتلك الرؤيا حقيقة المسألة.

الشابة السادسة عشر: التجلي الملكوتي

لما ثبت استحباب زيارة القبور خصوصاً زيارة مراقد المعصومين عليهما السلام منهم، وبعد تظافر الروايات وتعدها في ذلك الصدد، والذي فيها ما فيها من الثواب العظيم، وتجديد البيعة والولاء مع المعصوم وتكامل الإيمان، وكذلك من التشرف بتقبيل الموضع الذي ضم الجسد الطاهر المقدس والتبرك به، والأخذ من ترابه للاستشفاء كما ورد عن بعض المعصومين عليهما السلام، ونيل شرف الوصول إلى تلك البقع الطاهرة التي يهبط ويصعد فيها الملائكة في رعيل متصل بالسماء، ويتتحقق فيها التوفيق للدعاء في خصوص ذلك الموضع تحت تلك القبة وهي موضع تنزل الرحمة واستجابة الدعاء، فإن ذلك العمل عظيم والجنة عالية لا يمكن لأي مؤمن تفويتها عليه وغض النظر عنها.

ولكن عندما يريد المؤمن أن يحظى بتلك الدرجات والمقامات بالتشرف لزيارة قبر الزهراء عليهما السلام حفيدة سيد الأوصياء والأنبياء، لا تراه يجد سبيلاً لذلك مما يفتح له باب الحسرة والتأوه، لاختلاف الرواية والعلماء وتعدد أقوالهم في تحديد موضع دفنهما عليهما السلام، بعضهم يحتمل بأنها دفنت بالبقيع -بعض القرائن-، ويحتمل بعضهم: أنها دفنت بالروضة، ويقول آخرون بأنها دفنت في بيتها، فلما زاد بنو

أمية لعنة لهم في المسجد صارت من جملة المسجد. ولم يتوصل أحداً منهم حتى هذا اليوم إلى برهان قاطع ليثبت فيه موضع القبر الشريف لتلك الحوراء النورانية، فبقي ذلك يشكل سراً من أسرار الزهراء عليه الهمزة الحيرة منذ استشهادها وحتى يومنا، بعدما لم يكشف لنا أحداً من المعصومين ذلك ولم يصرح عن موضع القبر.

إلا أنه شاءت الأقدار الإلهية أن يعوض الله شيعتها المحتقرة قلوبهم، المحرومين من بركات فيض أنوار ضريح ابنة نبيهم -الذي سيبقى سراً مخفياً مستودعاً كاسفاً وشاهداً للعالم وللأجيال القادمة على أكبر ظلامة في بنت نبي هذه الأمة سيدة نساء العالمين عليه الهمزة، حتى يأذن الله بأخذ ثارات الزهراء عليه الهمزة فينكشف للعيان بيد فرج آل محمد عليه الهمزة - بقبر سيدة جليلة شبيه للزهراء عليه الهمزة يقع قبرها في عش آل محمد، ومأوى الشيعة، وهي صاحبة العصمة الصغرى سيدة العفة والتقوى فاطمة بنت موسى الكبرى عليه الهمزة، وذلك لما حازت من شأن رفيع أشار إليه المعصومون عليه الهمزة، وهو الذي تعرض له أهل المعنى من تجلّي قبر الزهراء عليه الهمزة في قبر ابنتها المعصومة عليه الهمزة، فإن من أراد أن يحظى بشرف التبرك والوصول إلى قبر الزهراء عليه الهمزة أمكنه فعل ذلك بزيارته للمعصومة عليه الهمزة لأن قبرها تجلّي فيه شخص الزهراء. ومن أراد أن يعزي الزهراء عليه الهمزة في يوم شهادتها ويأتي إلى قبرها، فبإمكانه فعل ذلك بالإتيان إلى قبر المعصومة، كما يفعل ذلك بعض مراجعنا وعلمائنا في يوم شهادتها عليه الهمزة فإن قبر المعصومة هو قبر أمها الزهراء المخفي.

والمعصومون في إشاداتهم وإعطائهم الأسماء عارفون ومطلعون على من يمتلك المراتب العالية ويستحقّها لإبرازه وإظهاره وجعله محلاً لاستجابة الدعاء، وكما تبين منهم كيف أنهم وهبوا السيدة أم البنين عليه الهمزة وساماً خاصاً في جعلها باباً لاستجابة الدعاء.

وقد التفتَ إلى ذلك بعد نقل اللقاء الشهير الذي حصل للفقيه الوقور السيد

محمود(شمس الدين) بن السيد علي (شرف الدين) الحسيني المرعشى النجفي (١٢٦٠-١٣٣٨هـ)^(٢٤) (والد سيدنا المرعشى السيد محمد حسين (شهاب الدين) مع الإمام المعصوم علیه السلام في مسجد السهلة، والذي تعرض إليه بعض العلماء الثقات في كتبهم ومنهم الحقن الشيخ محمد علي المعلم قتيل الذي يذكره بسند متصل فيقول: (نقل لي صديقي العزيز الحقن الشهير الفاضل السيد مهدي الرجائي -ورأيته في أكثر من كتاب^(٢٥) - عن السيد محمود المرعشى، عن أبيه السيد شهاب الدين(المرجع الشهير)، عن جده السيد محمود المرعشى، أنه [قال: كان يريد معرفة قبر الصديقة الزهراء علیها السلام، وقد توسل إلى الله تعالى من أجل ذلك كثيراً حتى أنه دأب على ذلك أربعين ليلة من ليالي الأربعاء من كل أسبوع في مسجد السهلة بالكوفة، وفي الليلة الأخيرة حظي بشرف لقاء الإمام المعصوم علیه السلام، فقال له الإمام علیه السلام: (عليك بكرية أهل البيت)، فظن السيد محمود المرعشى أن المراد بكرية أهل البيت علیها السلام هي الصديقة الزهراء علیها السلام قال للإمام علیه السلام: جعلت فداك إنما توسلت لهذا الغرض، لأنك بموضع قبرها، وأتشرف بزيارتها، فقال علیه السلام: (مرادي من كرية أهل البيت قبر السيدة فاطمة المعصومة علیها السلام في قم). ثم قال: (إن الله تعالى قد جعل قبر الصديقة الزهراء من الأسرار، وقد اقتضت الإرادة الإلهية تبعاً لبعض المصالح أن يكون قبرها مخفياً لا يطلع على موضعه أحد من الناس، فلا يمكن الإخبار عنه، ولكن جعل الله قبر السيدة فاطمة المعصومة موضعاً يتجلى فيه قبر الصديقة الزهراء علیها السلام، وإنما قدر لقبر الصديقة الزهراء علیها السلام من الجلال والعظمة والشأن -لوكان معلوماً ظاهراً- جعله الله تعالى لقبر السيدة المعصومة).

وعلى أثر ذلك عزم السيد محمود المرعشى على السفر من النجف الأشرف إلى قم لزيارة كرية أهل البيت علیها السلام^(٢٦) ليحظى بشرف التبرك بقبر الزهراء علیها السلام وزيارتها المتجلبي ذلك في قبر ابنتها، وتبعه ابنه السيد المرعشى وأولاده حتى استوطنو قم

وجعلوها بلدتهم بعدما كانت النجف لتلك الرؤيا، وكان السيد المرعشبي قد تقدّم -
الابن - بحفل ويعظّم مرقدها بشدة لذلك، حتى عرف عنه أنه كان أول السابقين
لدخول حرمها فجراً منتظراً افتتاحه بشكل يومي مدى حياته، وأنه الذي أوصى
بمدفنه بقربها.

وما يجعلنا نقوي من احتمالية صحة هذا اللقاء إضافة إلى سنته المتصل
الموثق، كون ذلك العمل الذي قام به تقدّم من المحرّبات المشهورة عند القيام
بأعمال مسجد السهلة لأربعين يوماً لاللتقاء بالمعصوم عليه السلام، يقول العلامة
المجلسي تقدّم معيقاً على بعض اللقاءات المذكورة في كتابه البحار: "أنه قد علم من
تضاعيف تلك الحكايات أن المداومة على العبادة، والمواظبة على التضرع والإنابة، في
أربعين ليلة الأربعاء في مسجد السهلة أو ليلة الجمعة فيه أو في مسجد الكوفة أو العائر
الحسيني على مشرفه السلام أو أربعين ليلة من أي الليالي في أي محل ومكان، كما في
قصة الرمان المنقوله في البحار طريق إلى الفوز بلقاءه عليه السلام ومشاهدة جماله، وهذا
عمل شائع، معروف في المشهدتين الشريفتين، ولهم في ذلك حكايات كثيرة... [و]
الظاهر أن العمل من الأعمال المجرية، وعليه العلماء والصلحاء والأتقياء، ولم نعثر
لهم على مستند خاص وخبر مخصوص، ولعلهم عثروا عليه أو استطعوا ذلك من
كثير من الأخبار التي يستظهر منها أن للمداومة على عمل مخصوص من دعاء أو
صلاة أو قراءة أو ذكر أو أكل شيء مخصوص أو تركه في أربعين يوماً تأثير في
الانتقال والترقي من درجة إلى درجة، ومن حالة إلى حالة، بل في النزول كذلك،
فيستظهر منها أن في المواظبة عليه في تلك الأيام تأثير لإنجاح كل مهم أراده. ففي...
النبي المروي في لب اللباب للقطب الرواندي: من أخلص العبادة لله أربعين صباحاً
ظهرت ينابيع الحكم من قلبه على لسانه... الخ".^(٢٧)

ويستشف من بعض ما يذكر أن روح الزهراء عليه السلام النورانية تحضر إلى قم

المقدسة لابنتها بل وتشاركها في خصائص عالمها الأخرى^(٢٨).

الشابة السابعة عشر: فضل موضع الدفن

لقد دفت السيدة الزهراء عليها السلام في المدينة المنورة ودفت حفيتها السيدة المعصومة عليها السلام في قم، وحازت هاتان البقعتان من الشرف والفضل الكثير الكثير، حتى جاء ذكرهما على لسان رسول الله صلوات الله عليه وآله في حديثه، وتحدث عنهما وخصهما بخصائص، وكان ذلك قبل أن تدفن فيهما الفاطمان، وذكرهما المعصوم في قوله ووَصَّفَ بقاعهما بالحرم. فكما جعل الله بقعة المدينة حرماً لرسول الله صلوات الله عليه وآله وريحانته الزهراء محتمية في عرش مملكة أبيها وحرمه، فكذلك جعل الله قم المقدسة حرماً للإمام الموصوم عليها السلام وأبنائه، وحرم آل محمد وكانت السيدة المعصومة مصدر عطائه.

فقد جاء في ما رواه أنس بن مالك، قال: كنت ذات يوم جالساً عند النبي صلوات الله عليه وآله إذ دخل عليه علي بن أبي طالب عليها السلام، فقال عليه وآله: «إليّ يا أبا الحسن، ثم اعتنقه وقبّل [ما] بين عينيه، وقال: يا علي إن الله عز اسمه عرض ولا ينك على السماوات فسبقت إليها السماء السابعة فزيتها بالعرش، ثم سبقت إليها السماء الرابعة فزيتها باليت المعمور، ثم سبقت إليها السماء الدنيا فزيتها بالكواكب، ثم عرضها على الأرضين فسبقت إليها مكة فزيتها بالكتبة، ثم سبقت إليها المدينة فزيتها بي، ثم سبقت إليها الكوفة فزيتها بك، ثم سبق إليها قم فزيتها بالعرب، وفتح إليها باباً من أبواب الجنة»^(٢٩).

وجاء من روایات أهل البيت عليهم السلام العديد من الروایات التي تذكر فضائل البقعتين وتخصهما بالفضل والمكانة نذكر منها هنا رواية أو روایتين - على نحو الاختصار - فمنها ما قاله رئيس المذهب الإمام الصادق عليه السلام: «ألا إن الله حرماً وهو مكة، ألا إن لرسول الله حرماً وهو المدينة، ألا إن لأمير المؤمنين حرماً وهو الكوفة، ألا

إن حرمي وحرم ولدي بعدى قم ألا إن للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها إلى قم...»^(٣٠).
 ويبين بعض العلماء الأبواب الثلاثة المؤدية للجنة التي في قم مفسراً إياها
 ومحتملاً بكونها :١- السيدة المعصومة عليها السلام ٢- مسجد جمكران ٣- الحوزة
 العلمية. وهي الأقطاب الثلاثة المميزة لها.
 ومنها في قم قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «صلوات الله على أهل
 قم، ورحمة الله على أهل قم، سقى الله بلادهم الغيث»^(٣١).

الشباهة الثامنة عشر: بقاء محل عبادتهم

أي بقعة من بقاع الأرض يعبد فيها الله ويطاع هي موضع مبارك يستحق
 التقديس والإكرام وإيقاذه نظيفاً ظاهراً لما اكتسب من قداسة ذكر وعبادة الله فيه،
 وورد أن الأرض عندما ينزل فيها أحد فإنها إما أن تكون من المصليه عليه أو
 تكون من اللاعنين له، وأن بقعة الأرض التي يسجد ويعبد الله عليها لتصبح
 منشرحة متنورة وتتباهى على جاراتها من البقع، يقول الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه في وصيته
 لأبي ذر: «يا أبا ذر، ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له
 بها يوم القيمة، وما من منزل ينزله قوم إلا وأصبح ذلك المنزل يصلى عليهم أو يلعنهم،
 يا أبا ذر ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها ببعضها يا جارة هل مر
 بك اليوم ذاكر الله أو عبد وضع جبهته عليك ساجداً لله تعالى؟ فمن قائلة: لا، ومن
 قائلة: نعم، فإذا قالت نعم اهتزت وانشرحت وترى أن لها الفضل على جاراتها»^(٣٢).

حتى ذكر الفقهاء باستحباب نقل الميت لوضع صلاته مع اشتداد النزع عنده
 لما لوضع العبادة من خصوصية في ذلك، فقد روی في الوسائل عن طب الأئمة
 مسندًا إلى حريز قال: «كنا عند أبي عبد الله -جعفر الصادق- عليه السلام فقال له رجل:
 إن أخي منذ ثلاثة أيام في النزع وقد اشتد عليه الأمر فادع له، فقال: اللهم سهل
 عليه سكرات الموت، ثم أمره وقال: حولوا فراشه إلى مصلاه الذي كان يصلى فيه، فإنه

يُخفَى عَلَيْهِ إِنْ كَانَ فِي أَجْلِهِ تَأْخِيرٌ، وَإِنْ كَانَتْ مُنِيَّتَهُ قَدْ حَضَرَتْ فَإِنَّهُ يُسْهَلُ عَلَيْهِ»^(٣٣).

وَهَذَا الْأَمْرُ لِعَالَمِ الْعَابِدِينَ بِشَقِّ أَصْنافِهِمْ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْمَحْلُ هُوَ مَكَانُ عِبَادَةٍ وَتَهْجِدُ سِيدَةَ الْعَالَمِ نِسَاءَ الْعَالَمِ وَأَفْضَلَ نِسَائِهَا، أَوْ كَانَ لِسِيدَةٍ ذَاتِ شَأْنٍ رَفِيعٍ وَشَرْفٍ عَالٍ تَحْمِلُ الْعَصْمَةَ الصَّغِيرَى وَالسِّيَادَةَ -خَاصَّةً عَلَى النِّسَاءِ- وَابْنَةَ مَعْصُومٍ وَأَخْتَ مَعْصُومٍ وَعَمَّةَ مَعْصُومٍ وَسِيدَةَ زَمَانِهَا، فَيَكْفِي عِنْدَنَا فِي الْحُكْمِ بِقَدَاسَةِ الْمَكَانِ أَنْ تَطْلُأَ مِثْلُ حَامِلَةِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ حَتَّى لَوْلَمْ يَكُنْ مَوْضِعُ عِبَادَتِهَا بَلْ وَعَرْوَجَهَا لِعَالَمِ الْمَلْكُوتِ.

وَمِنَ الْلَّطِيفِ الَّذِي أَرْدَنَا إِبْرَاهِيدَهُ هُنَا أَنَّهُ شَاءَتِ الْأَقْدَارُ الإِلَهِيَّةُ أَنْ تَحْفَظْ وَتُبَقِّيَ مَكَانَ عِبَادَةِ سِيدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ عَلَيْهَا وَمَحْلَ شَهَادَتِهَا وَصَعْدَوْدُ رُوحَهَا الْقَدِيسَيَّةِ لِبَارِئَهَا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ مَوْضِعًا مَبَارِكًا يَسْتَلِمُهُمْ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ الْقَدِيسَيَّةُ وَالْبَرَكَةُ وَالْقُدُوْسُ، وَهُوَ بَيْتُهَا الَّتِي عَاشَتْ وَاسْتَشَهَدَتْ فِيهِ وَهُوَ مَحْلُ هُبُوطِ وَصَعْدَوْدِ الْمَلَائِكَةِ وَالَّذِي ازْدَادَ فَضْيَلَةً وَشَرْفًا حَتَّى عَلَى مَوْضِعِ الرُّوْضَةِ الَّتِي بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ وَقَبْرِهِ الشَّرِيفِ وَالَّتِي هِيَ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ فَفِي الْحَدِيثِ عَنْ يُونُسَ بْنِ يَعْقُوبَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ -جَعْفَرَ الصَّادِقَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ الصلَاةُ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا أَفْضَلُ أَوْ فِي الرُّوْضَةِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ»^(٣٤).

وَفِي ذَلِكَ شَابِهَتْهَا ابْنَتُهَا السِّيَدَةُ الْعَابِدَةُ التَّقِيَّةُ فَاطِمَةُ الْمَعْصُومَةُ عَلَيْهَا فِيهِ، فَهِيَ الَّتِي امْتَازَتْ عَنِ الْكَثِيرِينَ وَالْكَثِيرَاتِ مِنْ ذَرَارِيِّ الْمَعْصُومِينَ عَلَيْهِمُ الْمُصَدَّقَةِ فِي بَقاءِ مَحْلِ عِبَادَتِهَا وَمَصْلَاهَا وَلَعْلَهُ مَوْضِعُ شَهَادَتِهَا أَيْضًا إِلَى هَذَا الْيَوْمِ مَحْلًا وَنِيرًا يَقْصِدُهُ الْزَّائِرُونَ وَيَتَبرَكُونَ مِنْ أَنوارِهِ وَهُوَ مَا يَعْرُفُ الْيَوْمُ بَيْتُ النُّورِ، الْمَحْلُ الَّذِي عَاشَتْ فِيهِ شَبِيهَةُ الزَّهْرَاءِ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا حَتَّى عَرَجَتْ رُوحُهَا الطَّاهِرَةِ.

فَإِنَّهَا لَمَا وَصَلَتْ إِلَى قَمْ وَبَلَغَ أَهْلَ قَمْ نَبَأَ قَرْبَ وَصُولَهَا خَرْجَ الْأَشْرَافِ لَا سَقْبَاهَا، وَكَانَ فِي طَلِيَّةِ مُسْتَقْبَلِيهَا مُوسَى بْنُ خَرْجَ بْنُ سَعْدِ الْأَشْعَرِيِّ، فَلَمَّا

وصل إليها أخذ بزمام ناقتها، وجرها إلى منزله وكانت في داره سبعة عشر يوماً^(٣٥).

وهذا الموضع أصبح مثالاً للبيوم، حيث أصبح مدرسة علمية ومسكناً لطلاب العلوم الدينية في قم، وقد اتخذت من بيته موضعًا جعلته محراباً لها تصلي فيه. يقول الشيخ المحدث القمي: والحراب الذي كانت فاطمة بنت النبي تصلي فيه موجود إلى الآن في دار موسى ويزوره الناس... ويقع في محلة (ميدان مير) ومعرف بـ (ستية) بمعنى السيدة^(٣٦).

الشbahahat التاسعة عشر: الكرامات الباهرة

لما اختص الله بعض عباده بعنييات وألطاف خاصة بلغوا بها أعلى درجات الكمال البشري، وأدنى مراتب القرب المعنوي من الله تعالى، فجعلهم مظاهر لطفه ومحال رحمته ومجاري فيضه، وذلك لطهارة ذواتهم، وصفاء نفوسهم، وخلو صفهم التام لله تعالى، فكانوا مظاهر أسمائه وصفاته، حتى أنه تعالى مكنهم من التصرف في هذا الكون وسخر لهم الأشياء فاستجابت لهم طائعة، فصدر عنهم ما خرقوا به نواميس الطبيعة، وخالف السنن المألوفة، وهو ما يعرف بالمعجزة والكرامة، لأنهم يتمتعون بقوى خاصة هي فوق هذا العالم المادي مما لم تبلغ له قوى الناس وقدراتهم، فعجزوا عنه وعن مثله، ومن أجله سميت المعجزة بالمعجزة^(٣٧)، ومن أجله سميت الكرامة بالكرامة، والفرق بينهما أن الأولى تشمل روح التحدي وإفحام الطرف المقابل بغية هدایته والثانية لا تشمله، وإنما يظهر فيها المنزلة والمكانة.

ومن أسمى هؤلاء المصطفين بعد الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله هي أمهم الصديقة الزهراء عليها السلام، فإنها سيدة النور الذي خلقهم الله منه وجعلهم بعرشه ممددين، حتى من الله بها وبأبيها وبهم علينا فجعلهم في بيوت أذن الله أن ترفع ويدرك فيها

اسمه، وجعل صلواننا عليهم وما خصنا به من ولايتهم طيباً لخلقنا، وطهارةً لأنفسنا وترزكيةً لنا وكفاراً لذنوبنا.

بل أختص الله بعض عباده الصالحين من هم برتبة دون العصمة أيضاً بمميزات وقدرات خاصة، ومعاجز وكرامات، هي مظاهر لقدرة الله تعالى، وعلام على القرب منه، والمنزلة عنده، والوجاهة لديه، وكان منهم سيدتنا المعصومة عليها السلام وهي المعصومة الصغرى بنت ولی من أولياء الله، وأخت ولی من أوليائه، وعمة ولی من أوليائه، حظيت برعاية المعصوم واهتمامه، فكان لها من الكرامات نصيب وافر امتازت به عن الكثيرين، وهي أهل لذلك لما بلغت من المنزلة والشأن المقام الرفيع، بعدما خصتها أمها الزهراء عليها السلام بدرجة عالية ووهبتهاوساماً زاد من مكانتها علواً ورفعه. ولا زال حرمها الشريف ملاداً يقصده ذوو الحاجات والدعوات والكربات والأمال فتقضى حوائجهم، لا سيما عند انسداد أبواب الأسباب الطبيعية.

وقد توادر نقل كراماتهم بين ثقات المؤمنين وشاع، حتى أصبح شيئاً من المألوف سمعه بين الناس، فهذا يطرق بابهم لعلاج من مرضه المستعصي فيشفى، وهذا ينجو من هلكة نتيجة لالتجائه بهم، وهذا تُحل مسألته العلمية بعد الدعاء بهم، وهذا يرزق ولداً نتيجة للتبرك من طعامهم .. الخ.

والتناقل منها في الأسماع لا يكن إحصاؤه، فهم بحر عطاء لا ينضب وسع جميع أهل الدنيا، وأما المكتوب فهو يفوق المائة كرامة -لكل من الجليلتين- قد تعرضت له العديد من المؤلفات، ولا بأس بعدما ذكرنا هذا الجانب أن نثبت هنا مثالاً لإحدى الكرامات لكل من الشخصيتين الأم وابنتها بنحو الاختصار، لنبين مدى عنانياتهما بمحببهما، وشيعتهما وقدرتهمما العالية على إظهار الخوارق، ومقامهما السامي عند الله.

فمن ما ذكر في كرامات الزهراء عليها السلام ما نقله سماحة السيد حجة آل الموحد الأبطحي، وهو كرامة حصلت في منزله لزوجين مضى على زواجهما ستة وعشرون عاماً، ومهمما عاودا مراجعة الأطباء وقاما بما أوصاهم به بعض الأصدقاء والأقرباء إلا أن الله لم يرزقهما بولود، حتى إن الأطباء أعلناوا عن يأسهم من احتمال أن يكون لهم ولد.

يقول السيد: "وفي عام ١٤١٥هـ حضرت الزوجة في بيتنا (حيث كنا نقيم مراسم العزاء الفاطمي) في أواخر الأيام الفاطمية وأخذت تتسلل بأذیال الصديقة الزهراء عليها السلام وتقسم على الله بحقها لينعم عليها بنعمة الولد، ولغرض الشفاء من حالتها تناولت شيئاً يسيراً من طعام الإفطار الذي كنا قد أعددناه للمراسم، وبعد مدة شعرت الزوجة ببعض التغيرات وحينما عرضت نفسها لجملة من التحاليل الطبية تبين أن في رحمها جنيناً بعد ستة وعشرين عاماً من كونها عاقراً..."^(٣٨).

وأما بالنسبة إلى كرامات السيدة المعصومة ف منها ما نقل من كتاب قصص العلماء للميرزا الحاج آية الله الشيخ محمد التنكابني تدش (المتوفى سنة ١٣٠٢هـ)، قال: "في إحدى زياراتي لحرم السيدة المعصومة عليها السلام مرض ولدي وزوجتي مرضًا شديداً، وأشارفا على الموت، فجئت إلى حرم ابنة باب العوائج، وقلت: نحن جئنا من مكان بعيد ولذنا بباب بيتك، ولا نتوقع أبداً أن نرجع من عندك بالحزن ورغم الأنف والخيبة، وفي نفس تلك اللحظة شفي كلا المريضين وأنقذنا من حافة الموت"^(٣٩).

الشابة العشرون: الشفاعة

من أهم الأمور الحساسة في حياة الفرد المؤمن التي يجب الالتفات إليها هي مسألة يوم القيمة والمعاد، فإن الكثير من الناس عندما يسمعون عن المعاد واليوم الآخر يئنون من ذكره حيث هناك تلاقي البشر مع خالقهم والوقوف بين يديه للحساب. ولا شك ولا ريب في أن الكثير من الناس يخافون عدل الله تعالى

ويطلبون منه أن يحاسبهم برحمته لا بعده لأنه لو يحاسبهم بعده لما ترك عليها من دابة، لذا نجد من خلال القرآن الكريم والروايات الشريفة أن من مظاهر رحمة الله تعالى يوم القيمة هو إعطاءه الشفاعة لبعض أوليائه لكي يبين قدره ومنزلة ومقام العبد المؤمن في ذلك اليوم، وبذلك تكون الشفاعة جزءاً مهماً بل هو الأمل الوحيد للخلائق التي ستجتمع يوم القيمة في عرصات المحشر.

ومن أهمّ من يوهبون مقام الشفاعة يوم القيمة هم الرسول وأله عليهما السلام وهذا ما أثبتته الكثير من الآيات والروايات ولسنا بصدّ التعرض لها في هذا المقام.

وإحدى أهم دعائم الشفاعة يوم القيمة هي الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، بضعة الرسول وريحانته وزوجة الوصي المرتضى وأم الحسينين، والتي يكون اسمها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باسم المعاد ويوم القيمة، لما أوضحت النصوص الشريفة العديدة من كتب الفريقين صور شفاعتها ومظاهر عطفها في ذلك اليوم العظيم المهول، ونكتفي هنا بذكر غاذج من دلائل شفاعتها من دون التطرق لكيفيتها ومساحتها:

روي عن الرسول عليهما السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيمة نادى مناد من بطن العرش: يا معاشر الخلق غضوا أبصاركم حتى تمر بنت حبيب الله إلى قصرها ابنتي فاطمة وعليها ريطتان خضراوان حواليها سبعون ألف حوراء، فإذا بلغت على باب قصرها وجدت الحسن قائماً والحسين نائماً مقطوع الرأس، فتقول للحسن: من هذا؟ فيقول: هذا أخي إن أمة نيك قتلوا وقطعوا رأسه. فبأيتها النداء من عند الله: يا بنت حبيب الله إني إنما أرتك ما فعلت به أمة أريك لأنني ادخلت لك عندي تعزية بمصيبتك فيه، إني جعلت تعزتك اليوم أني لا أنظر في محاسبة العباد حتى تدخل الجنة أنت وذرتك وشيعتك قبل أن أنظر بمحاسبة العباد، فتدخل فاطمة ابنتي الجنة وذرتها وشيعتها ومن أولاهما معروفاً من ليس من شيعتها، فهو قول الله عزوجل: ﴿لَا يَخْرُجُهُمْ
الْفَزَعُ الْأَكْبَر﴾ قال: قول يوم القيمة ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ هي

والله فاطمة وذريتها وشيعتها ومن أولاهم معروفاً من ليس هو من شيعتها»^(٤٠).

وروي عن سلمان أنه قال في ضمن حديث: قال رسول الله ﷺ: «...الويل من شك في فضل فاطمة لعن الله من يبغضها، ويغض بعض علها ولم يرض بامامة ولدها، إن لفاطمة يوم القيمة موقفاً وإن فاطمة تدعى وتكتسى وتشفع، فتشفع على رغم كل راغم»^(٤١).

وجاء عن أمير المؤمنين ع: «دخلت يوماً متزلي فإذا رسول الله ﷺ جالس والحسن عن يمينه، والحسين عن يساره، وفاطمة بين يديه، وهو يقول: يا حسن ويا حسين، أنتما كفتا الميزان وفاطمة لسانه، ولا تعدل الكفتان إلا باللسان ولا يقوم اللسان إلا على الكفتين ... أنتما الإمامان والأئمّة الشفاعة»^(٤٢).

وورد في الخبر أن الزهراء ع لما سمعت بأن أباها زوجها وجعل الدرهم مهراً لها، قالت «يا رسول الله، إن بنات الناس يتزوجن بالدرهم فما الفرق بيني وبينهن، أسألك أن تردها وتدعوا الله أن يجعل مهري الشفاعة في عصاة أمتك، فنزل جبريل ع عليه ومعه بطاقة من حرير مكتوب فيها: جعل الله مهر فاطمة الزهراء ع شفاعة المذنبين من أمة أبيها، فلما احتضرت أووصت بأن توضع تلك البطاقة على صدرها تحت الكفن فوضعت، وقالت: إذا حشرت يوم القيمة رفعت تلك البطاقة بيدي، وشفعت في عصاة أمة أبي»^(٤٣).

وخصصت شبيه الزهراء السيدة فاطمة المعصومة ع بشفاعة لم يحصل عليها الكثير من غير المعصومين ع، لكونها ذات شأنٍ خاصٍ من الشأن بحيث تكون شفاعتها شاملة لجميع شيعة أهل البيت ع لا لخصوص زوارها أو بعض الأفراد، نعم ذُكرت الشفاعة في شأن العالم، والشهيد، والمؤمن الشيعي، ونحوهما، ولكن لم يرد شمول الشفاعة وسعتها بحيث تشمل الجميع إلا في حق السيدة المعصومة ع وحق آبائها المعصومين ع، فهو أحد شؤونها التي حازت عليها - الواردة في كلام الرضا ع في الزيارة - ألا وهي شأنية الشفاعة لجميع الشيعة.

فقد قال جدُّها زعيم المذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ في شفاعة حفيته: «...تدخل بشفاعتها شيعي الجنة بأجمعهم»^(٤٤).

ويوضح أخيها ضامن الجنان الإمام الرضا عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ للزائرين في كيفية زيارتها أن يطلبوا منها الشفاعة عند زيارتهم لها لكونها ذات شأن خاص يحمل رصيداً وافراً من الشفاعة فيقولون في زيارتهم: «...يا فاطمة اشفعي لي في الجنة فإن لك عند الله شأنًا من الشأن...الزيارة»^(٤٥).

وما يؤيد شمول شفاعتها وعظمتها ما ينقل عن الحديث الشيخ عباس القمي قَدِّشَ نَفْسَهُ من أنه حصل له أن رأى الفقيه الشيخ الميرزا القمي قَدِّشَ نَفْسَهُ صاحب كتاب قوانين الأصول المدفون بمقبرة شيخان - في عالم الرؤيا، فسألة: هل أن شفاعة أهل قم بيد السيدة فاطمة المعصومة؟

يقول الشيخ عباس القمي قَدِّشَ نَفْسَهُ: "فنظر إلى [الميرزا القمي] متعجباً وقال: شفاعة أهل قم بيدي، وأما فاطمة المعصومة عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ فشفاعتها لأهل العالم".^(٤٦)

نعم، إن السيدة المعصومة من أصحاب الشفاعة ذات الشأن العالي يوم القيمة وإن الناس سيطلبون منها يوم القيمة بمقامها عند الله الإعانة في الأمور، ويجعلونها الواسطة لهم للسؤال من الله بأن يغفر ذنوبهم ويعفو عن جرائمهم، وستشفع هي للشيعة منهم وستدخلهم الجنة.

ويتبين من ذلك وجه شبهتها بجدتها الزهراء عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ صاحبة الشفاعة الكبرى فالخصوصية شملت الاثنين، وإن وجد التفاوت، والحمد لله رب العالمين.

الهؤامش:

- (١) هذا هو القسم الثاني لموضوع (فاطمة الزهراء عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ موجودة في أرض قم) وقد تقدم القسم الأول منه في العدد (٣٧) من هذه المجلة.

- (٢) راجع تفسير العيashi ج ٢ ص ٦٧، الاختصاص ص ١٨٦، الكافي ج ٨ ص ٢٣٧، المسترشد ص ٣٨١، المناقب ج ٣ ص ٣٣٩ - ٣٤٠، الاحتجاج ص ٨٦ - ٨٧، ونقلت ذلك من: المجموع على بيت فاطمة عليها السلام - لعبدالزهراء مهدي - ص ١٢٧ - ١٣١.
- (٣) الكافي ج ٨ ص ٢٣٧.
- (٤) الفاطمة المعصومة عليها السلام العلم ص ١٢٨.
- (٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ١٦١.
- (٦) هناك روایات ونقولات عديدة مختلفة تصور ما جرى على ركب المعصومة عليها السلام وقد انتخبنا بعضًا منها مع عدم بيان موقع الاختلاف ومصادرها اختصاراً لكون غايتنا في هذا الجلباب بيان بعض ظلاماتها لا التحقيق فيها.
- (٧) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩.
- (٨) تاريخ قم ص ٢١٣، وبحار الأنوار ج ٤٨ ص ٢٩٠.
- (٩) اللمعة البيضاء - التبريزي الأننصاري، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.
- (١٠) مستدرك سفينة البحار ج ٨ ص ٢٦١ مادة (فطم).
- (١١) بحار الأنوار - ج ٩٧ - ص ١٩٤.
- (١٢) بحار الأنوار، ج ١٠٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧.
- (١٣) أنوار المشععين ج ١ ص ٢١١، نقلًا عن خصائص المعصومة عليها السلام.
- (١٤) زبدة التصانيف ج ٦ ص ١٥٩، نقلًا عن المختص.
- (١٥) وادي السلام ص ٤٢٣.
- (١٦) وسائل الشيعة باب ١٨ من أبواب المزار حديث ١.
- (١٧) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ - ٢١٧.
- (١٨) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ١٢ ص ٢٦٧.
- (١٩) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٢٦٧.
- (٢٠) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٦.
- (٢١) رياحين الشريعة ج ٥ ص ٣٥.
- (٢٢) كامل الزيارات باب ١٠٦ فضل زيارة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام ح ٢ ص ٥٣٦.
- (٢٣) مذكرات الشيخ الحائري ص ١١٨، مخطوط، نقلًا من خصائص المعصومة عليها السلام.

- (٢٤) السيد محمود الحسيني المرعشبي (١٢٦٠-١٣٣٨هـ): عالم فقيه أصولي محقق، مؤلف متبع متخصص بعلم الأنساب والرجال، ومشجرات السادة العلويين، ومؤرخ ثقة ثبت وقرر حسن السمت ذو أخلاق كريمة وصفات رفيعة مع علمه بالطبع اليوناني، ولد بالنجف وأخذ المقدمات والسطوح ودخل شوط الخارج فتتلذم على الميرزا حسين الخليلي والمولى فاضل الشيريباني والشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ محمد حسن المامقاني والشيخ عباس كاشف الغطاء والسيد محمد كاظم اليزيدي... وغيرهم، وانصرف إلى التصنيف والتأليف والبحث والتتبع في الأنساب وسائل العلوم الإسلامية، وأقام في النجف مفيداً ومستفيداً حتى توفي عام ١٣٣٨هـ له عدة حواشى على عدة كتب إسلامية وكتاب هادم اللذات، المصدر: معجم رجال الفكر في النجف للأميني ج ٢ ص ١١٨٨.
- (٢٥) كتاب كريمة أهل البيت عليهما السلام ص ٤٣ - ٤٥ وكتاب سيدة عش آل محمد عليهما السلام ص ٣٧ - ٣٨.
- (٢٦) الفاطمة المعصومة عليهما السلام، المعلم ص ١٧٦ - ١٧٧.
- (٢٧) بحار الأنوار ج ٥٣ ص ٣٢٥ - ٣٢٦.
- (٢٨) فمن مؤيداته ما جاء فيما يذكر عن العالم الجليل والمحبر النبيل آية الله الشيخ محمد العتيق، أنه قال: دخلت يوماً الروضة المباركة للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام وجئت إلى جانب الرأس المبارك، وإذا بي أرى مكاشفة [بوجود] السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام ومعها ثلاثة نسوة، فقالت لي السيدة المعصومة عليها السلام: انشدنا يا شيخ في الإمام الحسين عليهما السلام قال: فبدأت في أبيات من قصيدة دعيل، وإذا بي أرى نوراً يطل علينا، والنسوة يقمن من مقامهن إجلالاً للنور. فنظرت وإذا بالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام جئت تشاركوني في عزاء ولدها الإمام الحسين عليهما السلام. ثم إنها عليها السلام جلست معهن وأشارت إلى بالمواصلة، وأخذن بالبكاء، حتى زلت عنى المكاشفة وعدت إلى حالي الأولى. أقول: ولا أعتقد أحداً يستبعد ذلك مع معرفة خصائص ذلك العالم الأخرى، مصدر القصة عن كتاب السيدة المعصومة عليها السلام فرع الكوثر النابع ص ٧٨-٧٩.
- (٢٩) تاريخ قم ص ٩٤ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٢.
- (٣٠) بحار الأنوار، ج ٥٧ ص ٢٢٨ الحديث ٥٩.
- (٣١) بحار الأنوار، ج ٦٠ ص ٢٢٨.
- (٣٢) أمالي الطوسي ج ٢ ص ١٤٧.



- (٣٣) الوسائل الباب ٤٠ من أبواب الاحتضار ج ٦ نقلًا عن جواهر الكلام.
- (٣٤) تهذيب الأحكام - الطوسي ج ٦ ص ٨.
- (٣٥) تاريخ قم ص ٢١٣.
- (٣٦) منتهي الآمال ج ٢ ص ٣٧٩.
- (٣٧) الفاطمة المعصومة علیها السلام للشيخ المعلم ١٨٠-١٨١.
- (٣٨) كرامات الزهراء سلام الله عليها السيد حجة الموحد الأبطحي ص ١١٥.
- (٣٩) كريمة أهل البيت علیهم السلام ص ٢٥٠ نقلًا من مصدر آخر.
- (٤٠) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٦١، المخصائق ج ٢ ص ٢٦٥، الفصول المهمة ص ١٢٧، فضائل الصحابة ج ٢ ص ٧٦٣ ح ١٣٤٤، ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥٣٨، كفاية الطالب ص ٣٦٤، تفسير فرات الكوفي ص ٩٧.
- (٤١) الشاقب في المناقب ص ٢٩٣ ح ٢٥٠.
- (٤٢) كشف الغمة ج ١ ص ٥٠٦.
- (٤٣) أخبار الدول ص ٨٨، الإحقاق ج ١٠ ص ٣٦٧، وسيلة النجاة ص ٢١٧.
- (٤٤) بحار الأنوار ج ٥٧ ص ٢٢٨ ح ٥٩.
- (٤٥) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧.
- (٤٦) كريمة أهل البيت علیهم السلام ص ٦٠.

نظريّة الكسب عند الأشاعرة

الشيخ علي إبراهيم عبد العال

بسم الله الرحمن الرحيم، من الأبحاث الكلامية التي طرحت بين المنكرين مسألة الجبر والاختيار وأن أفعال العباد أهي مخلوقة أم غير مخلوقة؟

هذا البحث ذو تسلسل وارتباط بغيره من المسائل كمسألة مراتب التوحيد خصوصاً التوحيد في المخالقية، ومسألة الفعل والإرادة ومسألة علم الله سبحانه وتعالى وغير ذلك من المسائل.

غير أنَّ الذي تركز عليه هذا المقالة هو نظرية الكسب التي قال بها إمام أهل السنة أبو الحسن الأشعري والتي تلقاها المسلمين بأشكال متباينة فمنهم من تبنّاها ودافع عنها وحاول تشييده أركانها كأبي حامد

الغزالى وشارح المواقف الشريف الجرجانى والحافظ ابن عساكر وغيرهم، ومنهم من خالفها ونسبها إلى الضعف أو الجبر كأتباع أَمْهُدَ بن حنبل ومنهم ابن تيمية وابن القيم.

في الواقع إن هذه النظرية ألقاها أبو الحسن الأشعري ولم يتضح مراده منها وإنما أراد الفرار من مسألة الجبر التي قد يقال: إنه تبناها عند رجوعه عن مذهب المعتزلة؛ فإن أبا الحسن الأشعري قد كان في أول حياته من أئمة المعتزلة، بل يقال إنه عكف على الاعتزال لمدة أربعين سنة من حياته أو إلى سن الأربعين، ولكن بعد مناظرة جرت بينه وبين أستاذته وزوج أمّه الجبائي قرر العدول عن مذهب المعتزلة وصار إلى مذهب أهل الحديث. وخلاصة هذه المناظرة أن الأشعري طرح على أستاذته مسألة وهي أن هناك إخوة ثلاثة أحدهم مات مطيناً والآخر مات عاصياً وثالثهم مات صغيراً فما هو مصيرهم لدى الله تعالى؟ فأجابه أستاذته بأن الأول في الجنة، والثاني في النار، والثالث لا في الجنة ولا في النار. فسأله الأشعري عن السبب في ذلك فقال: إنّ الأول قد أطاع واستحق الجنة والثاني عصى فاستحق النار، والثالث لم يبلغ سن التكليف لكي يستحق أحدهما. فقال: الأشعري فلو احتج الصغير على الله تعالى هلا جعلتني أكبر فأطيعك لأدخل الجنة، فأجابه الأستاذ بأن الله يحتاج عليه حينئذ بأنه قد سلف في علمي بأنك لو كبرت لما كنت مطيناً بل كنت تعصيني فبحلمي ورحمتي عليك أمتك صغيراً. هنا يقنع الصغير. فعاد الأشعري وسأل الأستاذ فلو احتج العاصي على الله تعالى فيقول له: هلا أمتني صغيراً لكي لا أكبر فأعصيك كما أمت أخي الصغير؟ هنا توقف الأستاذ ولم يحر جوابا.

ثم إنّ الأشعري ترك مذهب المعتزلة. والذي لا يشك فيه المؤرخون أنه صار إلى مذهب أَمْهُدَ بن حنبل في بعض حياته على الأقل ولا أقل على مستوى

الظاهر. ويشهد بذلك كلامه الصريح الذي لا يقبل التأويل في كتابه الإبانة الذي اتخذه جمع من أتباع أحمد بن حنبل لينسبوا أبو الحسن الأشعري إلى مذهبهم، منكرين نسبة الآراء المعروفة من مذهب الأشاعرة للأشعري أو منكرين وفاته على تلك الآراء. إن هذا الكتاب الذي وصلنا من بين مجموعة كتبه التي ضاع شطر كبير منها أثار جدلاً حول حقيقة مذهب الأشعري، غير أنك ستجد الأشعري رجلاً آخر في كتابه الآخر وهو كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. فإنه في هذا الكتاب يسلك مسلكاً وسطاً بين المعتزلة الذين وصفوا بالمفوضة وأهل الحديث المتبعدين بالنصوص ولا يعتقدون بتأويل الأحاديث ولا بحملها على معانيها المجازية. لقد انتهج الأشعري في الإبانة منهج السلفية وأتباعه أحمد بن حنبل حتى ذكر بعض الباحثين إنه ليس له شيء يميزه عن هؤلاء في كتابه الإبانة. لكن في اللمع فقد أظهر أنسا بالأدلة الكلامية التي تتفق مع منهج المعتزلة في الهيئة وإن خالفهم في الرأي والمنهج.

إن نظرية الكسب التي جاء بها الأشعري ذكرها في كتاب اللمع. ليس من المعلوم أن ما قاله الأشعري يكشف عن نظرية جديدة أتى بها في هذا المقام. من المحتمل أن ذكره لمسألة الكسب ليست إلا لإدراكه بوجود إشكال مفاده أن القول بالتوحيد في الحال فيه يعني أن أفعال الإنسان كسائر المخلوقات إنما هي مخلوقة لله تعالى، وهذا يلزم منه الجبر. إن الأشعري حاول الفرار من الجبر خلافاً لما يقوله البعض من أنه ثبت الجبر، ولكنه كما سيوضح في هذه المقالة وقع فيما فرّ منه ومال كلامه إلى الجبر أو التناقض. وعلى أيّ حال فقد قال بالكسب وفتح الباب أمام تفسيرات كثيرة لهذا المصطلح ربما يقرب بعضها من نظرية الأمر بين الأمرين التي يقول بها الإمامية تبعاً لأئمة أهل البيت عليهما السلام، ومع ذلك فالفجوة العميقية بين هذه التفسيرات ونظرية الأمر بين الأمرين لا تكاد تنجو.

و قبل المخوض في تفسيرات الكسب لا بد من الإشارة إلى سبب هذا الاختلاف الكبير. وفي هذا لا بد من نقل كلام الأشعري الأساس لتتضمن المسألة جلياً.

كلام الأشعري في كتاب اللمع:

قال الأشعري: "فإن قال قائل: فلم لا دلّ وقوع الفعل الذي هو كسب على أنه لا فاعل له إلا الله كما دلّ على أنه لا خالق له إلا الله تعالى فـيـلـهـ كـذـلـكـ نـقـولـ. فإن قال: فلم لا دلّ على أنه لا قادر عليه إلا الله عزوجلـ. فـيـلـهـ لـاـ فـاعـلـ لـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ إـلـاـ اللهـ عـالـىـ،ـ وـلـاـ قـادـرـ عـلـيـهـ أـنـ يـكـونـ عـلـىـ مـاـ هـوـ عـلـيـهـ مـنـ حـقـيقـتـهـ أـنـ يـخـتـرـعـهـ إـلـاـ اللهـ عـالـىـ،ـ وـلـاـ قـادـرـ عـلـيـهـ أـنـ يـكـونـ كـسـبـاـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ عـلـىـ أـنـ لـاـ مـكـسـبـ لـهـ فـيـ الـحـقـيقـةـ إـلـاـ اللهـ ؟

ـقـيـلـ لـهـ:ـ الـأـفـعـالـ لـاـ بـدـ لـهـ مـنـ فـاعـلـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ،ـ لـأـنـ الـفـعـلـ لـاـ يـسـتـغـنـ عـنـ فـاعـلـ فـإـذـاـ لـمـ يـكـنـ فـاعـلـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ وـجـبـ أـنـ يـكـونـ اللهـ عـالـىـ هـوـ الـفـاعـلـ لـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ.ـ وـلـيـسـ لـاـ بـدـ لـلـفـعـلـ مـنـ مـكـسـبـ يـكـسـبـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ كـمـاـ لـاـ بـدـ مـنـ فـاعـلـ يـفـعـلـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ،ـ فـيـجـبـ إـذـاـ كـانـ الـفـعـلـ كـسـبـاـ كـانـ اللهـ عـالـىـ هـوـ الـمـكـسـبـ لـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ.ـ أـلـاـ تـرـىـ أـنـ حـرـكـةـ الـاضـطـرـارـ تـدـلـ عـلـىـ أـنـ اللهـ عـالـىـ هـوـ الـفـاعـلـ لـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ وـلـاـ تـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـمـتـحـرـكـ بـهـ فـيـ الـحـقـيقـةـ هـوـ اللهـ عـالـىـ إـذـاـ كـانـ حـرـكـةـ كـمـاـ كـانـ هـوـ الـفـعـالـ لـهـ فـيـ الـحـقـيقـةـ وـلـاـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ الـمـتـحـرـكـ الـمـضـطـرـ إـلـيـهـ فـاعـلـاـ لـهـ عـلـىـ حـقـيقـتـهـ إـذـاـ كـانـ مـتـحـرـكـاـ بـهـ فـيـ الـحـقـيقـةـ إـذـاـ كـانـ مـعـنـ الـمـتـحـرـكـ أـنـ الـحـرـكـةـ حـلـتـهـ،ـ وـلـمـ يـكـنـ جـائـزاـ عـلـىـ رـبـنـاـ تـعـالـىـ".^(١)

هذه بوادر الكسب طرحتها الأشعري تحت عنوان (باب الكلام في القدر). فقد كان في معرض الاستدلال على كون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى على حقيقة الأمر مستشهاداً بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.^(٢)

يقول الأشعري هنا كما أنه لا خالق إلا الله فكذلك لا فاعل إلا الله، ولكن ليس الأمر كذلك في الكسب فلا يجب أن يكون الكاسب هو الله وذلك لبطلان التنظير بين الفاعلية والكافرية. إن مثل الكافرية مثل اليد المرتعشة فإن المسبب للمرتعشة ليس هو الذي يرتعش. فالكسب مقول على الشيء بعد ملاحظته وليس من مقدمات وجوده ولا داخلاً في حقيقته، بخلاف الخلق والفعل فإن الأحداث لا بد لها من فاعل وخالق. وبذلك يفترق الكسب عن الفعل. يلاحظ القارئ بأن هذا دليل إثني وصفي يفسر لابدية الاتصال وعدم الاتصال، بغض النظر عن وجوب النظر فيه. غير أن الخلاف القائم على مدى قرون من الزمان في مسألة الكسب إنما هو في مرحلة تفسير ما هو الكسب وليس في سياق بيان لابدية القول بالكسب. ومن هنا نشأ التباين في كلمات أعلام المذهب الأشعري، فإن الاعتقاد بأن الأشعري له تصور واضح عن معنى الكسب هو أول الكلام ولا يمكن إحرازه من خلال كلماته.

ومع ذلك فيمكن الإشارة هنا إلى كلام آخر من كتاب اللumen ربما ينھض بتفسير حقيقة الكسب التي يقصدها.

قال الأشعري: "فإن قال: هل اكتسب الإنسان الشيء على حقيقته يكون كفراً باطلًا وإيماناً حسناً؟ قيل له: هذا خطأ وإنما معنى ((اكتسب الكفر)) أنه كفر بقوة محدثه وكذلك قولنا: ((اكتسب الإيمان)). إنما معناه أنه آمن بقوة محدثه من غير أن يكون اكتسب الشيء على حقيقته، بل الذي فعله على حقيقته هو رب العالمين. والقول في الكذب، وأن له فاعل يفعله على حقيقته، وكاذب به غير من فعله على حقيقته كالقول في فاعل الحركة على حقيقتها، والمحرك بها على الحقيقة غير من فعلها على حقيقتها وقد بينا ذلك آنفاً".^(٣)

وقال: "فلمَّا لم يكن هذا هكذا وكانت القدرة في إحدى الحركتين وجب أن تكون

كسباً لأن حقيقة الكسب أن الشيء وقع من المكتسب له بقوة محدثة لافتراء الحالين في الحركتين ولأن إدحاماً بمعنى الضرورة وجب أن تكون ضرورة، ولأن الأخرى بمعنى الكسب وجب أن تكون كسباً دليلاً على حركة الاضطرار وحركة الاتساب واحد فلذلك وجب إذا كانت إدحاماً خلقاً أن تكون الأخرى خلقاً^(٤).

ولكنك ترى أنه لم يتضح بعد المراد من الكسب من مجرد ذلك، وأن الإنية مازالت مهيمنة على الاستدلال على الكسب من غير بيان للمعنى. وعلى أيّ حال فهذا نموذج من مقالاته في هذا الكتاب ليتضح الحال جلياً أنه لماذا كانت هذه النظرية من المبهمات الثلاث حتى قيل شعر في ذلك^(٥).

التوحيد في الخالقية

كما أشرنا فإن أصل القول بالكسب نشأ بعد التفات الأشعري إلى أن القول بأن الله خالق كل شيء يلزم منه إبطال الثواب والعقاب لأن أفعال العباد لا تخرج عن كل شيء وحينئذ فلا موجب لمحاسبة غير الفاعل. هنا اضطر إلى القول بأن الله فاعل والإنسان كاسب. ولكن هذا الاضطرار في حد ذاته غاية ما يدل عليه هو عدم التزامه بأن الله يظلم العباد فيحاسبهم على ما لم يفعلوه، ولا يعني أنه جاء بالجواب المقنع على ما وصل إليه من خلال بحثه في الآيات القرآنية من خلال كتابيه الإبانة واللمع حيث وصل إلى نتائج أكيدة بأن الله فاعل لأفعال الإنسان حقيقة.

قال في الإبانة: " وأنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله. ولا نستغني عن الله، ولا نقدر على الخروج من علم الله^{عز وجل}. وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدورة له كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٦). وأن العباد لا يقدرون على أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون كما قال: ﴿هَلْ

منْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ^(٧)، وكما قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾^(٨)، وكما قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾^(٩)، وكما قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(١٠)، وهذا في كتاب الله كثير إلى أن يقول: " وأن الله يقدر أن يصلح الكافرين، ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وأنه خذلهم وطبع على قلوبهم."^(١١)

وهذا التحليل الأشعري في الإبانة لم يرد في اللمع ما ينفيه.

إن هذا الكلام يلزم منه نتيجة مهمة وهي إنكار مبدأ العلية والمعلولية في هذا الكون وهذا يلزم منه هدم واحد من الأسس العلمية والركائز الأساسية للفكر البشري. ليس الأشعري هو آخر من حاول المناقشة في مبدأ العلية والمعلولية أو من يلزم من كلامه ذلك، إلا أن الإشكال الأول الوارد على هذه الكيفية في إنكار ذلك هو أنه اتخذ البحث الدلالي القرآني لإنكار هذا المبدأ والحال أن هناك عليه ومعلولية بين فهم النص والوصول إلى النتيجة، فليزم من إثبات البطلان بطلان النتيجة. فلما ثبت أن لا علية ولا معلولية، فليس عندنا مقدمات تؤدي إلى نتائج تنفي العلية والمعلولية، فلم يثبت لدينا انتفاءها.

ومع ذلك وبغض النظر عن صحة استفادة هذا المعنى من الآيات الكريمة فلا يتوقف صحة الثواب والعقاب على إثبات العلية والمعلولية إذا أمكن تصحيح الكسب الأشعري، فإن المطلوب لكي يصح الثواب والعقاب هو نسبة الفعل إلى العبد بنحو من الاختيار. وهذه النظرية الأشعرية تحاول بالتحديد أن تفعل ذلك رغم اعترافها بمبدأ مهم من مباديء الجبر وهو التوحيد في الحالية بالمعنى المذكور. فمسألة أن الله خالق لأفعال الإنسان لا تلازم عندهم أن أفعال الإنسان لا تنسب إليه وأنه ليس مسؤولاً عنها. إن الأشعرية لا يعترفون بنسبتهم القبيح إلى الله سبحانه وتعالى، رغم أن الباحثين في المذهب الأشعري من خارجه، ومنهم

ابن تيمية في منهاج السنة^(١٢) وتلميذه ابن القيم في زاد المعاد^(١٣)، ألمزوه ب بذلك. بل تراهم ينزعون الله عن القبيح ولا يتلزمون بلوازم التوحيد في الحالقة بالمعنى الذي فسروه. وإن شئت أن تسمى هذا تناقضًا فالأمر كذلك، وكم من ملتزم بقول غير ملتزم بلوازمه. فإن الجسمة ينبغي عليهم الاعتراف بمحدودية الله بِعَدَهُمْ. وكذلك أهل الحديث الرافضون للتأنويل ينبغي عليهم الالتزام بتناقض القرآن مع العقل بل مع نفسه، وبأن الدين قائم على الرمزية والإبهام، كما احتاروا في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١٤).

الالتزام بلوازم التوحيد في الحالقة

قبل التعرض إلى تفسير الكسب نأتي بكلام هنا للفخر الرazi في تفسيره الكبير التزم فيه بعض لوازم التوحيد في الحالقة وهي عقيدة الجبر. قال في التفسير الكبير:

أما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(١٥) فيه مسألتان: المسألة الأولى: احتاج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في خلق الأفعال فقالوا: لا شك في أن أولئك الكفار كانت لهم قلوب يفهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا، ولا شك في أنه كانت لهم أعين يبصرون بها المثلثات، وأذان يسمعون بها الكلمات، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية تقييدها بما يرجع إلى الدين، وهو أنهم ما كانوا يفهون بقلوبهم ما يرجع إلى مصالح الدين، وما كانوا يبصرون ويسمعون ما يرجع إلى مصالح الدين. وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت أنه تعالى كلفهم بتحصيل الدين مع أن قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ما كانت صالحة لذلك، وهو يجري مجرى المنع عن الشيء والصد عنه مع الأمر به، وذلك هو المطلوب

ثم الأمر الملفت هو نسبته عقيدة الجبر للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي

طالب (صلوات الله عليه). قال بعد أسطر :

"إذا ثبت هذا فنقول: ظهر أن حصول هذه النفرة والعداوة في القلب ليس باختيار العبد، وثبت أنه متى حصلت هذه النفرة والعداوة في القلب، فإن الإنسان لا يمكنه مع تلك النفرة الراسخة والعداوة الشديدة تحصيل الفهم والعلم، وإذا ثبت هذا ثبت القول بالجبر لزوماً لا محيسن عنه. ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خطبة في تقرير هذا المعنى وهو في غاية الحسن. روى الشيخ أحمد البيهقي في كتاب "مناقب الشافعي حَفَظَ اللَّهُ عَنْهُ" عن علي بن أبي طالب حَفَظَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خطب الناس، فقال: وأعجب ما في الإنسان قلبه فيه مواد من الحكمة وأضدادها، فإن سنج له الرجاء أولئه الطمع، وإن هاج له الطمع أهلكه الحرص، وإن أهلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن سعد بالرضا شقي بالسخط، وإن ناله الخوف شغله الحزن وإن أصابته المصيبة قتله الجزع، وإن وجد مالاً أطفاه الغنى، وإن عضته فاقة شغله البلاء، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف، فكل تقصير به مضر وكل إفراط له مفسد. وأقول: هذا الفصل في غاية الجلالة والشرف، وهو كالمطلع على سر مسألة القضاء والقدر، لأن أعمال الجوارح مربوطة بأحوال القلوب، وكل حالة من أحوال القلب فإنها مستندة إلى حالة أخرى حصلت قبلها، وإذا وقف الإنسان على هذه الحالة علم أنه لا خلاص من الاعتراف بالجبر، وذكر الشيخ الغزالى حَفَظَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب "الإحياء" فصلاً في تقرير مذهب الجبر^(١٦).

والحاصل إن القول بالجبر ليس قوله مفترى أو مستنبطاً من كلماتهم من غير دليل وحجة، بل هو إما قول صريح كهذا المنقول أو لازم الاعتقاد كما هو الحال في كلام غيره من أئمة الأشعرية ومنهم رأس المذهب وهو أبو الحسن الأشعري كما مرّ بيانه. وهذا الإلزام الذي ألزمنا به الأشعرية قد صرّح به أيضاً القاضي محب الله بن عبد الشكور البهاري صاحب فواتح الرحمن بشرح مسلم الثبوت.

قال في الشرح المزجي: "وَعِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، أَصْحَابِ الْعِنَاءِ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ السَّنَةِ، الْبَادِلُونَ أَنفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالْجَهَادِ الْأَكْبَرِ، لَهُ قُدْرَةٌ كَاسِبَةٌ فَقْدَرَةٌ لَا خَالِقَةٌ، لَكِنْ عِنْدَ الْأَشْعُرِيَّةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ الْكَسْبُ إِلَّا وَجُودُ قُدْرَةٍ مَتَوَهَّمَةٍ يَتَخَيَّلُهُ الْشَّخْصُ قُدْرَةً مَعَ الْفَعْلِ بِلَا مَدْخَلَةٍ لَهَا أَصْلًا فِي شَيْءٍ، فَعِنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْلُقَ فِي الْعَبْدِ فَعْلًا، يَخْلُقُ أَوْلًا صَفَةً يَتَوَهَّمُ أَوْلَ الْأَمْرِ إِنَّهَا قُدْرَةٌ عَلَى شَيْءٍ، ثُمَّ يَوْجَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْفَعْلِ ثُمَّ يَوْجَدُ الْفَعْلُ، فَنَسْبَةُ الْفَعْلِ إِلَيْهِ كَنْسَةُ الْكِتَابَةِ إِلَى الْقَلْمَانِ". قالوا: ذلك كافٍ في صحة التكليف. والحق: أَنَّهُ كَفُؤٌ لِلْجَبَرِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ، فَإِنَّمَا مَتَى لَمْ يَكُنْ فِي الْعَبْدِ قُدْرَةٌ حَقِيقَةً، فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنِهِ وَبَيْنِ الْجَمَادِ".^(١٧)

الأقوال في تفسير حقيقة الکسب^(١٨)

بحسب التقسيم الوارد في كتابي الملل والنحل والإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل فإن هناك عدة تفسيرات للكسب تناولها تباعاً:

أ- ذكر الشيخ أن جماعة من الأشاعرة فسروا الکسب بتأثير قدرة العبد المحدثة في الفعل. ويظهر هذا التفسير من عدة منهم الشيخ الأشعري نفسه في اللمع والتفتازاني في شرح العقائد النسفية والقاضي الباقياني بحسب كلام الشهرستاني في الملل والنحل.

إن القدرة المكتسبة بهذا المعنى لا تعدو كونها تبريراً ناشئاً عن مسألة أن الله مستقل بخلق الأفعال وإيجادها وليس تفسيراً حقيقياً لأمر له أثر واقعي. وقد اعترف التفتازاني بذلك قال: "لا كلام في قوته هذا الكلام ومتأنته (أي كون الله مستقلاً في خلق أفعال العباد)، إلا أنه لما ثبت بالبرهان أن الخالق هو الله تعالى وثبت بالضرورة أن لقدرة العبد وإرادته مدخلٌ في بعض الأفعال كحركة اليد دون البعض كحركة الارتفاع، احتجنا في التفصي عن هذا المضيق إلى القول بأن الله تعالى خالق والعبد كاسب".^(١٩)



بـ- إيجاده سبحانه الفعل مقارناً لإرادة العبد وقدرته. هذه محاولة أخرى للتفريق بين كون الله خالقاً لأفعال العباد واستنادها إليهم، بتقريب أن قدرة الله توجد الفعل ولكن مشيئة الله لإيجاد الفعل متوقفة على مشيئة العبد، فمتي ما أراد العبد فإن الله يوجد الفعل مقارناً لإرادته. وليس للعبد أي تأثير في الإيجاد وليس الفعل فعله حقيقة ولكنه محل له كما عبر بذلك القوشجي في شرح التجريد. وبذلك صحت نسبة الفعل إلى العبد رغم أن فاعله غيره، لأن العبد أراد.

وقد يناقش هذا الكلام بأنه ما دامت قدرة العبد غير مؤثرة في الإيجاد فكيف ينسب الفعل إلى العبد ويحاسب عليه؟ قال العلامة السبحاني: "يلاحظ عليهما أن دور العبد في أفعاله على هذا التقرير ليس إلا دور المقارنة، فعند حدوث القدرة والإرادة في العبد يقوم سبحانه بخلق الفعل، ومن المعلوم أن تحقق الفعل من الله مقارناً لقدرته، لا يصح نسبة الفعل إلى العبد. ومعه كيف يتحمل مسؤوليته إذا لم تكون لقدرة العبد تأثير في وقوعه، وعندئذ تكون الحركة الاختيارية كالحركة الجبرية" ^(٢٠).

إن هذا وإن كان وارداً ولكنه- محل الخلاف بالتحديد يكمن في نقطة أخرى. إن الغزالي والقوشجي اعترفا بأن العبد ليس فاعلاً على نحو الحقيقة، ولكن لم يعلقا جواز الحساب على كونه فاعلاً حقيقة بل صرحاً الغزالي بأن العبد لما كان مريداً بهذه علاقة مصححة للنسبة وهذا يعني أن العبد محاسب وإن لم يكن هو الفاعل على وجه الحقيقة. من هنا يصح الدخول لمناقشة هذا التفسير، فإن المقول عليه الفاعلية لعلاقة مصححة لأن يقال عليه ذلك لا يعني أن هذه العلاقة قد صحت الحساب. فالمشكلة باقية من هذه الجهة. فلا ينفع أن نلزم الغزالي بأن العبد ليس فاعلاً حقيقة وهو يعترف بذلك، بل لا بد من مناقشته في أن ما جعله مصححاً للحساب لا يعدو كونه أمراً مفترضاً لا واقع له. لقد جعل

الملابسات التي حاول تصويرها هي المصححة لمحاسبة الإنسان، وهذا استنتاج باطل. إن الحساب لا يترتب على غير الفاعل الحقيقي وهذه قضية وجودانية عجز هذا التفسير عن الإجابة عليها. لذلك ذكر في الإلهيات كلاماً للتفتازاني اعترف فيه بالقصور وبأنهم لم يتمكنوا من الإتيان بأزيد من هذا المقدار.

ج- نقل في الملل والنحل كلمة نقلها شارح العقيدة الطحاوية عن صاحب كتاب المسيرة وحاصل كلامه أن الدليل دل على أن أفعال العباد مخلوقة الله تعالى ولا يوجد لدينا دليل من الشارع على الاستثناء، لكن يوجد مخصوص عقلي وهو أن إرادة العموم يستلزم الجبر المضى المستلزم لضياع التكليف وبطلاز الأمر والنهي. وحينئذ لزم القول بأن الله ليس هو الخالق للعزم على الطاعة والعصيان، فإن الخالق هما هو العبد. وأما باقي الأفعال فهي داخلة تحت عموم ما دل على أن أفعال العباد مخلوقة الله سبحانه وتعالى. هذا خلاصة ما جاء به صاحب المسيرة. أقول كيف استقل العبد بإيجاد العزم وهل هذا إلا رجوع إلى التفويض لأن الأشاعرة -الذين يفترض أن صاحب المسيرة أحدهم- لا ينتبهن منزلة بين كون الله خالقاً لأفعال الإنسان وكونها مخلوقة للإنسان نفسه وهو قول القدرية. فهل صار الشارح قدرياً في العزم وأشعرياً في الأفعال؟

ثم إن العقل لو تم تحكيمه فهو إنما ينفي كلية أن الله خالق لأفعال العباد ولا يثبت بأن العبد لا بد من أن يخلق عزيمته. وثالثاً كيف انفصل العبد عن قيمة الله تعالى في عزمه؟ إن هذا القول إنما يرفع المشكلة بإيجاد حالة افتراضية لا دليل على تتحققها في الواقع بل ولا يمكن تصورها على وجه صحيح حتى لو لم نقل بتحقّقها في الخارج.

د- نقل في الملل والنحل كلاماً لابن الخطيب حاصله أن العبد له قدرة تامة محدثة ولكن هذه القدرة لا أثر لها في الخارج لأن قدرة الله القدية تتوارد مع هذه

القدرة وقناعتها من التأثير. وأما الخلق فلا يصح أن يضاف إلى العبد لا لأجل عدم القدرة لدى العبد بل لأن المخلوق ما لم تتعلق به الخالقية القدية فالعقل يحكم بعدهه لأن الإيجاد لا يكون من العدم بل لا بد من أن يكون عن مؤثر قديم غير مسبوق بالعدم.

والحاصل أن الطاعة والمعصية يصح نسبتها إلى الإنسان لأنه محل للقدرة التي خلقها الله فيه والتي بها صحت الطاعة والمعصية، لا بخلق الأفعال. وعلى أي حال فهذا الكلام لا يخلو من تأمل كبير ويرد عليه بعض الإيرادات المذكورة على غيره من الأقوال. وهاهنا أقوال أخرى يمكن مراجعتها في كتاب الملل والنحل.

الخلاصة:

تناولنا كلمات شتى لعلماء الأشاعرة بالنص وبالمعنى ومذهبهم في كون الأفعال مخلوقة لله سبحانه وتعالى من غير تأثير حقيقي للعبد ومحاولتهم تصحيح العقاب والثواب بمسألة الكسب. فالأشاعرة قائلون بالجبر حقيقة بمعنى أنه لا دخل للإنسان في التأثير في أفعاله، ولكن لا يصح نسبة الجبر إليهم بمعنى أنهم يلومون العبد على ما ليس له دخل فيه أبداً، بل هم يثبتون نحواً من الملasseة بين إرادة الإنسان وفعل الله. نعم، إن تفسيرهم لذلك لا يخلو من تعقيد وإيهام ولا يؤدي لغير الجبر، لكنهم لا يلتزمون بلوازم ما أدى إليه بحثهم في مخلوقية أفعال الإنسان.

ربما حام علماء الأشاعرة عبر القرون حول الأمر بين الأمرين ولكن على غير بصيرة كذلك المستوحاة من أمثال كتاب التوحيد للشيخ الصدوق. فقد ورد في توحيد الصدوق عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالاً: «إن الله عز وجل أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنب ثم يعذبهم عليهما، والله أعز من أن يريد أمراً فلا يكون». فسئلـاً عليهما هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قالاً: نعم أوسع مما بين السماء

والأرض». إن هذه المنزلة لها أبحاثها الخاصة لدى العلماء من الخاصة. ربما يقال: إن الأشاعرة يدورون حول هذه المنزلة ولكن بسبب المقدمات الباطلة وفهمهم الخاطئ لآيات القرآن الكريم ضلوا عن الطريق وصاروا إلى الجبر من حيث لا يشعرون. ولعل من أكثر من اقترب من نظرية الإمامية في هذا المجال هو صاحب فوائح الرحموت حيث أشار إلى قول الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ وقوى مفهوم الأمر بين الأمرين والمنزلة بين المزلتين، وإن لم يستوف الكلام في ذلك ولم يتعد مرحلة المفهوم إلى مرحلة التفسير. ولكنه خالف في هذا صاحب مسلم الثبوت الذي أنكر هذه المنزلة بين الجبر والتفسير من غير أن ينسبها إلى الصادق صلوات الله وسلامه عليه^(٢١).

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

الهوامش:

- (١) اللمع في الرد على أهل الزيف والبدع صفحة .٧٢
- (٢) الصافات: .٩٦
- (٣) نفس المصدر صفحة .٧٤
- (٤) نفس المصدر صفحة .٧٦
- (٥) مما يقال ولا حقيقة عنده معقوله تدنو إلى الأفهام الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظام عن القضاة والقدر لعبد الكريم الخطيب نقلًا عن بحوث في الملل والنحل للشيخ جعفر السبحاني ١٣٩١١
- (٦) الصافات: .٩٦
- (٧) فاطر: .٣
- (٨) النحل: .٢٠
- (٩) النحل: .١٧

- (١٠) الطور: ٣٥.
- (١١) الإبانة عن أصول الديانة صفحة ١٥-١٦.
- (١٢) لاحظ منهاج السنة الجزء الأول صفحة ٣٨٢ وما بعدها.
- (١٣) لاحظ زاد المعاد في هدي خير العباد الجزء الثالث صفحة ٢٢٨.
- (١٤) القصص: ٨٨.
- (١٥) الأعراف: ١٧٩.
- (١٦) التفسير الكبير ١٥\٦٣-٦٤.
- (١٧) فوائح الرحموت بشرح مسلم الثبوت الجزء الأول صفحة ٤١ نقلًا عن استخراج المرام من استقصاء الإفحام للعلم الحجة آية الله السيد حامد حسين الل肯وي تأليف السيد علي الحسيني الميلاني.
- (١٨) تم الاعتماد في هذا القسم على كتابي بحوث في الملل والتحل والإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل للعلامة الحق الشيخ جعفر السبحاني.
- (١٩) شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني صفحة ١١٥ نقلًا عن كتاب الإلهيات الجزء الثاني صفحة ٢٧٧.
- (٢٠) الإلهيات الجزء الثاني صفحة ٢٧٩.
- (٢١) فوائح الرحموت الجزء الأول صفحة ٣٦.



قاعدة الحرام لا يفسد الحلال ولا يحرّمه

الشيخ علي فاضل الصدفي

من قواعد باب النكاح (قاعدة الحلال لا يُحرّم الحلال) أو ما يؤدّي
مؤدّاها، وقد بلغت هذه القاعدة حدّ السنة القطعية، وسيتضح ذلك من
استعراض روايات تطبيق القاعدة، كما أثّرها قد رویت عن النبيّ وأخيه
الوصي (صلوات الله عليهما وآلهما) من طرق العامة^(١)، ففي السنن
الكبرى بإسناده عن عائشة قالت: سئل رسول الله [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ]
عن الرجل يتبع المرأة حراماً أينكح ابنته أو يتبع الابنة حراماً أينكح
أمّها؟ قالت: قال رسول الله [صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ]: «لا يحرّم الحرام الحلال،
إنما يحرّم ما كان بنكاح حلال».

ولعلّ الحديث قد جاء ردّاً على ما ورد عند العامة نقلًا عن ابن مسعود موقوفاً عليه، فقد روى عبد الرزاق عن الثوري عن جابر عن الشعبي قال: قال عبد الله: ما اجتمع حلال وحرام إلا غالب الحرام على الحال، قال سفيان: وذلك في الرجل يفجر بامرأة وعنده ابنتها أو أمها، فإذا كان ذلك فارقها^(٢).
ومما يتصل بالقاعدة ويلقي ضوءاً عليها ما رواه في دعائم الإسلام عن الصادق عليه السلام أنه قال: «بن الحرام لا يحرم الحال، ومثل ذلك امرأة أرضعت بلبن زوجها (رجل)^(٣)، ثم أرضعت بلبن فجور، قال: ومن أرضع من لبن فجور صبية لم يحرم نكاحها؛ لأنّ لبن الحرام لا يحرم الحال»^(٤). وقد استدلّ به صاحب الجواهر^(٥)
وغيره على أنّ اللبن لا ينشر حرمة إذا كان عن زنا^(٦).

واللهم بحثه في هذه القاعدة جهات ثلات: أولاهما: في سعة القاعدة لغير باب النكاح من أبواب الفقه. والجهة الثانية: في المراد من الحال وأنه خصوص الحال الفعلي أو الأعم منه ومن الشأن التقديرية، ومنه يعرف الحال في تطبيقات بعض الأعلام للقاعدة. والجهة الثالثة: في موارد تطبيق الروايات للقاعدة.

أما الجهة الأولى وهي سعة القاعدة لغير باب النكاح أو اختصاصها به فالظاهر بدواً من أسلوبها خصوصاً: «ما حرم حرام حلالاً قطّ» السعة بالعموم الوضعي لغير باب النكاح من أبواب الفقه، فلدى الشك في عروض التحرير لما هو محلّ بسبب اقترانه بأمرٍ محروم أو سبقه عليه أو لحقه له فمقتضى القاعدةبقاء الحال^٧ وعدم انقلابها إلى الحرمة بسبب ذلك، وهذا قال في الجواهر في مسألة الولاية من قبل الجائز على ما يشتمل على محلّ ومحروم: «نم في حرمة ما كان منها محللاً كجباية الخراج والنظام بغير المحروم ونحوها وعدمهها- وجهان ينشئان من آنها بمنزلة الولaitين المستقلتين إحداهما على عملٍ محلّ والأخرى على محروم، فكلٌّ منها له حكمه، إذ الحرام لا يحرم الحال...»^(٨).

ولكن قد يقال باختصاص القاعدة بباب النكاح لأمرتين:

الأول: أنّ القاعدة إنما جاءت في مقابل ما عليه العامة أو بعضهم من باطل القياس والاستحسان الذي كان متعارفاً في مدرسة الرأي بالكوفة آنذاك بأن لاحظوا حرمة الجمع بين البنت وأمها في النكاح مثلاً فقلسوا السفاح على النكاح، وقد يشهد لذلك ما تقدّم عن ابن مسعود.

الثاني: ما قد يفهم من معتبرة زرارة الآتية من أنّ المراد بالحلال في لسان القاعدة هو النكاح لا مطلق الحال، ويفيد ذلك رواية عائشة المتقدمة عن السنن الكبرى.

إذن فالقاعدة ليست ناظرة إلى أنّ ارتکاب أيّ حرام لا يؤدّي إلى حرمة محلّ آخر أو موارد الخلط والاشتباه أصلًا⁽⁷⁾. نعم مفاد القاعدة موافق لمقتضى الأصل، وهو أنّ كلّ قضيّتين اختلفتا موضوعاً فلا سراية لحكم إدحافها إلى الأخرى، فالسراية هي التي تحتاج إلى دليل، لا أن عدمها يحتاج إلى القاعدة؛ كي يبحث في تخصّصها بالنكاح أو عمومها لغيره.

الجهة الثانية: في دائرة الحال: وأنّ الحرام كما لا يرفع الحال هل لا يدفعه أم لا؟

فينبغي أولاً عرض جملة من الكلمات حولها:
قال الشيخ الأعظم قتيل في كتاب النكاح معللاً حرمة أم الموقب وبنته وأخته في فرض ما لو عقد على إدحافهن ففارقها ثم فعل ذلك القبيح بأن: "عموم قوله: «لا يحرّم الحرام الحال» في الحال بالفعل، وهكذا حكم غير المسألة من مسائل المصاهرة وما يلحقها".⁽⁸⁾

وقال الإمام الخوئي قتيل معللاً الحرمة في نفس المسألة: "إن أدلة عدم إفساد الحرام للحال ناظرة إلى الزوجية الثابتة بالفعل والحلية الفعلية، فلا تشمل الزوجية

السابقة والزائلة بالفعل، وأضاف قائلًا بأنّ هذا الحكم لا يختصّ باللواء، بل يجري في ابنة العمّة وابن الخالة أيضًا، فإنه لو زنى بالعمّة أو الخالة في حال كون ابنتهما زوجة له ثم طلقها، وبعد ذلك أراد التزويج منها، فإنّ أدلة المنع تشمله، نظرًا لاختصاص أدلة عدم الإفساد بالزوجة بالفعل^(٩).

وقال الإمام الحكيم قائلًا: "المستفاد من النصوص المتضمنة أنّ الحرام لا يحرّم الحلال أو لا يفسده -بعد ضمّ بعضها إلى بعض وملحوظة مواردتها- أنّ الحرام لا يرفع الحلية، ولا يدلّ على أنه لا يدفع الحلية"^(١٠).

ولكنّه قائلًا طبق القاعدة على مورد فيه حلية شأنية، فاستدلّ بالقاعدة على جواز نكاح الزانية غير ذات البعل بالزاني بها^(١١).

ثمّ إنّه قائلًا استشكل في دعوى أنّ الظاهر من النبوى: «الحرام لا يفسد الحلال أو يحرّم الحلال» الحال الفعلى وآتتها غير واضحة المأخذ^(١٢).

هذا وجملة من روایات القاعدة وإن طبقتها في مورد الحلية الفعلية إلا أنّ جملة أخرى وافرة طبقتها في مورد الحلية الشأنية.

فمن روایات الطائفة الأولى صحيحه محمد بن مسلم عن أحد هماعرثة الله عليه السلام أنّه سُئل عن الرجل يفجر بالمرأة أيتزوج ابنته؟ قال: «لا، ولكن إذا كانت عنده امرأة ثم فجر بأمهما أو ابنتهما أو أختهما لم تحرم عليه امرأته؛ إنّ الحرام لا يفسد الحال»^(١٣).

وصحیحه الحلبي عن أبي عبد الله علیه السلام في رجلٍ تزوّج جارية فدخل بها، ثم ابلي بها ففجر بأمهما، أتخرم عليه امرأته؟ فقال: «لا؛ إنّه لا يحرّم الحال حرام»^(١٤).

وصحیحه زرارة عن أبي جعفر علیه السلام أنّه قال: في رجلٍ زنى بأم امرأته أو بنتهما أو بأختها، فقال: «لا يحرّم ذلك عليه امرأته، ثم قال: ما حرم حرام حلالاً قط»^(١٥).

وصحیحه مرازم قال: سمعت أبا عبد الله علیه السلام وسئل عن امرأة أمرت ابنتها أن

يقع على جارية لأبيه فوق؟ فقال: «أفت وأثم ابنها، وقد سألني بعض هؤلاء عن هذه المسألة، قلت له: أمسكها؛ فإنَّ الحلال لا يُفسدُ الحرام»^(١٦)، وغيرها.

ومن روایات الطائفة الثانية صحيحه سعيد بن يسار قال: سألتُ أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عن رجلٍ فجر بامرأة يتزوج ابنته؟ قال: «نعم يا سعيد؛ إنَّ الحرام لا يُفسدُ الحلال»^(١٧).

وصحیحه هشام بن المثنی قال: كنت عند أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال له رجل: رجلٌ فجر بامرأة، أتَحَلَّ له ابنته؟ قال: «نعم؛ إنَّ الحرام لا يُفسدُ الحلال»^(١٨).

وصحیحه حنان بن سدیر قال: كنت عند أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذ سأله سعيد عن رجل تزوج امرأة سفاحاً، هل تحلّ له ابنته؟ قال: «نعم؛ إنَّ الحرام لا يُحرّمُ الحلال»^(١٩)، وغيرها.

فالمستفاد من أدلة أنَّ الحرام لا يُفسدُ الحلال ولا يُحرّمه - بعد ضم بعضها إلى بعض وملحوظة تطبيقاتها - أنَّ الحرام كما لا يرفع الحلية لا يدفعها أيضاً^(٢٠)؛ فإنَّ روایات الطائفة الأولى - ما عدا صحيحه ابن مسلم - وإن كان موردها الحلية الفعلية إلا أنه لا مفهوم لها في عدم تناول القاعدة لمورد الحلية الشأنية، وأماماً صحيحه ابن مسلم فهي وإن دلت على الحرمة في صورة كون الحلية تقديرية، إلا أنها بعد معارضتها لروایات الطائفة الثانية فلا تصلح مخصوصاً أو مقيداً للقاعدة^(٢١).

كما أنه قد دلت بعض الروایات على ثبوت الحرمة حتى في صورة كون الحلية فعلية ما لم يتفق الدخول، كما في روایة أبي الصباح الکنافی عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «إذا فجر الرجل بالمرأة لم تحلّ له ابنته أبداً، وإن كان قد تزوج ابنته قبل ذلك ولم يدخل بها فقد بطل تزويجه، وإن هو تزوج ابنته ودخل بها ثم فجر بأمها بعدما دخل بابتها فليس يُفسد فجوره بأمها نكاح ابنته إذا هو دخل بها، وهو قوله: لا يُفسدُ الحرامُ الحلالُ إِذَا كَانَ هَكَنَا»^(٢٢).

وفي معتبرة عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل تكون عنده الجارية فيقع عليها ابن ابنته قبل أن يطأها الحد، أو الرجل يزني بالمرأة هل يجوز لأبيه أن يتزوجها؟ قال: «لا، إنما ذلك إذا تزوجها فوطأها ثم زنى بها ابنه لم يضره؛ لأن الحرام لا يفسد الحلال، وكذلك الجارية»^(٢٣).

ولكنّ ضعف سند الأولى بمحمد بن الفضيل مانع من الاعتماد عليها في تخصيص أو تقييد مفاد القاعدة، والثانية وإن كانت معتبرة -ولا يعيّب سندها اشتتماله على سهل؛ فإنه ثقة على المختار- إلا أنها قد تضمنت بوضوح حرمة الزوجة لو زنى بها ابن قبل وطء الأب لها، وهو مما لم يلتزم به أحد إلا ابن الجنيد على ما حكى عنه^(٢٤)، وسيأتي مزيد كلام حول حرمة الجارية المذكورة، وكذا عن مورد رواية الكناني في الجهة الثانية إن شاء الله سبحانه.

مفهوم الحديث:

ثم إنّه قد استدلّ بفهم (الحرام لا يحرّم الحلال) -بناءً على كون المراد من الحلال الأعمّ من التقدير- على كون وطء المرأة شبهة السابق على التزويج موجباً لترحيم بنتها^(٢٥)، بتقرير أنّ مقتضى الحديث هو أنّ الحلال يحرّم الحلال، وحيث إنّ الوطء شبهة من مصاديق الحلال فيكون محرّماً.

ويتوجّه عليه مضافاً لعدم كون وطء الشبهة حلالاً دائماً، بل بعضه حرام كما لو كان عن جهل بالحكم ناشئ عن تقدير-أنّ مفهوم تلك القضية ليس قضية كلية، وهي كلّ حلال يحرّم الحلال- كي يستدلّ بها في المقام؛ فإنّ الوصف سيما غير المعتمد، وهو ما يعرف باللقب كما في موردنا (أولاً) لا مفهوم له، و(ثانياً) على فرض أنّ له مفهوماً فهو وجبة جزئية لا كلية، نظير أن يقال: (الرجل لا يخالف وعده)، فإنّ غاية مفاده أنّ من ليس رجلاً قد يخالف وعده. بل لما كان الحرام في مقابل النكاح لا في مقابل مطلق الحلال، ويشهد لذلك

معتبرة زرارة قال: قال أبو جعفر عَلَيْهِ الْكَفَافُ: «إِذَا زَنَى رَجُلٌ بِامْرَأَةِ أُبِيهِ أَوْ جَارِيَةِ أُبِيهِ فَإِنْ ذَلِكَ لَا يُحْرِمُهَا عَلَى زَوْجِهَا، وَلَا تَحْرِمُ الْجَارِيَةُ عَلَى سَيِّدِهَا، إِنَّمَا يُحْرِمُ ذَلِكَ مِنْهُ إِذَا أُتَى الْجَارِيَةُ وَهِيَ حَلَالٌ فَلَا تَحْلُّ تَلْكَ الْجَارِيَةُ أَبْدًا لَابْنَهُ وَلَا لِأُبِيهِ، وَإِذَا تَزَوَّجَ رَجُلٌ امْرَأَةً تَزَوَّجُ بِهَا حَلَالًا فَلَا تَحْلُّ تَلْكَ الْمَرْأَةُ لِأُبِيهِ وَلَابْنِهِ»^(٢٦)، وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذُيِّلَ بِهِ الْحَدِيثُ فِي نَقْلِ الْعَامَّةِ كَمَا تَقْدِيمُهُ عَنِ السِّنْنِ الْكَبْرِيِّ: «لَا يُحْرِمُ الْحَرَامُ الْحَلَالَ، إِنَّمَا يُحْرِمُ مَا كَانَ بِنَكَاحٍ حَلَالًا»، وَلَا أَقْلَى مِنْ أَنْ ذَلِكَ مُحْتَمِلٌ فَلَئِنْ كَانَ لِلْحَدِيثِ مَفْهُومٌ فَلَا يَتَنَاهُ مُطْلِقُ الْحَلَالِ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَكَاحًا كَوْطَءَ الشَّبَهَةِ.

الجهة الثالثة: في تطبيقات القاعدة ومستثنياتها في نفس الروايات:

الأول: حرمة المزنى بها على أب الزاني:

فقد دللت معتبرة عمّار المتقدّمة على الحرمة فيما إذا كان الزنا سابقاً على العقد، فلا مناص من التزام التخصيص أو التقييد للقاعدة وإن لم يقم دليل على حرمة مطلق ذات البعل المزنى بها على الزاني، فتشتبه الحرمة في هذه الصورة. كما أنّ مقتضى المعتبرة هو الحرمة فيما إذا كان الزنا لاحقاً للعقد قبل وطء الأب لها، ولكن قد عرفت مما مرّ في الجهة الأولى عدم إمكان التزام الحرمة؛ لعدم التزام أحد بها إلا شاذ، على أنّها معارضة بما في ذيل معتبرة زرارة المتقدّمة، حيث حصرت حرمتها بفرض وطئها حلالاً، فالمرجح -بناءً على كون الإطلاق فعل المطلق بالبناء للفاعل، وإن كان فهمه بتوسيط قرينة الحكمة كما هو المختار- أو المرجع بعد تساقطهما هو قوله سبحانه: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَأَءَ ذَلِكُم﴾^(٢٧).

وقد طبّقت المعتبرة قاعدة (لا يُحرّم الْحَرَامُ الْحَلَالَ) في صورة ما إذا كان زنا الولد لاحقاً لعقد الأب بها ووطئه لها.

الثاني: حرمة مملوكة الأب بزنا ابنه بها:

وقد دلت المعتبرة على الحرمة فيما لو كان زنا الابن بها سابقاً على وطء الأب لها، ولا تعارضهما صحيحة مرازم قال: سمعت أبا عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ وسَلَّمَ عن امرأة أمرت ابنها أن يقع على جارية لأبيه فوقع، فقال: «أثنت وأثتم ابنها، وقد سألني بعض هؤلاء عن هذه المسألة فقلت له: أمسكها؛ فإنَّ الحلال لا يُفسدُ الحرام»^(٢٨)؛ لكونها أمّ منها لشموها فرضي وطء الأب لها وعدمه، وكون التعليل صادقاً عليهما لا ينبع من تخصيصه بالمعتبرة.

نعم هي معارضة بمعتبرة زرارة المتقدمة الدالة على حصر الحرمة بفرض وطئها حلالاً، فالمرجح أو المرجع بعد تساقطهما هو آية الحل.

وقد طبّقت المعتبرة القاعدة في صورة ما إذا كان زنا الولد بملوكة أبيه لاحقاً لوطء الأب لها، وهذه الصورة هي القدر المتيقن للقاعدة.

الثالث: حرمة أم المزني بها وبنتها وأختها على الزاني:

وقد تضمنّت كل روايات الباب الثامن من أبواب ما يحرم بالماهرة: أنّ من تزوج امرأة ثم زنى بأمّها أو بنتها أو اختها لم تحرم عليه زوجته، كما عنونه بذلك الشيخ الحرّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد طبّقت تلك الروايات القاعدة في هذه الصورة.

نعم أخذت الرواية الثامنة وهي الأخيرة في الباب، وهي رواية أبي الصباح الكناني قيد الدخول بالزوجة قبل طرء الزنا بأمّها في الحلّية، وقد تقدّم في الجهة الأولى عدم اعتبار هذا القيد.

ثم إنّ جملة من روايات الباب السادس قد تضمنّت حرمة أم المزني بها وبنتها على الزاني في فرض سبق الزنا كصحيحة ابن مسلم عن أحد همَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه سئل عن الرجل يفجر المرأة أيتزوج ابنته؟ قال: «لا، ولكن إن كانت عنده امرأة ثم فجر بأمّها أو ابنته أو اختها لم تحرم عليه امرأته؛ فإنَّ الحرام لا يُفسدُ الحلال»^(٢٩).

وصحىحة العيص بن القاسم قال: سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن رجلٍ باشر امرأة وقبلَ غير أنه لم يفض إليها ثم تزوج ابنتها، فقال: «إن لم يكن أفضى إلى الأم فلا بأس، وإن كان أفضى إليها فلا يتزوج ابنتها»^(٣٠).

وصحىحة يزيد الكناسى قال: إن رجلاً تزوج امرأة قد زعم أنه كان يلاعب أمها ويقبّلها من غير أن يكون أفضى إليها، قال: فسألت أبا عبد الله عليه السلام فقال: «كذب، مُرْءَةٌ فليفارقها، قال: فأخبرت الرجل فو الله ما دفع ذلك عن نفسه وخلّ سبيلها»^(٣١).

وفي مقابل هذه الروايات جملة أخرى من روایات الباب السادس: منها صحىحة سعيد بن يسار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل فجر بأمرأة يتزوج ابنته؟ قال: «نعم يا سعيد؛ إن الحرام لا يفسد الحلال»^(٣٢).

وصحىحة هشام بن المثنى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن الرجل يأتي المرأة حراماً، أيتزوجها؟ قال: «نعم، وأمها وابتها»^(٣٣).

وصحىحته الأخرى قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له رجلٌ فجر بأمرأة، أتحلُّ له ابنته؟ قال: «نعم؛ إن الحرام لا يفسد الحلال»^(٣٤).

وصحىحة حنان بن سدير قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ سأله سعيد عن رجلٍ تزوج امرأة سفاحاً، هل تحلُّ له ابنته؟ قال: «نعم؛ إن الحرام لا يحرّم الحلال»^(٣٥).

الترجح الجهتي:

وقد حمل صاحب الجواهر روایات الجواز على التقيّة، ورأه أحسن المحامل؛ معللاً ذلك بقوله: "وذلك لأنّ هذا الخبر - كما يظهر من الانتصار والفنية وغيرهما - نبوي، أي (لا يفسد الحرام الحلال)، وأنه من روایاتهم عنه عليه السلام، وهو صحيح، لكنهم لم يفهموا المراد منه، فظّلوا أنّ المراد منه ما يشمل الحلال تقديرًا، وهو ليس كذلك،

ضرورة أنّ الصور ثلاثة(كذا) أحدها: أن يقع الوطء الحرام متعقباً للوطء الحلال بالعقد أو الملك، ولا ريب في كون ذلك من أفراده. ثانية: أن يقع بين العقد والوطء...ثالثها: أن يقع الحرام قبل إيجاد سبب الحلّ، ولا ريب في عدم تناوله لهذا الفرد؛ ضرورة كون المراد فعلية الحلّ لا تقديرها(كذا)، ودعوى حلية العقد عليها فعلاً يدفعها ظهور إرادة أنّ الحرام من ذلك الصنف لا يُفسد الحلّ منه، لا أنّ المراد ما يشمل ذلك والحلّ من كليّ آخر، بل قد يدعى ظهور لفظ الإفساد في بعض هذه النصوص في المتعقب لما هو قابل للإفساد من العقد الذي هو سبب حلية الوطء أو الملك المتعقب للوطء، وحينئذ تكون هذه النصوص المشتملة على التعليل المزبور الذي هو غير منطبق على ما هو الظاهر إنّما خرجت على مذاق العامة وما يعلّلون به، بل قوله عليه في الخبر السابق، «ولقد سألهي بعض هؤلاء عن هذه المسألة فقلت له» إلى آخره- مشعر بما قلناه من صدور ذلك ونحوه تقية، ولذا قد فصلوا الأمر في النصوص التي قد عرفتها، وبينوا بها فساد ما فهمه العامة من النبوى، فكان ذكر التعليل منهم فيما ليس من أفراده ظاهراً رمز(كذا) منهم على صدور ذلك منهم تقية...^(٣٦).

ويتوجّه عليه أولاً: أنّه ليس في روایات المسألة ما فيه دلالة أو إشعار بأنّ مذهب المخالفين في المسألة هو التحرير أو الجواز، بما في ذلك صحيحة مرازم.

وثانياً: لا قرينة على تعين كون المراد من الحل في الحديث هو الحلّ الفعلى كما تقدم في المجهة الأولى من البحث، وإن كان هو القدر المتيقّن، و مجرّد إرادة الحرمة الفعلية لا يعيّن أنّ المراد بالحل هو الحلّ الفعلى، والحديث لا ينحصر لفظه في (لا يُفسد الحرام الحلّ) لو سُلِّمَ قصوريه؛ فقد ورد كثيراً بلفظ (الحرام لا يُحرّم الحلّ)، على أنه قد طبق بلفظ (لا يُفسد) في مورد الحلية التقديريّة كما في صحيحة هشام الثانية.

وثالثاً: إنّ النوبة لا تصل إلى الترجيح بمخالفة العامة مع وجود المرجح

المضمني وموافقة إحدى الطائفتين للكتاب في قوله سبحانه ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾.

ورابعاً: أنه لو وصلت التوبة إلى المرجح المجهتي فنمة مبعد من حمل ما دل على الجواز على التقية، فإن بيان الحكم على خلاف الواقع للتقية أمر مضطراً إليه، إلا أن تعليل الحكم غير الواقعي بمثل (الحرام لا يحرم الحال) ليس مضطراً إليه، حتى لو كان التعليل مشتركاً بيننا وبينهم، وليس مختصاً بنا؛ فإن التعليل وإن كان بالمشترك قد يغري بطبيعة الحكم للواقع، بل يؤذن بسعة التعليل لما لا يتناوله، فيغري بالتمسك به فيه، وهو موارد الحل التقديرية.

ومن مبعّدات حمل ما دل على الجواز على التقية - أن القول بالحرمة مشهور عند المخالفين؛ فقد حکاه في المغني عن عمران بن حصين والحسن وعطاء وطاوس ومجاهد والشعبي والنخعي والثوري وإسحاق وأصحاب الرأي^(٣٧).

الجمع العرفي بين الطائفتين:

وقد جمع في بعض الكلمات^(٣٨) بين الطائفتين بالتصريح في الحمول وهو الحكم، بحمل ما دل على المنع على الكراهة، واعتبره أقرب الوجه؛ تطبيقاً لقرinية النص على الظاهر، وأن ما دل على المنع أقصاه الظهور في الحرمة، فيرفع اليد عنه بصراحة ما دل على الجواز.

ويرد عليه أولاً: إباء بعض روایات الطائفة الأولى عن الحمل على الكراهة كصحیحة یزید الکتّاسی؛ إذ الأمر بفارقتها ظاهر في بطلان النکاح وأنّها أجنبية عنه، وكذا صحیحة محمد بن مسلم؛ فإنـ(لا) في جواب السؤال بقرینة المقابلة مع قوله (لم تحرم) في الشق الآخر واضح في الحرمة.

وثانياً: إن الجمع العرفي بحمل ما دل على المنع على الكراهة إنما يكون في الأوامر المولوية، بينما الأوامر الإرشادية لنفاذ العقد وعدمه من الأحكام الوضعية

التي لا مجال فيها للحمل على الكراهة.

جمع آخر:

وقد جمع أحد الأجلة (سلّمه الله^(٣٩)) بين الطائفتين بالتصريح في الموضوع بحمل الفجور الوارد في غالب روایات الجواز على ما دون الوطء، مستشهاداً لعمومية استعماله لما دون الوطء بما في صحيحة منصور بن حازم عن أبي عبدالله علیه السلام في رحلي كان بيته وبين امرأة فجور، هل يتزوج ابنتها؟ فقال: "إن كان من قُبلة أو شبهها فليتزوج ابنتها، وإن كان جماعاً فلا يتزوج ابنتها، وليتزوجها هي إن شاء"^(٤٠).

وبما في موثقة ابن بکير قال: سألت أبا عبدالله علیه السلام في آخر ما لقيته عن غلام لم يبلغ الحُلُم وقد وقع على امرأة أو فجر بامرأة، أي شيء يصنع بهما؟ قال: «يضرب الغلام دون الحد ويُقام على المرأة الحد...»^(٤١).

ويرد عليه أولاً: إن استعمال الفجور فيما دون الوطء لقرينة لا يمنع من اصراف(فجر) في روایات الجواز إلى الوطء إذا خلا عن القريئة، على أن بعض هذه الروایات أخذت عنوان الإثبات كصحيحة هشام بن المثنى الأولى، وبعضها أخذت عنوان التزوج سفاحاً كصحيحة حنان بن سدير.

وثانياً: إن روایات الجواز وإن وقع السؤال فيها على عنوان الفجور المحتمل لما دون الوطء إلا أن جوابه بالجواز المذيل (إن الحرام لا يحرّم الحلال أو لا يفسده) يؤخذ بالتعييم للوطء.

وثالثاً: إن من المحتمل في عطف الفجور بامرأة على الواقع عليها في الموثقة هو الشرح والبيان لا المقابلة، وأن المراد بالفجور هو الوطء، ويشهد لذلك ذيل الموثقة «قلت: جارية لم تبلغ وجدت مع رجل يفجر بها؟ قال: تضرب الجارية دون الحد، ويُقام على الرجل الحد [الكامل]»؛ فإن الفجور بقرينة إقامة الحد الكامل يراد منه الوطء، كما يُحتمل في العطف الترديد في السؤال بين الواقع على المرأة أو

الفجور بها.

والمحصلة أنه حيث تعذر الجمع العرفي واستحکم التعارض بين الطائفتين فتصل النوبة إلى ترجیح الطائفة الثانية الدالة على الجواز والحل، بموافقة الكتاب العزيز، قال سبحانه: ﴿وَأَحْلِ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾، ولا تصل النوبة إلى الترجیح بخلافة العامة.

ثم إنّه توجد جملة موارد على تقدير ثبوت حرمة النكاح فيها تكون استثناءً من القاعدة (الحرام لا يحرّم الحلال) كحرمة بنت الملوط وأخته على اللانط، وحرمة ذات البعل المزني بها على الزاني، وغيرها، وحيث لا ثرة مهمّة في بحث هذه الموارد فيما يتصل بالقاعدة أعرضنا عنها.

خاتمة: في جملة من تطبيقات القاعدة في الكلمات

وفي كلمات العلمين الحکيم والخوئي قلتُما جملة تطبيقات للقاعدة، وسأسرد تلکم التطبيقات للاستئناس كالتالي:

أ- تزویج المرأة الزانية غير ذات البعل للزاني^(٤٢).

ب- عدم حرمة الزوجة على زوجها بزناها^(٤٣).

ت- عدم حرمة الزوجة أو المملوكة بوطء اختها^(٤٤).

ث- الزواج بأخت الزوجة لا يحرّمها^(٤٥).

ج- وطء الزوجة حال الإحرام^(٤٦).

الهوامش:

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٤٩ ب ٦٣ ح ٢٠١٥، السنن الكبرى ٧: ١٦٨، ١٦٩.

(٢) المصطفى ٧: ١٩٩، عنه كنز العمال ٣: ٧٩٧ (٨٧٩٠).

(٣) كذا في الدعائم.

(٤) مستدرك الوسائل ١٤: ٣٧٣ بـ ١١ من أبواب ما يحرم بالرضاع ح ١.

(٥) انظر: جواهر الكلام ٢٩: ٢٦٥، ٢٦٦، فقه الصادق ٢١: ٣٥٢.

(٦) جواهر الكلام ٢٢: ١٥٧، وانظر: قواعد الحديث ٢: ١٤٨.

(٧) وكان الشعبي من علماء الجمهور يتوهّم سعة القاعدة لغير باب النكاح، فردّ القاعدة رأساً، ففي السنن الكبرى (٧: ١٦٨) بإسناده عن يحيى بن يعمر عن ابن عباس عَلَيْهِ الْغَنَوْمَ أَنَّهُ قال في رجل زنى بأم امرأته أو بابتها فإنهما حرمتان تخطّهما، ولا يُحرّمها ذلك عليه، قال: وقال يحيى بن يعمر: ما حرام حراماً حلالاً فقط، بل لو أخذت كوزاً من خمر فسكتبه في حبٍ لكان ذلك الماء حراماً، وكان رأي الشعبي أَنَّها قد حرمَت عليه.

(٨) كتاب النكاح = تراث الشيخ الأعظم ق٢٢: ٤.

(٩) مبني العروة الوثقى (كتاب النكاح ١) = موسوعة الإمام الخوئي ق٣٢: ٣٠٨.

(١٠) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ١٦٤.

(١١) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ١٥٢.

(١٢) انظر: مستمسك العروة الوثقى ١٤: ٢١٥.

(١٣) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٨ بـ ٨ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١.

(١٤) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٨ بـ ٨ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٢.

(١٥) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٩ بـ ٨ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٣.

(١٦) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٠ بـ ٤ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٤.

(١٧) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٥ بـ ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٦.

(١٨) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٥ بـ ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١٠.

(١٩) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٥ بـ ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١١.

(٢٠) ودعوى كون الحلّ في آية ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَأَمَ ذَلِكُم﴾ حلاً تقديرياً قرينة على إرادة الحل التقديرية في قاعتنا (مستمسك العروة الوثقى ١٤/٢١٥) - ليست ببرهان ولا مبنية.

(٢١) وإنما عبرت بالتحصيص؛ لأنّ جملة من روایات القاعدة (بـ ٦ ح ٩، بـ ٨ ح ٦، ٣) قد اشتملت على مفردة (قط) الظاهرة في العموم، وهي روایات زرارة الثالث، ومنها صحيحته المتقدّمة.

- (٤٦) مباني العروة الوثقى ١٢ (ك النكاح ١)= موسوعة الإمام الحوئي تدبر ٣٢ / ٢٥٠.
- (٤٥) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ٢٤٣.
- (٤٤) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ٢٤٢.
- (٤٣) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ١٥٦.
- (٤٢) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ١٥٢.
- (٤١) الكافي ٧: ١٨٠ ح.
- (٤٠) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٤ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٣.
- (٣٩) سند العروة الوثقى (ك النكاح) ١: ٣٦٢، ٣٦١.
- (٣٨) مستمسك العروة الوثقى ١٤: ٢١٧، ٢١٥.
- (٣٧) انظر: المغني لابن قدامة ٧: ٤٨٢.
- (٣٦) جواهر الكلام ٢٩: ٣٧٢، ٣٧٣.
- (٣٥) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٦ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١١.
- (٣٤) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٦ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١٠.
- (٣٣) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٥ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٧.
- (٣٢) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٥ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٦.
- (٣١) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٤ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٥.
- (٣٠) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٤ ب ٦ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٢.
- (٢٩) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٨ ب ٨ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١.
- (٢٨) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٠ ب ٤ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٤.
- (٢٧) سورة النساء: ٢٤.
- (٢٦) الكافي ٥: ٤١٩ ح ٧، وسائل الشيعة ٢٠: ٤١٩ ب ٤ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ١.
- (٢٥) انظر: مستمسك العروة الوثقى ١٤: ٢١٨، ٢١٩.
- (٢٤) انظر: مختلف الشيعة ٧: ٣٩.
- (٢٣) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٢٠ ب ٨ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٣.
- (٢٢) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٣٠ ب ٨ من أبواب ما يحرم بالصاهرة ح ٨.



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

● Advisory Board :

Sh. Abdulla Ali Al daqaq
Sh. Ali Fadhel Alsadadi
Sh. Ghazi Abdulhassan

● General Supervisor :

Sh. Abdulraoof Hassan Alrabia

● Editor in Chief:

Sh.mohammed ali khatam

● Editor in Director:

Sh.husain fuad Almarzooq

● Chairman of the Editorial Board:

Sh.Aziz Hassan Salman

● Editorial Board:

Sh.husain ali abu rwais

Sh.m.bager khalil Alshaikh



A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom

